أسست عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

Al-Waei Al-islami

العدد (٥٩٦) ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ - فبراير ٢٠١٥ م

الثقافة العربية والإسلامية في شبه القارة الهندية

وزير الأوقاف والعدل
الأسبق الجسار..
في ذمة الله

سلطة ولي الأمر في تقييد المباح

وثيقة دولية تيسر عمل المرأة الخيري

اليوم العالمي للغة العربية

هدية العدد: «ذاكر الوعي الإسلامي (٦)»

مجلة مع العدد: «براعم الإيمان»

info@alwaei.com

www.alwaei.gov.kw

مجلة الوعي الإسلامي

الافتتاحية

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ

المال أداة استثمار، وليس أداة كنز، أوجده الله لنتداوله ونستثمره ونديره به عجلة الاقتصاد، وقد نهى الله سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال، التي جعلها الله للناس قياما لمعاشهم وتجارتهم، ومن هنا يؤخذ الحجر إما لحظ النفس أو حظ الغير، ولأن المال المتوافر بين الناس هو حق لمالكيه والناس، لأن في حصوله منفعة عامة، ويعود للجميع بالمصلحة.

لذلك لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحته له مع الضبط والتنظيم. فالتدبير نصف المعيشة، وحسن التدبير مع العفاف خير من الغنى مع الإسراف، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان:٦٧).

فقد مدح الله عباده الصالحين بتوسطهم في إنفاقهم، فلا يجاوزون الحد بالإسراف في الإنفاق، ولا يقترون، أي: لا يضيقون فيبخلون بإنفاق القدر اللازم. فالمال عصب الحياة ووسيلة الإنسان، وهو إحدى الضرورات الخمس لتحقيق النصوص الشرعية، والمقاصد المرعية، وهو نعمة من نعم الله على خلقه في الحياة الدنيا، وهو الطريق إلى الاستمتاع بنعمها وزينتها، لذلك، لم تمنع الشريعة الإنسان من أن يمتلك المال، وإنما أباحت له ذلك مع الاعتدال.

فالمال أداة استثمار وإنفاق، وليس للكنز والادخار، فقد أوجده الله تعالى للتداول والاستثمار، ونهى عن الكسب الحرام، وعن إضاعة المال، وأكله بالباطل، فالإنسان مؤتمن عليه ومستخلف فيه، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١). وحكمة الله مراعاة المصلحة في تحقيق السعادة البشرية، ودفع الجشع والأنانية.

فالإنسان دنيا نفسه، فليس يرى الصلاح إلا إذا صلحت له، ولا يجد الفساد إلا إذا فسدت عليه، لأن نفسه أخص، وحاله أمس.

وقد قيل:

دَبِّرِ العيش بالقليل ليبقى
فبقاء القليل بالتدبير
لا تبذر وإن ملكت كثيرا
فزوال الكثير بالتبذير

فالقصد في النفقة مطلوب لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩).

فأمر الله بالقصد، الذي هو بين الغلو والتقصير، وقد قيل: «ما عال من اقتصد»، وقد شاع: «خير الأمور أوساطها».

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

الوعي الإسلامي

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
في دولة الكويت مطلع كل شهر عربي
العدد ٥٩٦ | ربيع الآخر ١٤٣٦ هـ
العام الثاني والخمسون
فبراير ٢٠١٥ م

رئيس التحرير
فيصل يوسف العلي

سكرتير التحرير
سليمان خالد الرومي

التحرير
عبادة السيد نوح
د. الطاهر خذيري
هدايت الله نثار أحمد

الإخراج والجرافيك
أبورواش زكي محمد
فاطمة الجندي

الإشراف الفني
الشركة العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

المراسلات
رئيس التحرير – مجلة الوعي الإسلامي
صندوق البريد : ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧
الكويت – هاتف:٢٢٤٦٧١٣٢ – ٢٢٤٧٠١٥٦
فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩
للإعلان : ١٨٤٤٠٤٤ داخلي – ٣٠١
البريد الالكتروني:
info@alwaei.com
الموقع الالكتروني:
www.alwaei.gov.kw
مكتب مصر : دار الإعلام العربية-٤٣ شارع
دجلة – متفرع من شارع جامعة الدول العربية
– المهندسين – الدور الأول – مكتب ١٠٤
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٣٦٤٠٤٣
alwaei@arabmediahouse.net

المجلة غير ملزمة
بإعادة أي مادة تتلقاها للنشر.
والمقالات لا تعبر بالضرورة
عن رأي المجلة.

في هذا العدد

٦
القرآن الكريم وحوار الأفكار

١٠
وزير الأوقاف والعدل الأسبق الجسار.. في ذمة الله

١٨
معالم الهدى في زمن الفتن

٥٦
الحرف العربي وتحديات المستقبل

التوزيع

وكيل التوزيع: شركة الشبكة الدولية للدعاية والإعلان والنشر والتوزيع
هاتف: ٢٤٩١٥١٠٦- ٢٤٩١٥١٠٧ (٠٠٩٦٥) – فاكس : ٢٤٩١٥١٠٩ (٠٠٩٦٥)

- مصر – القاهرة – شارع الصحافة – جريدة أخبار اليوم – ت: ٢٥٧٨٢٧٠٠ (٠٠٢٠٢) ف: ٢٥٧٨٣٥٤–(٠٠٢٠٢)
- اليمن – صنعاء – الدار العربية للنشر والتوزيع ت – ف: ٣٣١٧٩٧ (٠٠٩٦٧)
- لبنان – شركة نعنوع الصحفية – ت: ٦٥٣٢٥٩(٠٠٩٦١١) ف: ٦٥٣٢٦٠
- سوريا – دمشق – برامكة – ص.ب ١٢٠٣٥ – ت: ٢١٢٤٨٣١ (١١ ٠٠٩٦٣) ف: ٢١٢٨٦٦٤ – المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
- الأردن – عمان – شركة وكالة التوزيع الأردنية – ص.ب ٣٧٥ . رمز بريدي ١١١١٨ – ت: ٤٦٣٠١٩١(٠٠٩٦٢٦) ف: ٥٣٣٧٧٣٣
- المغرب – الدار البيضاء – ص.ب ١٣٦٨٣ – ملتقى زنقة رحال بن أحمد وزنقة سان ساتس – ٢٠٣٠٠ الدار البيضاء ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣ (٠٠٢١٢) ف: ٢٢٤٩٥٥٧ – الشركة الشريفية
- مملكة البحرين – المنامة – ص.ب ٣٢٦٢ – ت: ٧٢٥١١١ (٠٠٩٧٣) ف: ٧٢٣٧٦٣ – مؤسسة الأيام للنشر والتوزيع
- الإمارات العربية المتحدة – ت: ٢٦٨٣٨٥٣ ٠٠٩٧١٤ – شركة دار الحكمة للنشر والتوزيع
- المملكة العربية السعودية – الرياض – ص.ب ٨٤٥٤٠ الرياض ١١٦٧١ – ت: ٤٨٧١٤١٤ (٠٠٩٦٦١) ف: ٤٨٧١٤٦٠ – الشركة الوطنية الموحدة للتوزيع الشريفية للتوزيع والصحف
- سلطنة عُمان – مسقط – ص.ب ٤٧٣ العذيبة . رمز بريدي ١٣٠ – ت: ٢٤٤٩٣٢٠٠ (٠٠٩٦٨) ف: ٢٤٤٩٣٣٠٠ – مؤسسة العطاء للتوزيع
- قطر – الدوحة – ت: ٢٤٤٩٣٣٠٠ (٠٠٩٧٤) دار الشرق للصحافة والطباعة والنشر.
- ماليزيا– شركة – المصطفى ميديا جروب سندرين برحد – ت– ٣٣٧١١٩٦٦ (٠٠٦٠٣)
- الجزائر – شركة ام بي سي ت: ٣١٩٠٩٥٩٠(٠٠٢١٣)
- تونس – الشركة التونسية للصحافة ت: ٧١٣٢٢٤٩٩ (٠٠٢١٦)
- المملكة المتحدة – لندن – شركة يونفرسال ت : ٢٠٨٧٤٢٣٣٤٤ (٠٠٤٤) .

الأسعار

●الكويت : ٥٠٠ فلس ●السعودية: ٥ ريالات ● البحرين : ٥٠٠ فلس ● قطر : ٥ ريالات ● الإمارات : ٥ درهم ● سلطنة عمان: ٥٠٠ بيسة ●الأردن:دينار واحد ● مصر : ٢ جنيه ●اليمن : ١٠٠ ريال ●لبنان: ٢٠٠٠ ليرة ● سوريا: ٣٠ ليرة ● المغرب : ١٠دراهم ● الجزائر: ٤ دينار جزائري ●تونس: دينار واحد تونسي ● المملكة المتحدة: ١,٥ جنيه استرليني ● باقي دول العالم : ٣ دولارات أمريكي أو مايعادلها.

المحتويات

٣	**الافتتاحية/** وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ	فيصل يوسف العلي
٦	**قرآن/** القرآن الكريم وحوار الأفكار	د. أمان قحيف
١٠	**رثاء/** وزير الأوقاف والعدل الأسبق الجسار في ذمة الله	التحرير
١٤	**حوار/** د. محمد الحملاوي أستاذ هندسة الحاسبات الآلية	محمد ثابت توفيق
١٨	**فكر/** معالم الهدى في زمن الفتن	د. صالح بن حميد
٢٠	بناء ثقافة التسامح	د. حسن عزوزي
٢٣	رحيل المحقق د. عبدالرحمن العثيمين	التحرير
٢٤	**ملف العدد/** إجراءات الدولة الإسلامية للتخفيف من الأزمة الاقتصادية	عبدالعلي الوالي
٢٧	القروض الاستثمارية وموقف الإسلام منها	التحرير
٢٨	خير تركة للأبناء.. أدب وتعليم	السنوسي محمد
٣٢	الشره الاستهلاكي	نشوه صالح
٣٦	**دراسات/** سلطة ولي الأمر في تقييد المباح	التحرير
٤٠	المسلمون في أوروبا الشرقية (١-٢)	د. علاء الدين أغا
٤٦	**تاريخ/** الثقافة العربية والإسلامية في شبه القارة الهندية	تركي النصر
٥٢	**رثاء/** المؤرخ الشيخ محمود شاكر الحرستاني في ذمة الله	التحرير
٥٤	**لغة وأدب/** القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٩)	عبدالله أيت الأعشير
٥٦	الحرف العربي وتحديات المستقبل	إسلام لطفي
٥٨	اليوم العالمي للعربية	التحرير
٥٩	نظرية جديدة لتعليم الفصحى	التحرير
٦٠	شجرة الخير	محمد السعيد
٦٢	الأوقات في الموروث اللغوي العربي	خلف أبو زيد
٦٥	قد رضيت بقربه	محمد عباس
٦٦	**مقدمات الكتب/** الذخيرة للقرافي	التحرير
٦٨	**فعاليات/** وثيقة دولية تيسر عمل المرأة الخيري	التحرير
٧٠	المرأة بين تجاذب الفكر واختيارات الذات	سلمى الميمني
٧٢	**أسرة/** ٦ نصائح لتقليل الغيرة بين الأبناء	د. آندي حجازي
٧٦	غرس الثقة في نفس الطفل	آمال حسناوي
٧٨	الأسرة أهم المحاضن والمحبة أفضل تربية	الزبير مهداد
٨٢	**فعاليات/** معرض المخطوطات الإسلامية بالمسجد الكبير	علاء عبدالفتاح
٨٤	**عمران/** السبق الإسلامي في حماية البيئة الطبيعية للمدن	د. يحيى وزيري
٨٧	**خواطر/** تدبر في حالك	محمد فريد فراج
٨٨	**كنوز الذاكرة/** الرحالون المسلمون	التحرير
٩٠	**النوازل/** نوازل الاعتقادات: ما يتعلق بأحكام القرآن الكريم	د. محمود الكبش
٩٢	**ينابيع المعرفة**	التحرير
٩٤	**بريد القراء**	التحرير
٩٨	**مسك الختام/** المؤرخ.. والتعصب	مصطفى يعقوب

كلمة العدد

يوم اللغة العربية

احتفل العالم العربي والإسلامي باليوم العالمي للغة العربية، الذي يصادف يوم ١٨ ديسمبر من كل عام، وهو التاريخ الذي أقرت فيه الأمم المتحدة إدخال اللغة العربية ضمن اللغات الرسمية ولغة العمل بالأمم المتحدة. فبعد جهود بذلت منذ خمسينيات القرن الماضي، قرر المجلس التنفيذي لليونسكو في أكتوبر ٢٠١٢م تخصيص يوم ١٨ ديسمبر يوما عالميا للغة العربية، واعتماد اليوم العالمي للغة العربية كأحد العناصر الأساسية في برنامج عملها لكل سنة.

لقد كان السلف الصالح يعتبرون اللغة العربية لغة القرآن الكريم فهي أعظم اللغات، وهي لغة الحبيب المصطفى ﷺ، وهي أجمل اللغات، وهي لغة أهل الجنة، حتى بات تعلم العربية محورا مهما للمفسر والمحدث والفقيه لإتقان علمه.

وقد نزل القرآن الكريم بذات ألفاظ العرب، ولكن إعجازه في تفرده في اختيار نظم قرآني غير مألوف، مما جعل الأقوام يتحيرون في وصف القرآن، فهو ليس كلام جان ولا إنسان.

ووفق برنامج «العربية للجميع» غير الربحي لنشر العربية، فإن تقديرات الأمم المتحدة تشير إلى أن عدد المتحدثين باللغة العربية كلغة أولى يبلغ اليوم ٢٧٩ مليون نسمة، يضاف إليهم ١٣٠ مليونا يتكلمونها لغة ثانية.

وتتوقع التقديرات نفسها، أن يتحدث بها عام ٢٠٥٠م نحو ٦٤٧ مليون نسمة كلغة أولى، أي ما يشكل نحو ٦,٩٤ في المئة من سكان العالم.

إذن اللغة العربية في نمو مستمر، وتحتاج إلى الكثير للحفاظ عليها ونشرها بين الأمم. لذا، ينبغي بناء مجتمعات لغوية، قليلة أو كثيرة، تتحدث وتتعامل بالفصحى فيما بينها.

التحرير

الاشتراكات

- داخل الكويت : للأفراد ٧,٥ دنانير ـ للمؤسسات ١٥ دينارًا كويتيًا
- دول العالم : للأفراد ٢٠ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).
- الدول العربية : للأفراد ١٠ دنانير كويتية (أو ما يعادلها).
- للمؤسسات: ٢٥ دينارًا كويتيًا (أو ما يعادلها).

ترسل قيمة الاشتراكات في شيك إلى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية (الرجاء عدم إرسال مبالغ نقدية)

القرآن الكريم وحوار الأفكار

د. أمان محمد قحيف
مفكر إسلامي

لعل من أفضل ما يناط بالعقل العربي والإسلامي تعلمه من القرآن الكريم في اللحظة الحضارية الراهنة، الكيفية السليمة للانخراط في حوار فكري ومعرفي مع من ينتقد حضارتنا، وثقافتنا، ولغتنا، وديننا، وطرائق تفكيرنا - من كتّاب ومثقفي الحضارات الأخرى.. إذ الملاحظ أن فضاءنا الثقافي لم يتعامل مع العديد من الأطروحات الفكرية والثقافية التي تمسنا من قريب أو من بعيد بآليات ناجعة وأساليب مثمرة بالقدر الكافي؛ فمازال أسلوب تناولنا لأفكار الآخرين بحاجة ماسة إلى المزيد من الدراسة المتأنية والتحليل الموضوعي السليم.. ولعل ما حدث إبان ظهور ردود أفعال ثقافتنا المعاصرة على ما طرحه «صمويل هنتنجتون» في «صدام الحضارات» يظهر هذا المعنى ويؤكده؛ إذ تبين أن مسافة مازالت موجودة بيننا وبين التناول الواعي الخلاق لرؤى الآخرين وأفكارهم، وبالتالي لم نتمكن من التعامل مع رؤى الآخرين وتصوراتهم بشكل إيجابي وفعال.. فقد اتسمت ردود أفعال ثقافتنا حول ما طرحه «هنتنجتون» بالعاطفية، والانفعالية، والخطابية، إلى حد كبير.

والراصد للحركية الفكرية في عالمنا العربي والإسلامي وقتذاك يتبين له غياب الخطاب التحليلي والرؤية المنهجية في تناول هذه القضية، وتغلّب الخطاب المعتمد على المهارات اللفظية والمماحكات الفكرية التي تتوقف عند القشور دون ملامسة جوهر الموضوع ومكنونه ومحتواه.. والدليل على ذلك أننا لم ننجز رؤية فكرية متكاملة تتسم بالنسقية والمنهجية في الرد على الأفكار والرؤى والتصورات التي طرحها هذا الكاتب الذي كان مغمورا قبل نشره لهذه الأطروحة.. لقد جاءت الردود التي أفرزتها زوبعة «صدام الحضارات» أشبه بمجموعة من الأفكار المتناثرة، أو المقتبسة من هنا وهناك، واختفى الموقف الفكري القائم على أسس واضحة من التحليل المعتمد على أساسيات البحث ومنهجيته.

واللافت أن يكون هذا حالنا في الوقت الذي نمتلك فيه تراثا فكريا ضخما، به العديد من المؤلفات والمراجع التي تتحدث عن منهجية الجدل والحوار مع الآخر.. وفيه

العديد من المؤلفات التي تحض على الوعي النقدي، وتتحدث عن أصول التباينات الفكرية ومبادئها وأخلاقياتها!.

وإذا كنا نهدف - كأمة - إلى أن تكون لدينا المقدرة الفعالة على التواصل الفكري والحوار الجدلي مع مَن هم من خارج إطار حضارتنا، فإن الأمر يقتضي الالتزام بمجموعة من الأسس والعوامل التي تكون في مجملها منهجا متكاملا يساعدنا على محاورة الآخرين وممارسة الوعي النقدي معهم، بما يساهم في إجلاء الحقائق وتوضيح الأمور.. هذا المنهج يرتكز على مجموعة من الأسس وردت في القرآن الكريم، ونشير إليها على النحو التالي:

أولا: التعامل مع النقد بسعة أفق ورؤية

فمن طبيعة العقل الواعي أنه غير متسرع، بالتالي فهو لا ينفعل، ولا يغضب إذا دخل في حوار مع الآخرين.. ولقد أعطى القرآن الكريم درسا للبشرية جميعا، وليس للمسلمين وحدهم، في سعة الصدر ورحابة الأفق، عندما طلب من النبي ﷺ أن يعرض عن الذين يخوضون في آيات الله حتى ينتهوا عن هذا الأمر تماما، موضحا أنه لا جناح عليه في مخالطتهم بعد ذلك إذا انتقلوا بالحديث إلى موضوعات أخرى.. يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ (الأنعام:٦٨).

إلى هذا الحد بلغ الحلم والصبر على المتطاولين والمنتقدين للإسلام.. إن كل ما يطلبه القرآن الكريم هنا هو أن يعتزل المسلم مَن يخوض في آيات الله تعالى؛ حتى ينتهي عن ذلك وينشغل بأمر آخر، ولا مانع ساعتها من مخالطته والتعامل معه في إطار الثوابت الإسلامية - التي جاءت في القرآن الكريم وأوضحتها السنَّة النبوية المطهرة - للتعامل مع الآخر.

والحق أن القرآن الكريم أسس لقاعدة مهمة في هذا السياق، وهي اللجوء إلى الهدوء والسكينة في حالة قيام الآخرين بطرح ما يتعارض مع موروثنا وثقافتنا من أفكار وآراء وتصورات.. إنه الهدوء الذي يجعل الإنسان ممتلكا لزمام أمره، ولا يفقده صوابه أو عقلانيته.. كي ما يتمكن من التفكير الهادئ، ويستطيع الدخول في حوار رصين ينطلق من أسس متفق عليها، وينتهي إلى نتائج يفرزها الانتقال المنطقي المنظم من فكرة إلى أخرى.

والحق أن الآية التي أشرنا إليها سابقا تقع في سورة «الأنعام»، وهي مكية، حيث لم يكن المسلمون من القوة بحيث يردعون من يتطاول على دينهم وعقيدتهم.. غير أن القرآن الكريم اتخذ الموقف نفسه حيال نفس الأمر عندما حدث والمسلمون بالمدينة المنورة، وكانوا يمثلون القوة العظمى بها، بل إن القرآن الكريم ذكّرهم بأن هذه القضية سبق معالجتها من قبل، قال ربنا: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ (النساء:١٤٠).

وإذا كان الله تعالى قد أوقف الأمر عند حدود عدم مجالسة من يخوض في آياته تعالى، وطلب منا أن نقيم معه «مقاطعة مؤقتة» حتى ينتقل إلى حديث غيره؛ فذلك يتوافق تماما مع المنهاج الإسلامي الذي يقوم على جواز التواصل مع غير المسلم، ما لم يسع إلى حربنا أو إخراجنا من ديارنا أو ديننا، قال العزيز الحكيم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ (الممتحنة:٨).

من هنا فإن المنهج القرآني على توافق تام - لأنه تنزيل من رب العالمين - فيما يتعلق بالموقف من الرؤى النقدية التي يطرحها الآخرون، من حيث أنه لابد من التعامل مع تلكم الرؤى والتصورات من خلال ذهن متفتح وعقل مستنير متسامح غير متشدد.. ولا يجوز للمسلم تجاوز مرحلة «المقاطعة المؤقتة» هذه إلا إذا تخطت الأمور حدود النقد إلى محاولات المحاربة في الدين أو الإخراج من الوطن.

وإذا كان الإسلام الحنيف قد انتهى إلى ضرورة محاربة من يحارب المسلمين في دينهم وأوطانهم، فإنه يتفق في ذلك مع كل الدساتير والقوانين التي تعارفت عليها الأمم واتفقت عليها الحضارات، فلا يوجد دستور أو قانون في الدنيا كلها يمنع الإنسان، أي إنسان، من الدفاع عن وطنه ومعتقداته، بل إن القوانين المعمول بها دوليا تعاقب من يتخاذل في الدفاع عن هذين الأمرين، الدين والوطن.. من ثم فلا مجال للتطاول على تشريعات الإسلام الحنيف من هذه الناحية، بحجة أنه أجاز القتال.

ومن هنا أقرت المنظمات الدولية الدفاع المسلح من أجل تحرير الأوطان، وتم إقرار الحرية الدينية التي تعطي لكل إنسان الحق في أن يعتنق ما يشاء من الأديان، وهذا الأمر يتفق شكلا وموضوعا مع التصور الإسلامي الذي أكد حرية الاعتقاد من خلال قول العزيز الحكيم: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة:٢٥٦).. وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

ثانيا: استيعاب ما عند الآخر

الحق أن مما يلاحظه الراصد لما يحدث في ثقافتنا عند وجود نوع من الحراك الفكري أن ثمة تعجل - لدى البعض - في الرد على من وجه إلينا سهام نقده.. وهذه نقطة لها أهميتها، لأنه لكي تحسن الرد على أحد فلابد أن تحسن استيعاب ما عنده من أفكار.. إن التعجل عادة ما يكون مصحوبا بحماس وحسن نية، لكن هذه الأمور ليست ناجعة في محاجة الآخرين ومناقشة أفكارهم.. لابد إذن من التؤدة، والتروي، والدرس، والتحليل.. ولا مانع من أن نبدأ الحوار بأن نبين للآخر ما فهمناه من مقصوده، ونشرح رؤيته كما وصلتنا كي ما يكون على ثقة من أننا استوعبناه وأدركنا أهدافه ومراميه.. على النحو الذي فعله الإمام «أبوحامد الغزالي ت ٥٠٥ هـ / ١١١١ م» الذي شرح «مقاصد الفلاسفة» في كتاب خاص قبل أن يرد عليهم في «تهافت الفلاسفة» (١).

والحق أنه يتبين للمتأمل في كتاب ربنا أن القرآن الكريم يذكر قول المنتقدين - للوحي المنزل - أو شبهتهم قبل أن يرد عليها.. وهذا أمر لا نقف عليه في أية حضارة أخرى، فمن ذا الذي يعطي خصمه الحق كاملا لدرجة أنه يذكر له شبهته، ويذكر له حجته التي يحتج بها، قبل أن يقوم هو بدحضها والرد عليه؟

لقد مارس القرآن الكريم ذلك ليعطي للآخر حقه في إبراز ما عنده من أفكار وتصورات حول القضية الإيمانية.. وهذا ظاهر في أكثر من موضع من كتاب الله تعالى، وإليك بعض الأمثلة:

أ - لقد زعم بعضهم أن الرسول ﷺ يتعلم القرآن من شخص آخر، وفي هذا نفي للوحي وتكذيب للنبي ﷺ، فقال تعالى مثبتا ومبرهنا على تهافت عقولهم وتفاهتها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل:١٠٣).. وهكذا ساق القرآن الكريم ردا منطقيا، قضى به على حجتهم وأبطل به زعمهم، من دون أن يغمطهم حقهم في التعبير عن رأيهم، حتى وإن كان من الآراء الباطلة والمزاعم المدحوضة.

ب - ولأنهم لم يستوعبوا فكرة الوحي بشكل سليم فقد زعم بعضهم أن القرآن الكريم ليس منزلا، بل هو أضغاث أحلام، أو كلام مفترى على الله تعالى، أو شعر.. وتناول القرآن الكريم هذه القضية بمنتهى الوضوح والشفافية، فعبَّر عن رأيهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ (الأنبياء:٥).. ثم عادوا فاتهموا الرسول ﷺ بأنه شاعر مجنون، وذكر الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ (الصافات:٣٦).. وأورد القرآن الكريم قولا آخر لهم في نفس المعنى، حيث قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ (الطور:٣٠).

إلى هذا الحد أعطى القرآن الكريم الآخرين حقهم في أن تطرح وجهة نظرهم، وينزل بها نص قرآني يتعبد به.. الأمر الذي يؤكد لنا ارتقاء وسمو المنهج القرآني في التعامل مع المنتقدين، ويؤكد من جهة أخرى مدى تسامحه معهم وصبره عليهم، ويبرز أيضا حرصه الشديد على أن يواجه الفكر بالفكر، وليس بأية وسيلة أخرى.

ج - وكان مما ادعوه وزعموه أيضا أنهم وصفوا القرآن الكريم بالسحر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ (الأحقاف:٧-٨).

والحق أنهم وصفوا القرآن بالسحر لأنه يؤثر في نفس وعقل وروح من يسمعه تأثيرا كبيرا، فبدلا من أن يعترفوا بأنه كلام معجز منزَّل من السماء وليس من أقوال البشر؛ ذهبوا يدعون أنه من أقوال السحرة وأفعالهم، متأثرين في زعمهم هذا بثقافة السحر والسحرة التي كانت منتشرة في بيئتهم.

ولنا أن نرد على هذه الفرية من خلال نقطتين، هما: أولا: لقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن القرآن الكريم حريص طوال الوقت على رفض تلك الترهات والخرافات!. ثانيا: إذا كان القرآن الكريم سحرا فلماذا لم يسحر كل مناهضيه ومعارضيه؟ أم أنه كان سحرا على مجموعة من الناس وليس سحرا على الآخرين؟!.

د - ومما عرضه القرآن الكريم من ادعاءاتهم أيضا أنهم لما قرأوا القرآن ووجدوا فيه بعض السجع، ذهب جماعة منهم إلى الزعم بأن القرآن سجع وكهانة؛ مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾﴾ (الطور:١-٤).. فرد القرآن الكريم على هذا الزعم بقول الله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحاقة:٣٨-٤٢).. وورد في هذا المعنى عدة آيات منها قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ (الطور:٢٩)..

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (التكوير:٢٥).. ورد ربنا سبحانه وتعالى على هذا الادعاء بما يدحضه ويظهر ضعفه وسذاجته قائلا ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ (الشعراء:٢١٠-٢١٢).. ثم يوضح القرآن الكريم أن الشياطين لا يتعاملون إلا مع نوعية معينة من البشر: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ (الشعراء:٢٢١-٢٢٣).. فالشياطين كذبة ويتعاملون مع الأفاكين والكذبة أمثالهم.

هـ - ومما أبرزه القرآن الكريم من دعاويهم الواهية وطلباتهم الطائشة - أيضا - ما ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان:٣٢).. وفي نفس الآية رد الله تبارك وتعالى قائلا ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الفرقان:٣٢).. فالعلة في نزوله منجما هي أن يتم تثبيت قلب النبي ﷺ به في مواجهة ما يتعرض له من محن ومصاعب.. وثمة علة أخرى تتعلق بارتباط القرآن الكريم بمعالجة كل واقعة حال حدوثها، وهي أنه لو نزل القرآن الكريم كله مرة واحدة لتعجبوا من كثرة موضوعاته وتعدد قضاياه، وأنكروه واعترضوا عليه.

والخلاصة هنا: أن القرآن الكريم بلغ الذروة في النزاهة في عرض فكر خصومه ومنتقديه ليعلّم الناس جميعا أن الحوار الهادئ المستنير هو الآلية الوحيدة الناجعة في تمييز الحق من الباطل، والصواب من الخطأ.

ثالثا: القدرة على نقد الذات

من الأسس التي نرى أن يقوم عليها علم «نقد الأفكار» هو أن يقوم الحوار الفكري على استعداد الذوات المتحاورة للاعتراف بوجوه التقصير لدى الأنا، إن وجد، مع الاستعداد أيضا للاعتراف للآخر بحقه ومكانته.. غير أنه يتبين للراصد للكتابات - شبه السجالية - التي تنتجها مطابعنا وبعض المطابع الغربية أو الشرقية على السواء- أن بعض الكتاب سواء من هنا أو من هناك يتبنون وجهة نظر مفادها أن الأنا هي الأفضل دائما، وأن الآخر هو المسؤول عن كل شيء غير مقبول وغير حضاري.. فهناك من الأقلام الغربية من لا يكف عن التذكير بأن العرب حَمَلٌ على الحضارة، وأن الغرب هو من ينتج لهم كل متطلبات حياتهم، ويزعم بعضهم أن الفكر والإبداع غربي في القديم والحديث.. وبالمقابل منا أناس يطنطنون طوال الوقت بمسؤولية الغرب عن تخلفنا، بسبب نظرته الاستعمارية لنا ولثرواتنا.. ويتهمون الغرب بأنه يحتكر التكنولوجيا، ناسين أو متناسين عدة أمور:

أ - أن الغرب لا يحتكر التكنولوجيا بدليل أن مجتمعات شرق آسيا قد نجحت إلى حد كبير في اكتساب العلم والتكنولوجيا، وأضحت تمتلك مستويات متقدمة من الاقتصاد والمعرفة، بما يتيح لها أن تتنافس مع دول الغرب الأوروبي، وربما تتفوق عليها.

ب - عجزنا وتقصيرنا نحن عن الوصول إلى التكنولوجيا، سواء كان ذلك بسبب قصور في تنمية القدرات الإبداعية في طرق التعليم ببلادنا العربية والإسلامية، أم بسبب كسلنا واعتمادنا على الآخر!.

ج - إن أحدا لن يتصدق علينا بالمعرفة العلمية.. من ثم فلابد من بذل الجهد والعرق والمال من أجل الوصول إلى المفتاح السحري للتكنولوجيا، إذا أردنا أن نكون من الأمم التي تسمع لها كلمة ويؤخذ لها رأي في قضايا العالم ومسائله.

والحق أن تاريخ ثقافتنا زاخر بما يفيد أننا أمة تعترف لغيرها بالفضل، إذا كان له ذلك، فـ «ابن رشد» -مثلا- ذهب إلى أنه علينا أن نطلع على ما عند غيرنا، فإن وجدنا فيه خيرا أفدنا منه وشكرناهم عليه، وإن كان غير ذلك تركناه وعذرناهم (٢).

الخلاصة

والخلاصة أن التناول الحقيقي لقضية حوارية يجب أن يتسم بالموضوعية، والموضوعية تعني عدم السعي نحو تبرئة الذات ومدحها والتغني بأمجادها طوال الوقت، بل تعني التحليل العلمي السليم، القائم على أسس معرفية تنطلق بالدرجة الأولى من الوعي بهدف النقد والتحاور بين الطرفين، وبأن المصلحة يجب أن تكون متبادلة.

إن عالمنا المعاصر بات متداخلا تداخلا شديدا، والأفكار تنتقل من هنا إلى هناك من دون تصريح ولا استئذان.. بالتالي فعلينا أن نسعى لامتلاك آليات فكرية تتيح لنا التواصل الواعي مع الجميع، الأمر الذي يجنبنا الانكفاء على الذات، وينجينا من الاستلاب الحضاري.

الهوامش

(١) ألف الإمام أبوحامد الغزالي كتاب «مقاصد الفلاسفة» ليبين أنه فهم فلسفتهم وأفكارهم على هذا النحو.. ولقد وفق الغزالي في ذلك كثيرا لدرجة أن بعضهم قال إن الغزالي شرح آراء الفلاسفة أفضل من شرحهم لها، ثم عمد بعد ذلك إلى الرد على أفكارهم في كتاب آخر سماه «تهافت الفلاسفة»، والكتابان مطبوعان بدار المعارف بمصر.

(٢) ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تحقيق د. محمد الشحات الجندي، ص١٠.

وزير الأوقاف والعدل الأسبق الجسار.. في ذمة الله

التحريـــر

فقدت الكويت منذ أيام عدة رجلا من رجالاتها الكبار، الذين تركوا للأمة الإسلامية سيرة عطرة، وتركوا بصمة ناصعة في تاريخ الكويت وحاضرها، إنه القاضي خالد أحمد الجسار، الذي رحل عن عمر ناهز ٧٨ عاما، تاركا أثرا طيبا ومثالا يحتذى في العدل والنزاهة كأول قاض كويتي يحصل على شهادة الشريعة والقضاء من الأزهر الشريف، وأول من اعتلى منصة القضاء في الكويت.

مولده ونشأته

ولد الأستاذ الكبير خالد أحمد الجسار عام ١٩٣٦م ، ودرس في صغره في المدرسة المباركية،والأحمدية،وكان متميزا بين أقرانه، وشهد له أساتذته بالنبوغ والتميز والجد والنشاط، ودعوا له بالخير وشجعوه. وشارك خلال سنواته الدراسية بالمباركية في تقديم المسرحيات المدرسية التربوية الهادفة، ومنها رواية «عبدالرحمن الناصر». ورواية «عمرو بن العاص»، وإلى جانب ذلك كان يهوى لعبة كرة السلة وألعاب القوى ضمن فريق المدرسة المباركية.

تحصيله العلمي

وبعد أن أنهى دراسته الثانوية في الكويت؛ شد رحمه الله رحاله إلى القاهرة ليستكمل تحصيله العلمي ودراسته الجامعية في الأزهر الشريف، حيث كان يميل إلى دراسة الشريعة الإسلامية والقانون.

سار الراحل في الدراسة التي رغب فيها بجد ونشاط، والتقى خلال سنوات دراسته في

المرحلة الجامعية الأولى بكبار العلماء وتتلمذ عليهم وسمع منهم، وأخذ منهم العلم والخبرة وفن التعامل مع الآخرين.

أنهى المرحلة الجامعية وتخرج في كلية الشريعة والقانون، وكان متميزا كعادته بين أقرانه، ولم يكتف رحمه الله بهذا التحصيل الجامعي؛ ولكنه تطلع إلى الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه.

وفعلا بدأ دراسته في تخصص أصول الفقه وأكمل فيه سنتين، لكن في عام ١٩٥٢م طلب منه الشيخ يوسف بن عيسى رحمه الله تعالى أن يحضر إلى الكويت، وذلك خلال رسالة قال فيها الشيخ يوسف: «.. إن الشيخ عبدالله السالم الصباح يطلب منك الحضور إلى الكويت للالتحاق بالقضاء مادام قد أنهيت دراستك الجامعية».

العودة إلى الكويت

لبى الشيخ الجسار رحمه الله هذه الرغبة السامية لسمو الشيخ عبدالله السالم الصباح رحمه الله، وعاد إلى الكويت خادما لبلده؛ ليلتحق بسلك القضاء كأول كويتي يجلس على منصة القضاء، وعمل خلال هذه الفترة بمجهود غير عادي، وأولى هذا المنصب كل وقته وجهده، بالتعاون مع العلماء والمخلصين، وبقي رحمه الله في منصبه وتدرج فيه حتى ٦ ديسمبر من عام ١٩٦٤م، وكان خلالها مثالا يحتذى في إحقاق الحق والنزاهة والعدل.

أعماله وإنجازاته

من أهم المناصب التي أوكلت إليه رحمه الله بعد عودته إلى الكويت:

- أول قاض في الكويت من عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٤م.
- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية من عام ١٩٦٤م حتى ١٩٦٥م.
- وزير العدل من عام ١٩٦٥م إلى ١٩٧٥م.
- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، مرة ثانية، من عام ١٩٨٥م حتى ١٩٨٨م.

الجدير بالذكر أن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تمتعت خلال فترة إدارته بالنشاط العلمي وطباعة المصنفات التي عادت على الأمة الإسلامية بالخير والنفع، ووسع عمل الوزارة من خلال استحداث بعض الإدارات والمكاتب التي تخدم الدعوة والعمل الخيري في الكويت والعالم الإسلامي.

وإن مجلة «الوعي الإسلامي»، متمثلة برئيس تحريرها، وأسرة التحرير، والعاملين فيها، تتقدم بخالص تعازيها للأمة الإسلامية عامة، وللكويت وأسرة الفقيد خاصة، بوفاة علم من أعلام الخير، ورمز من رموز المعرفة.

هذا... وتفخر مجلة «الوعي الإسلامي» بأن الفقيد الكبير رحمه الله هو أول وزير أشرف عليها منذ نشأتها، فاعتنى بشؤونها، وكان يسهل الأسباب لإخراجها، وكان له جميل الأثر على مسيرتها، كما كان متشوقا لرؤيتها تنتشر في أرجاء العالم الإسلامي، لتقدم للأمة الإسلامية مادة علمية واجتماعية، تبث من خلالها تعاليم ديننا الحنيف في أرجاء المعمورة، ومما قاله في بداية انطلاقتها:

«... وكم أنا مسرور لنجاح مشروع المجلة، ولاشك أنني في شوق لاستقبال العدد الأول منها... وآمل إن شاء الله أن يكون محققا لما رجوته».

وبرحيله رحمه الله فقدت الأمة الإسلامية عامة، والكويت خاصة، رجلا معطاء، لم يبخل بجهده ووقته وخبرته في خدمة بلده؛ متمثلا بذلك قول القائل: «الجود بالمجهود؛ منتهى الجود».

رحم الله الفقيد رحمة واسعة، وآجره على ما قدم لخدمة دينه ووطنه، وألهم أهله وذويه الصبر والسلوان.

كان معالي الشيخ خالد أحمد الجسار وزيرا للاوقاف قبل أن تسند اليه وزارة العدل من عدة شهور ، واثناء ذلك عمل على أن تصدر الاوقاف مجلة دينية ، وأخذ موافقة من مجلس الوزراء بتاريخ ٦٤/٩/٢٨ باستثناء وزارته من القرار الصادر بتاريخ ١٩٦٤/٢/١٠ الخاص بايقاف المجلات التي تصدرها الجهات الحكومية ، والتصريح لها باصدار مجلة دينية .. فكانت مجلة « الوعي الاسلامي » التي تسعى اليك الآن .

لذلك رأت المجلة أن تجري حديثا مع معاليه فرحب وهو مسرور بمشروعه الذي سار في طريقه الى النور .

قلت لمعاليه : كنتم أول من عمل على اصدار مجلة دينية في الكويت فما الدوافع التي أوحت اليكم بهذا العمل ؟

قال سيادته : عندما عينت وزيرا للاوقاف أخذت أستعرض ما تؤديه الوزارة من رسالة للمجتمع ، فتبين لي أن أعمالها منحصرة داخل نطاق « روتيني » يمكن ايجازه في الاشراف على الاوقاف وتحصيل ريعها واحالتها بدورها للجهة المختصة ثم اعطاء الموظفين رواتبهم .. مع الاشراف على المساجد .. مما حدا بانطلاق كثير من الاصوات الى المناداة بجعلها ادارة تابعة لوزارة العدل ، ولكن كانت هناك أصوات أخرى تؤمن بالاصلاح وتنادي بضرورة بعث الروح في وزارة الاوقاف لتنهض برسالتها الحيوية في مجتمعنا .

وكنت ولا زلت من الذين يؤمنون بأن وجود وزارة الاوقاف في البلاد أمر تحتمه الضرورة للحفاظ على قيمنا الروحية ، واذا كانت وزارة الصحة قد وجدت في البلاد لرفع المستوى الصحي بها ، ووزارة التربية والتعليم وجدت للاشراف على تربية النشء وتعليمه ، فوزارة الاوقاف تأتي في المرتبة الاولى من ضرورات البلد ، لانها ذات رسالة روحية تعمل على نشر الثقافة الاسلامية وخلق جيل قوي من الشباب المسلم المؤمن بربه ووطنه .

وعالمنا اليوم عالم تغزوه الافكار الدخيلة ، وتتصارع فيه مبادىء طارئة ،

معالي الشيخ خالد أحمد الجسار
وزير العدل
يتحدث عن ميلاد أول مجلة دينية في الكويت

وهي وان كانت غريبة علينا باعتبارنا أمة اسلامية اصيلة الا انها تعمل عملها بلا شك في بلبلة الافكار وزعزعة العقيدة ، ما لم يكن هناك مجهود لصد تيارها وتبديد آثارها ، ونحن أمة ذات رسالة خالدة جاء بها القرآن الكريم ، فاعلن الاخوة العالمية بجانب الاخوة الدينية ، ورفع من مستوى النفس الانسانية ، واقام دعائم العدالة الاجتماعية بين الحاكم والمحكوم وبين الضعيف والقوى ، والفقير والغني ، والرجل والمرأة ، واشاع في المجتمع معنى التكافل الحق الذى تشيع في كل نواحيه معاني الحب والسعادة والطمأنينة والسلام .

اذن فالدين ركيزة قوية في دفع كل ما هو خطر على الانسان وخصائصه ومميزاته ، والانسان لن يستطيع أن ينعم في هذا الكون الفسيح بالرفاهية والسعادة الحقة ما لم يكن على جانب كبير من الحفاظ على قيمه الروحية .

والامة العربية ـ كما نعلم ـ دينها الاسلام ، وهو روحها الذى لا يمكن أن تعيش بدونه ، وهو مصدر سعادتها وسبب نهضتها من كبوتها ، وهو الذى فتح أمامها الآفاق ، ودفع بها الى اقصى المشرق والمغرب تحمل رسالة السماء الى الارض ، رسالة الحق والعدل والاخاء والمساواة ..

هذه الحقائق لا ينازع فيها منازع .. لكن الحقائق لا بد لها من جنود ينهضون بها ويحمونها من المعتدين عليها ، واذا كانت كل وزارة من وزارات الدولة لها رسالتها الخاصة وان كانت تتلاقى كلها في خدمة المجتمع والنهوض به ، فان وزارة الاوقاف عندنا قد فرضت عليها ظروف الحياة ان تنهض بالرسالة الروحية وتعمل على تدعيم القيم الدينية في النفوس .

وهذا هو الذى دفعنى ، حين أسندت الى هذه الوزارة ، الى وضع مخطط شامل لاجهزتها يهيئها للنهوض برسالتها كما يجب ، وفي طليعة هذه الاجهزة جهاز الدعوة ، فانشات ادارة الدعوة والارشاد وجعلت في مخططها اصدار مجلة تحمل رسالتها وتوضح أهدافها ، وتساهم في نشر الثقافة الاسلامية في الداخل والخارج .

البقية على ص : ١٧

وع المجلة ، ولا شك انني في شوق لاستقبال
الله ان يكون محققا لما رجوته .
الشكر والتقدير ما لاقته فكرة المجلة من
من حكومة صاحب السمو أمير البلاد حفظه
زيد من هذا التأييد والعون لتؤدى رسالتها
كما يرجو كل مخلص لدينه ووطنه .

فقلت لمعاليه : وهذا يدعونا الى ان نسالكم عن المنهج الذى تختارونه لها وقد اطلعتم على كثير من المجلات الدينية التى تصدر في البلاد الاسلامية ..

فقال سيادته : ان صدورها في الثوب الذى احبه ليس بالشيء الهين الميسور وانا من الذين يؤمنون بتطور الاشياء ، وان كل نقص يمكن تداركه ما دام هناك ايمان وعزم وتصميم ، وذلك كله لا ينقصكم والحمد لله .

وانا اعرف ان كبار الكتاب في العالم الاسلامي قد لبوا الدعوة للمساهمة في الكتابة بها مشكورين .. وآمل ان يكون النهج الذى تنهجه مجلتنا الجديدة ((الوعى الاسلامي)) بعيدا عن كل ما يعكر صفو رسالتها ، وان يكون رائدها الحق ترفع صوته ، وتذود عنه بكل صراحة ووضوح ، وان تعرض الاسلام في ثوب قشيب محبب للقراء ، وان تساهم في النهضة الفقهية التشريعية التى يتطلبها مجتمعنا ، وان يعالج كتابها مشكلاتنا الجديدة على هدى من الشريعة حتى يمكن ايجاد حل لهذه المشكلات ..

قلت لمعاليه : هذا امر مهم جدا فلم تعد المسالة الآن مسالة ترديد امجاد تاريخية فقط .. بل يجب ان نخطو كذلك للامام ونعمل لنضيف امجادا الى امجاد في كل مجال من مجالات الحياة ..

ثم قلت لسيادته : هل راعيتم في مخططكم حين فكرتم في اخراجها ان تقوم بنصيب في تثقيف المسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية ؟

قال : نعم . فانا اعرف طبعا ان كثيرا من المسلمين لا يعرفون العربية وفي حاجة الى وعى اسلامي سليم ، ومن واجبنا ان نلبي حاجة هؤلاء الاخوان ومن اجل هذا راعيت في مخططي للمجلة ولادارة الدعوة ، ان تقوم بنصيبها في هذا المجال ، وآمل ان يتحقق هذا المخطط على يد المسئولين الآن في الوزارة ، وان تتم ترجمة بعض الموضوعات الهامة التى بين دفتيها تعميما للفائدة ، وتحقيقا للهدف المنشود ، حتى تكون الكويت قد ساهمت بقسط في هذا المجال ..

قلت لسيادته : هذا امر طبيعى لا بد للمجلة ان تقوم به . وقد كان بودى ان يصدر العدد الاول منها محققا لهذا الواجب لولا ظروف خارجة عن الارادة حالت بيننا وبين ذلك ، لكني آمل ان يتحقق هذا في المستقبل باذن الله وعونه .. وذلك بالاضافة الى ما يقوم به قسم النشر والترجمة بالوزارة من ترجمة بعض الكتب للغات الحية ، وقد بدأ بترجمة كتاب « شبهات حول الاسلام » للاستاذ محمد قطب وقطع شوطا كبيرا في الترجمة .

قال سيادته : هذا ما نرجوه واسال الله العلي القدير ان يحقق لهذا الوليد الجديد التقدم والاستمرار والتوفيق . وتحياتي وتقديرى لكل من ساهم ويساهم في تدعيمها واعان ويعاون في اخراجها والنهوض بها .. وجزى الله الجميع خير ما يجزى به العاملين المخلصين ..

د. محمد الحملاوي، أستاذ هندسة الحاسبات الآلية:

تعريب العلوم.. السبيل العملي لتعزيز هويتنا

حوار: محمد ثابت توفيق

الدكتور محمد يونس الحملاوي، أستاذ هندسة الحاسبات بكلية الهندسة جامعة الأزهر، قامة علمية عربية وعالمية، تشهد بهذا الموسوعات التي احتفت به، من موسوعة الشخصيات العالمية البارزة الأمريكية من عام ١٩٩١م حتى عام ١٩٩٩م، وموسوعة الشخصيات العالمية البارزة في العلم والهندسة الأمريكية أيضا من عام ١٩٩٢ حتى عام ١٩٩٩م، وعدد آخر من الموسوعات الإنجليزية والأمريكية، اللائقة بعلمه ونيله أعلى الدرجات العالمية في مجال نادر كان الأسبق إليه في عصره، إذ نال ماجستير الهندسة الكهربائية، هندسة الحاسبات، من كلية الهندسة بجامعة جنت ببلجيكا، ودكتوراه هندسة الحاسبات من نفس الكلية عام ١٩٧٦م، بعنوان نظام حاسب دقيق قياسي بإمكانات تشخيصية، فيما آثر أن يتجه بعلمه لخدمة لغته وأمته عن علم ودراية، فنال دبلوم الدراسات الإسلامية من معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة عام ١٩٩٤م، ثم بكالوريوس الدراسات العربية والإسلامية من الجامعة الأمريكية المفتوحة بأمريكا عام ٢٠٠٤م، ومع عضوية الهيئات والمؤسسات والجمعيات العربية والعالمية أسس الجمعية المصرية لتعريب العلوم، وما يزال أمينها العام حتى اليوم..

كما نال جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي عبر بحثه تعريب العلوم سبيل عملي للنهوض باللغة العربية الفصحى، المشرف عليها مجلس الدولة المصري عام ٢٠٠٢م.

وفي هذا الحوار يفتح الدكتور الحملاوي صدره لـ (الوعي الإسلامي) عبر حوار ضاف عن مسيرته العلمية، وحبه للغة العربية، والفجوة التقنية التكنولوجية بين الوطن العربي والغرب اليوم، والاختلاف الجوهري بين الحضارتين العربية الإسلامية والغرب الآن، وسبل نهوض أمتنا من أزمتها اليوم.

• مسيرتك التعليمية المميزة بدأت من مصر، واختيارك الدقيق داخل قسم هندسة الكهرباء بكلية الهندسة من جامعة عين شمس، والتي التحقت بها عام ١٩٦٣م .. ويحمل من الصعوبة حينئذ الكثير.. ترى هل كان ذلك لأسباب معينة؟

- في الحقيقة إن والدي، رحمة الله تعالى عليه، كان له تأثير كبير في حياتي، فمحبتي الشديدة له، القائمة على عدم تدخله في اختياراتي، عمق من محبتي له، وأحببت السير على خطاه، فقد ولدت عام ١٩٤٧م في العاصمة القاهرة بمستعمرة الري بالأميرية، لأب يعمل مهندسا بوزارة الأشغال العمومية، ينتمي لأسرة عربية هاجرت إلى مصر مع الفتح الإسلامي لها، وتدرجت في التعليم مع نمو محبتي الشديدة له، وهو الأمر الذي أحب الهمس به في أذن كل والدين، اجعلوا أبناءكم يحبونكم، وهيئوا لهم سبل التفوق، ولا تتدخلوا بقسوة في اختياراتهم، أكبرت في أبي عدم توجيهه لي، فسرت على دربه، والتحقت بالقسم الذي ذكرته حتى تخرجت منه عام ١٩٦٨م، ولم يكن هناك قسم حاسب آلي آنذاك، فصممت على استكمال المسيرة في قسم الحاسب الآلي عبر التعليم العالي، إذ إن المسيرة التعليمية كانت قد بدأت فعليا بالنسبة لي بتخرجي، رغم عملي في وزارة المواصلات تكليفا من الدولة آنذاك، ولم يثنني عملي هذا عن آمالي العريضة، بل استطعت بتوفيق من الله تعالى استثماره.. عبر ما كان يعرف بالجهاز المركزي للتدريب في مصر آنذاك، وعبر دراستنا كمهندسين

من الخطأ الاعتقاد بنظرية المؤامرة في جميع مجالاتنا

بالجهاز، وبالتالي نلت عبره منحة من المجلس البريطاني لدراسة دبلوم في إنجلترا عام ١٩٧٢م، وبعدها حصلت على منحة من جامعة جنت ببلجيكا، وكانت تخص الحاسبات الدقيقة، وكانت قد اخترعت فعليا عام ١٩٧٢م، فيما نلت الدكتوراه عام ١٩٧٦م.

حلم النهضة

• ألم تستهوك الحياة في الغرب حيث المسيرة التعليمية المميزة هذه، وسبلها، كما أعلم، كانت مهيأة تماما لك؟

- عملت بالفعل في ألمانيا الغربية كمستشار لشركة عالمية رائدة في نفس مجال الدكتوراه الخاص بي، وبخاصة في المعالجات الخاصة بتلك الحاسبات، إلا أن حبي الشديد لبلدي وأمتي دفعني للعودة، فقد كان الهدف الأسمى من دراستي أن أساهم بعلمي في نهضة بلدي وأمتي، عبر التخصص النادر الذي درسته، بخاصة أن دولا انتشلها نفس التخصص من هوة التخلف لمسار التقدم من مثل: سنغافورة، تايوان، ماليزيا، وما يزال لدي أمل في أن يقود تخصصي أمتنا نحو آفاق التقدم...

• عفوا.. لكن ماذا عن آفاق دخول أمتنا هذا المضمار من الأساس حتى يومنا هذا، وما آلية دور هذه التكنولوجيا في إحداث تقدم لبلادنا ومن ثم أمتنا؟

- بداية مع أسفي الشديد أقول إننا لم ندخل لهذا المضمار من الأساس، مضمار استخدام تقنيات الحاسب في الصناعات الإلكترونية الرقمية، عبر جميع الأجهزة الكهربائية وغيرها المستخدمة في حياتنا كلها، لتطويع تلك الأجهزة المستوردة غالبا من الغرب لاستخداماتنا، وتجاوز أمر البرمجيات الذي توقفنا طويلا عنده دون أن نصيب منه مبتغانا، وبالتالي توفير القدرة على الإنتاج في المصانع والهيئات وما شابه، وإتاحة المزيد من الاستخدام المناسب الفردي، والاستثمار المجتمعي الجماعي، في القطاع العام والخاص، فهذه التقنيات تدخل في الحاسبات كما تتدخل في عمل الثلاجة والغسالة والسيارة والمصانع، وهلم جرا، أي في حياتنا كلها فرديا، كما تدخل في الصناعات والمصانع جماعيا، ومن هنا يمكن استخدام كل هذه الأجهزة بل المصانع بذكاء وكفاءة أكبر، وهو الأمر الذي يحتاج منا إلى تعديل رقمي في المعدات حتى نستطيع الوصول إلى أقصى مدى مناسب لنا منها، وهو ما لن يفعله الغرب لنا عبر البرمجيات مع تركيزنا عليها طوال الوقت، إننا نحتاج للانتباه لما هو داخل الأجهزة وتطويره، لا لبرامج الكتابة فقط وما شابهها.. وهكذا فلا نحن حدثنا تلك الأجهزة بما يناسبنا تعديلا رقميا إلكترونيا يناسب التقنيات الدقيقة الحديثة العالمية، وانشغلنا بالبرمجيات فقط، وسبقتنا الهند مثلا، فيما كانت الفرصة متوافرة لدينا للحاق بهذا المضمار عبر شيئ من الإرادة، ولم تنتبه للأمر حتى القطاعات الخاصة في وطننا العربي، والأمر

يتفاوت على المستويين العربي والإسلامي، لكن متوسطه غير مرض مع أسف شديد جدا.. ولكن هذا لا يمنع أن الباب مفتوح للحاق بهذه الصناعات، والفرصة متاحة، لكن الصعوبة تزداد كلما تأخرنا، وهو ما آمل ألا يحدث بإذن الله.

نظرية المؤامرة

• البعض يرجع الأمر لفكرة المؤامرة الغربية من طرف خفي في البداية حيث لا يمدنا الغرب بالصناعات الثقيلة التي تكفل لنا التقدم التقني بخاصة في المجال الرقمي التكنولوجي للحاسب على النحو الذي أوضحته؟

– عفوا أريد أن أرد على السؤال بسؤال: ولماذا سيصدر لنا المنتج طريقة تصنيع سلعته هذه؟ فالسوق له قواعده، ومنها أن تشتري العدة أو السلعة لتستخدمها كما هي، لا أن يطورها المنتج لك، وأنت، بعد ذلك تستطيع أن تطور نفسك بنفسك، والعلم موجود في أشكال مختلفة، منها شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، والأمر لا يحتاج منك سوى الإرادة..

وفي الحقيقة فإنني لا أؤمن بفكرة المؤامرة هذه، فالأمر يتعلق بالمصالح، وتضاربها، بخاصة لدى أصحاب المصانع التي تدر دخلا خرافيا، فأصحابها ودولهم ينظرون إلى تطوير مصالحهم ليس إلا، لا خلق منافس لهم بإفشاء أسرار الصناعات المتقدمة، وهي أمور يجب أن نتفهمها إن لم نفهمها، نعم ليست كل المجتمعات ولا الأفراد كذلك، ولكنه النظام العام، وفكرة المؤامرة هذه تريحني من بذل المجهود، بل تجعلني أسلم بالفشل قبل بذل الجهد، والأمر غير هذا تماما، فسننجح عندما نريد ونبذل الجهد..

• ولكن اسمح لي فإن أمتنا لما سادت العالم لم تنظر إليه هذه النظرة الاقتصادية النفعية الجامدة العامة، إلا لدى من رحم ربي منهم اليوم، بل أمدتهم بسبل نهضتهم من بعد و مهدت الدرب لهم.. وهو ما لا يفعلونه معنا ولا شيء منه على مدار تاريخهم معنا...

– رزقني الله تعالى بتأليف ٥ كتب علمية، و١٥ براءة تصميم، و٣٠٠ بحث منشور، و٣٠٣ مقالا منشورا في مؤتمر أو مجلة، أقول هذا لأن هذا الإنتاج لم يخص الصناعة أو تقنياتها فقط، بل تطرقت لمجالات مجتمعية وتنموية والإجابة عن هذا السؤال، في رأيي، تنبع من كون الحضارة الغربية تنطلق من أفق عقائدي خاص جدا نابع من (قانون أثينا) الذي يقول: إن من هم داخل أثينا يعاملون بقانون خاص بهم، عادل، وهو يختلف تماما عن القانون الذي يحكم به من هم خارج أثينا، وهو ما نجده، مع الأسف، في كثير من السلوكيات الغربية حتى اليوم، وأصبح من طبيعة تعاملاتهم معنا، وهذا لا يمنع أن هناك من ثاروا على هذا النهج من الغربيين ورأوا فيه ظلما بينا للبشرية، وأن المنجز البشري أكبر من أن يصاغ بهذه الطريقة، ومنهم أسماء كبيرة مثل الكاتب والمفكر نعوم تشومسكي، والراحل روجيه جارودي، وبرتراند راسل وتولوستوي، وغيرهم..

أما حضارتنا العربية الإسلامية فتعاملت بقيم عادلة عدلا مطلقا لأنها مستمدة من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، في المقام الأول، وفي مقدمتها أن العدل مطلق وليس نسبيا مثل قانون أثينا، لذلك لم تعرف حضارتنا الاحتلال للآخر، ولا نهب الثروات، حتى إن النازية جاءت بنفس الفكر لكن برؤية أكثر آثينية وهي أن الجنس الألماني أفضل من الجنس الأوربي، فتمحورت النازية على نفسها أكثر..

أين هذا من عدالة وسماحة الإسلام في الأندلس، وفي نقل آفاق الحضارة للآخر، وإتاحة العلم للجميع إيمانا بأن الطرح العلمي يصب في صالح البشرية، وهو ما لا يقارن بقرار غربي اتخذ مؤخرا بعدم إتاحة المجالات العلمية الخاصة ببعض الصناعات المتقدمة لغير الغربيين.

• ومع هذا كله أفلح الغرب في بث أعوانه في بلادنا من المثبطين والراغبين في استمرارنا على وضعنا الحالي وبث روح اليأس من إمكانية نهضتنا وتقدمنا؟

– هذا هو مبدأ العصا والجزرة الذي يتبع مع بعضنا للأسف فيثمر لمصالح خاصة، دون مراعاة لله ومن بعده الضمير، وكلها خطط ينشرها الغرب عبر بحوث استراتيجية للسيطرة على مجتمعاتنا، ولكننا للأسف لا نحسن قراءتها، وفي ظل تجديد الخيارات للسيطرة على مقدراتنا، يجيء الخيار الثقافي المر الوجع

على كل مخلص من أبناء أمتنا، وإن لم يستنكف عن نهجه البعض من أبناء أمتنا...

افتقادنا القدوة

● عفوا أحب أن ننتقل لمحور آخر حيث يرى بعض مفكرينا أن شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) تغني اليوم عن التداخل مع الغرب لشرح قضايانا وتقديم فكرنا له.. فهل توافق على هذا الرأي.. وبالتالي كوننا نضيع فرصة لا تعوض في هذا المجال...

- إنني لأختلف مع أصحاب الرأي السابق تماما، فهناك فارق بين المعلومة الناتجة عن القراءة، وبين المعرفة الناتجة عن القدوة، فالأولى موجودة قد يجيد التعامل بها وكتابتها كل شخص، وقد عشت في الغرب فترة كافية ولمست مدى تقييمهم لواقعنا المعاش ورؤيته على حقيقته، فيما التعامل الحضاري الإسلامي يعمل في نفوسهم فعل السحر تماما وإن ظل بصور فردية، فلابد من قدوة يريهم تعاليم ديننا حية قوية تسير على الأرض، وهذا لا يعني توقفنا عن خطاب الغرب بقدر ما يعني اهتمامنا بالجانب العملي من هذا التعامل.

لغتنا والحاسب

● ورحلة عشقكم للغة العربية الفصحى وأنت رائد في مزج الحاسب الآلي بها .. من أين بدأت .. وكيف ترى سبل نهضتنا من خلال تنميتها؟

- بدأت هذه المسيرة، بفضل الله تعالى، عام ١٩٧٤م حينما كنت في بلجيكا أحضر للدكتوراه، حيث عملت مستشارا هندسيا للتعريب في شركة أمريكية مقرها الأوربي كان في بلجيكا، من خلال المشروعات البحثية التي تأتي إلى الجامعة تتعلق بالصناعة، وقد أحببت هذا الأمر وحرصت عليه حتى بعد مجيئي إلى مصر، ومن هنا احتاج الأمر لدراسة اللغة العربية ونيل شهادتين في الدراسات الإسلامية والعربية، ليستمر عملي في مجال تصنيع الحاسبات وتطبيق تقنياتها في مصر، والترجمة الآلية من الإنجليزية إلى العربية.. وجاءت الجمعية المصرية لتعريب العلوم عام ١٩٩٤م لتهدف إلى تعميق ممارسة اللغة العربية عبر العلوم المدرسة باللغة الإنجليزية في الجامعات، وبالتالي تعريب العلوم، وممارستها في الجامعات، ومن هنا شرفت بنيل جائزة خدمة الدعوة والفقه الإسلامي المصرية عام ٢٠٠٢م، وما زلت أرى أن تعريب التعليم والعلوم هو السبيل العملي للنهوض بممارستنا اللغوية، ومن ثم لغتنا العربية الفصحى، وأسهم في عقد مؤتمر سنوي وندوات عديدة في هذا المجال الذي يقربنا من تحقيق هويتنا، فالأمم المتحدة في تعريفها للهوية أقرت أن في مقدمتها اللغة لتعبر عن كيان وواقع، وهكذا عبر هذا الطريق وطرق أخرى أحاول أن أكون في ركاب من يسعون لنهضة وتقدم أمتنا...

● سؤالي الأخير يتعلق بالطرق الأخرى لتحقيق نهضتنا وتقدمنا...كيف تقيم الموقف منها بوجه عام بخاصة في مجال تعريب الحاسبات؟

- أؤكد أن انفصالنا عن قيمنا الحضارية أدى إلى موقفنا اليوم، إذ ليس لدينا مع الأسف منتج حضاري نقدمه، برغم أن قيم ديننا العظيم تدفعنا دفعا لنباري الغرب، ونساهم في التقدم العالمي، وديننا ليس دين تواكل، بل أمرنا أن نكون في صدارة الأمم، وهكذا يتقاعس الأفراد عن أداء دورهم اليوم، فتراوح الأمة مكانها، فلا تبرز الكتلة الحرجة اللازمة لأي نهضة، وبالتالي نكتفي بالبرمجيات، على ضعف مستواها في الغالب وعدم تحقيقها لأية طفرات تقنية، في الحاسبات، ونترك مجال تقنيات عتاد الحاسبات الدقيقة في مجال الحاسبات وفي الزراعة والتجارة والطب والهندسة وغيرها، وللأسف فحتى البرامجيات الخاصة باللغة العربية لم ننتجها، بل ولم نوطنها ونصلح ما بها من أخطاء، وهذا مثال على عدم ترتيب الأوليات، وهو أمر متكرر في مجالات كثيرة، ويوم ندرك قيمة العمل الحضاري، وأثره، ونحسن ترتيب الأوليات، ولا نستهين بلب التقدم ومنه تقنيات الحاسبات الرقمية في مختلف المجالات، بل ونقتنع بضرورة اللحاق بالركب العالمي سريعا قبل أن يصعب الأمر علينا أكثر، مع غير ذلك من المجالات المختلفة الضرورية، مع التجويد في مختلف الأعمال ومنها البرمجيات وأمثالها، ونعمل على تنمية لغتنا عبر تعريب التعليم والعلوم وغيرها، ونعطي هويتنا الاهتمام الواجب بها؛ نضع أقدامنا على أول الطريق الحضاري المناسب لهذه الأمة.

معالم الهدى في زمن الفتن

د. صالح بن حميد
إمام وخطيب الحرم المكي

العلماء لا يتحدثون في كل مقام بل لكل مقام مقال وأحاديث العامة ليست كأحاديث الخاصة

الناس أنواع، فالبعض يصنع موجة، والبعض الآخر يركب الموجة، والنبي ﷺ تحدث عن أشراط الساعة وعن الملاحم، كما حذر من الفتن، وذلك في صور ثلاث:

الأولى: الإنذار والتنبيه.

الثانية: التخويف منها.

الثالثة: كيف يكون الموقف منها إذا وقعت، وهذه هي الأهم.

خطورة التعجل

من الخطأ أن يتعجل الإنسان بمجرد سماعه أي خبر اعتمادا على تبادل المعلومات الشائعة في أيامنا هذه، فالذي يبث هذه المعلومات ويتلقاها غير متخصص.

الاستشراف

من طبيعة الناس أنهم يحبون استشراف الحاضر والمستقبل، وتفسير الأحداث. ويقع الإنسان هنا في مشكلة المقارنة بين الواقع والنصوص، ويحتاج إلى السبر، وحين سأل رجل النبي ﷺ متى الساعة، قال له ﷺ: «ماذا أعددت لها؟»، وفي رواية: «ويلك، ماذا أعددت لها؟».

يقول ابن حجر: والحكمة من أحاديث الفتن إيقاظ الغافلين، والحث على التوبة، فهي مواعظ وزواجر للإقبال على الرب. ولهذا قال رسول الله ﷺ في حديث عظيم المعنى: «العبادة في الهرج كهجرة إلي».

أثر العبادة في وقت اختلاف الناس

قال أهل العلم: فضل العبادة في الهرج كأنك تلجأ إلى النبي ﷺ كما مر بالحديث السابق، أي إنك تنتقل من حال الهرج إلى حال الأمن، فينشغل الناس بالهرج ولا يتفرغون للعبادة إلا من رحم الله وعصم.

ولماذا شبه العبادة بالهجرة؟ لأن الهجرة فرار بالدين من المناطق المخيفة إلى البلاد الآمنة التي يأمن الناس فيها على أنفسهم.

من هم مثيرو الفتن؟

الملاحظ أن الذي يخوض فيها ليس سياسيا ولا اقتصاديا ولا فقيها، بل يخوض فيها كل شخص غير متخصص، فلا يحسن عرضها، ولا يحسن ترتيب نتائجها.

الفرار الإيجابي

هنا يأتي دور الفرار الإيجابي الذي هو الاتجاه إلى العبادة، والبعد عن مواطن الفتن والهرج. ويتضمن الفرار الإيجابي ما يأتي:

١- الاتجاه إلى العبادة: من صلاة وذكر وقراءة القرآن وصبر ومصابرة حتى تنجلي الغمة.

٢- التأني في الفهم والتأويل: ونعني به ألا يتعجل في أي فهم، وأن يجتهد في أن يتجنب الخوض في الفتن، ولا يقول هذا الحديث أو ذاك ينطبق على هذه الحالة أو على هذا الشخص، بل ينبغي أن يذهب إلى الثقات ويسألهم.

٣- عدم القلق: ينبغي ألا يقلق، ويصبر.

٤- التروي: عليه أن يتروى في إبداء الحكم أو الرأي، بل نقول له لا تخض ولا تكلف نفسك أن يكون لك موقف، بل الزم السلامة في الفتن: فهي من أدق المخارج وأحسن سبل النجاة.

٥- العزلة: ونقصد بها العزلة عن معالم الفتن ولا يلتفت إليها، بل يلتفت

لا تتهم الناس بقولك: هذا منحرف هذا صاحب هوى هذا مخطئ هذا مصيب بل عليك بإصلاح نفسك وتجنب الفتن

طاعة ولي الأمر تكون في المعروف بعدم الخروج عليه مع اليقين أن له حق الطاعة والنقد - إذا كان على أصول الشريعة - بحسن النصح واتباع سنن المرسلين

إلى نفسه، وينأى بها طلبا للنجاة من الفتن، ونعني بذلك: اعتزل الناس، وتجنب هذه الأشياء، واهتم بشؤونك، فقد جاء الحديث: «إن بين أيديكم فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويصبح كافرا ويمسي مؤمنا يبيع دينه بعرض من الدنيا». و«ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي»، ثم دعاهم إلى أن يكونوا أحلاسَ بيوتهم، وفي الترمذي: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وأبك على خطيئتك». وفي أبي داوود: «إن السعيد لمن جُنب الفتن».

٦- كف اللسان: كف لسانك، حتى لو استحسنوا رأيك، وفي الحديث: «تكون فتنة تستنظف العرب (أي تقتل)، اللسان فيها أشد من السيف».

٧- التفقه في الدين وتوقير أهل العلم: وذلك بأن يتفقه ويوقر أهل العلم ويقدرهم، لأن سلامة الدين لا تكون إلا بالعودة إليهم. وهذا يدعونا إلى المفهوم الخطير ألا وهو تسفيه فتاوى العلماء من طرف أناس وصفهم النبي ﷺ بأنهم سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان.

وينبغي أن نعرف أن العلماء لا يتحدثون في كل مقام، بل لكل مقام مقال، وأحاديث العامة ليست كأحاديث الخاصة، لا نقول إنهم لا يخطئون، لكن ينبغي عندما يخطئ أحدهم أن يكون الرد عليهم بحفظ مقامهم وليس بالتعدي على مكانتهم. نعم، قد يزل العالم ويغلط، ولكن لا يثنيك ذلك عن علمه، ولا ينبغي أن تهدر مكانته، بل هو معذور، بل وأحيانا مأجور، لأن العلماء ليسوا معصومين، لكن يبقون علماء. والمتأمل يجد أن وسائل الإعلام والتواصل لم تجعل لأحد مقاما ولا قيمة. قال الإمام الشاطبي: «لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنع عليه، أو يُعتقد عليه الإقدام على المخالفة، فهذا خلاف ما تقتضيه رتبة الدين».

وقال الإمام الذهبي: «لو أن كل من زل أسقطناه لم يبق لنا عالم».

٨- الثقة بأهل العلم: بالرجوع إليهم، وبحسن سؤالهم وتجنب انتقاصهم. وأي فتنة أشد من أن ينتقص من العلماء؟! الحصيلة من ذلك أن يعجب كل ذي رأي برأيه فتكون الفوضى.

وغالب الفتن تحدث من أربعة أمور:

١- فهم فاسد.

٢- نقد كاذب.

٣- غرض منحرف.

٤- هوى متبع.

فلا تحاول أن تطبق على الناس، بل طبق على نفسك.. هل أحدث لك اضطرابا؟ هل لك غرض في الحديث عن ذلك؟ ولهذا عليك أن تتجنب ذلك.

لا تتهم الناس بقولك: هذا منحرف، هذا صاحب هوى، هذا مخطئ، هذا مصيب. بل عليك بإصلاح نفسك وتجنب الفتن.

سؤال: من يقع في الفتن؟ الجواب: الذي يقع في الفتن هو ضعيف البصيرة، قليل العلم، وهو مصداق لوصف النبي ﷺ في قوله: «سفهاء الأحلام حدثاء الأسنان». فضعيف البصيرة هذه صفاته، حتى لو كانت عبادته ظاهرة.

٩- السمع والطاعة لولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين: معنى ذلك أن أي شيء فيه خروج على ولاة الأمر وعلى جماعة المسلمين اتركه مهما كان، لأن الحديث يقول «من شذ شذ في النار». وطاعة ولي الأمر تكون في المعروف بالطبع بعدم الخروج عليه، مع اليقين أن له حق الطاعة، والنقد - إذا كان على أصول الشريعة - بحسن النصح واتباع سنن المرسلين والراسخين في العلم، فهذا ليس خروجا، ولهذا لما انفرط عقد بعض الدول تفككوا ودخل فيهم من دخل، ولهذا فإن هيبة الحكم وهيبة الحاكم المسلم يجب أن تبقى مصونة ولا يتعرض لها إلا بالعدل.

ثم إن الاجتماع وعدم الفرقة من أكبر النعم ولهذا قال الصحابة: «الخلاف شر».

١٠- النصح لكل مسلم: كن نقي القلب نحو إخوانك من غير استعداء أو استكبار أو أنك أنت على صواب وهم على غيره.

١١- الصدق والتثبت: عند حديثك في الفتن تحر الصدق والتثبت، بل الأحسن والأولى ألا يكون لك رأي، وصن لسانك ويدك عن ذلك حتى تنجو من الفتن.

ثم إن هناك مجموعة من النصائح والوصايا على المسلم أن يتحراها عند الفتن، بل وفي مجمل حياته وأحواله وهي:

الإخلاص، الإحسان، النصح، الصدق، التثبت، عدم الاغترار بالكثرة، الحذر من الاندفاع والحماس، الرفق والأناة، حفظ اللسان، التوبة والإنابة.

بل إن الرفق والصبر أهم أمرين في هذا السياق، لأنه إذا ترفق ابتعد عن الفتن، وإذا صبر لم يخض فيها فينجو بنفسه ودينه. فالرفق نعني به عدم التعجل وعدم الحدة في الطبع والثوران، وأما الصبر فهو القدرة على التحكم في النفس.

***مقتطفات من محاضرة للدكتور صالح بن حميد في مسجد الفارس بدولة الكويت ٢٠١٤/١٢/٢٢ بدعوة من وزارة الأوقاف.**

بناء ثقافة التسامح

د. حسن عزوزي
أكاديمي متخصص في الدراسات الفكرية

يسجل مفهوم التسامح حضوره في عمق التجربة الإنسانية من خلال مختلف الآداب الفكرية للأديان السماوية والوضعية على السواء. وقد عرفت الحضارات الإنسانية مفهوم التسامح كواحد من المفاهيم التي تندرج في إطار حقوق الإنسان مقابلا لمفاهيم العنف والتعصب واللاتسامح.

وإذا كان التعصب يشكل مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية لدى كثير من شعوب العالم، فإن التسامح يعتبر فضيلة إنسانية تغيب عنها مظاهر العنف، وتنجلي فيها قيم الأمن والسلام. ولذلك، فإذا غاب التسامح فهذا يعني غياب الأمن المجتمعي ومن ثم غياب السلام.

وتجمع القواميس العربية على أن المقصود بالتسامح هو المساهلة (١) والسخاء والجود والكرم، فيقال: أسمح: إذا جاد وأعطى بكرم وسخاء. وأسمح وتسامح: إذا وافقني الآخر على المطلوب، والمسامحة هي المساهلة. أما في المعاجم الأجنبية فنجد في معجم «هاشيت» تعريفا للفظة «التسامح» بأنها «موقف يقضي باحترام حرية الآخر وطرق تفكيره وسلوكه وآرائه ومعتقداته» (٢)، كما نجد في معجم العلوم الاجتماعية تعريفا قريبا لهذا الأخير، جاء فيه أن التسامح هو قبول الآخرين وسلوكهم على مبدأ الاختلاف، ويتعارض مع مفهوم السلطة والقهر والعنف، ويعد هذا المفهوم إحدى سمات المجتمع الديموقراطي (٣).

لقد ترجمت لفظة «Tolérance» عربيا إلى «التسامح»، ومع ذلك لابد من الإقرار بأن المفهوم يعتبر وليد حركة الإصلاح الديني الأوروبي، حيث نشأ عن تغير في الذهنية ناتج عن علاقة جديدة هي علاقة الاعتراف المتبادل بين مختلف القوى

التي استمر صراعها خلال الحروب الدينية الأوروبية.

التسامح والاعتراف بالآخر المختلف

تتضمن هذه التعريفات إذن مفاهيم تجعل من التسامح سلوكا وقيمة يتحلى بهما الشخص تجاه الآخر، خصوصا الآخر المختلف عن الذات، دينيا وفكريا، إذ لا ينبغي الاعتقاد بأن الجميع ينبغي أن يكون مشابها للذات وإلا وجب إقصاؤه ونبذه، ولقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ بأعلى درجات التسامح فقال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣)، وقال أيضا: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ (الحجر:٨٥). «ومعنى العفو ترك المؤاخذة بالذنب، ومعنى الصفح ترك أثره من النفس، وكونه لم يبق أثره في النفس قمة في التسامح» (٤).

من جهة أخرى، يمكن القول إن المفهوم الراهن للتسامح ينطوي على أبعاد قوية يمكن أن نجمعها في كلمة واحدة وهي «الاعتراف». فكل شخص إنساني ملزم بالاعتراف بالآخر، سواء كان مماثلا له أو مختلفا عنه، اعترافا القصد منه الإيمان بحق كل شخص في العيش وفق قناعاته في مجتمع آمن تسود فيه علاقات التفاهم والتساكن والتعايش (٥).

إذن فالتسامح وسيلة الانسجام، وهو عملية تصفية لعرض الأفكار وفهم آراء الغير حتى يتنازل الإنسان عما علق برأيه من أنانية واعتداد بالرأي؛ ليحقق الانسجام مع فكر غيره. وبذلك يحقق الفعالية والاستمرارية لأجواء التفاهم والتساكن فيما بين أفراد المجتمع، في ظل الأمن الوارف، الذي يستظل بظلاله كل من ينسجم مع مجتمعه في وحدة الموقف وسمو النفس والارتفاع عن الضغائن والأحقاد.

إن هناك شيئا لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين، ويلزم بها القضاء، وتشرف على تنفيذها الحكومات، ذلك هو روح التسامح التي تتجلى أسمى مظاهرها في حسن المعاشرة، ولطف المعاملة، ورعاية الجوار، وسعة المشاعر الإنسانية، من البر والرحمة والإحسان، وهي الأمور التي يحتاج إليها الإنسان في حياته اليومية من أجل أن ينعم بالأمن المجتمعي الرغيد.

التسامح.. والأمن المجتمعي

إن الإنسان إذا تسامح، أو عبر عن سلوك متسامح فمعناه أن يأخذ الآخر، الذي يعيش معه في أمان، بعين الاعتبار، ويقبل حججه. وبذلك يكون مفهوم التسامح مرتبطا ارتباطا عميقا بمفهوم الأمن والسلام، فالأمن هو لازمة طبيعية لمفهوم التسامح، وإذا كان مفهوم الأمن والسلام هو غياب الحرب والصراع ووجود الأمن المجتمعي، فإن هذا يعني وجود التسامح كضرورة حيوية لمفهوم الأمن والسلام، ويبقى العنف في النهاية هو الصيغة المقابلة لمفهوم التسامح، فالعنف التعصبي أو العدواني هو نقيض التسامح، وذلك لأن التسامح هو التصور المنافي لأي ممارسة للعنف والتسلط والعدوان.

ولاشك أنه في ظل انتشار الأمن المجتمعي تسري عدوى التسامح من الفرد إلى الفرد، ليصبح المجتمع متسامحا، سواء في المعاملات، أو في تلقي الآراء والأفكار، أو في التساكن مع مختلف الجماعات، أو الحوار مع الآخر. ومن البديهي أن يكون التسامح من طبيعة الإسلام، لأنه دين اجتماعي وليس دينا ترتكز تشريعاته على الفرد وحده باعتباره محط اهتمامه، لأنه لا يرى سعادة الفرد إلا في تلاحمه مع مجتمعه، فالمجتمع بيئة الفرد التي ينمو فيها متعاونا ومنسجما معها، ولا سبيل لسعادة الفرد إلا في مجتمع متسامح، كما لا سبيل لوجود مجتمع متسامح إلا في فرد متسامح أيضا، وهذا التسامح إنما يسود في مجتمع آمن يعتمد الاستقرار والسلام والتفاهم. وإذا كان الفرد المسلم يوجه إليه الخطاب القرآني بضمير الجماعة أكثر مما يوجه إليه بضمير المفرد، فلأن الإسلام دين اجتماعي تتحقق تعاليمه ومبادئه وقيمه بالتجاوب والتواصل داخل إطار جماعي وليس فرديا. ولو تأملنا في مبدأ الشورى، على سبيل المثال، لوجدناه في الإسلام يؤدي إلى إبراز طبيعة التسامح في شخصية الإنسان المسلم. فالشورى تقتضي وجود آراء متعددة متفاضلة لا تجد حلها إلا في التسامح الذي يذيب عوامل التصلب في الرأي والتعصب في المواقف والسير في الطريق الواحد دون الإصغاء إلى مختلف الاتجاهات، فالشورى تنازل عن بعض المواقف أو بعض جوانب الرأي، فإذا كان المسلم من طبعه التسامح سهلت عليه استساغة الرأي المعارض إذا لم يمس حقا من حقوق الله أو حقوق العباد، وإنما هو التسامح الذاتي في قبول وجهة نظر أخرى تحقق الهدف أو ما يؤدي إلى تحقيقه. فالشورى إذن هي فلسفة الاجتماع الإسلامي في الأسرة والمجتمع والدولة، وهي سبيل مشاركة الإنسان في تدبير شؤون العمران، وبها يرشد الإنسان تدبير المجتمع الذي ينتسب إليه ويشعر بالأمن الاجتماعي الذي يحققه له هذا الانتماء.

وهكذا فالتسامح يعد أرضية أساسية لبناء المجتمع المدني وإرساء قواعده. فالتعددية، والديموقراطية، وحرية المعتقد، وقبول الاختلاف في الرأي والفكر وثقافة الإنسان، وتقدير المواثيق الوطنية والدولية، واحترام سيادة القانون.. خيارات استراتيجية وقيم إنسانية لا تقبل التراجع ولا التفريط ولا المساومة. فالتسامح عامل فاعل في بناء المجتمع المدني وتعزيزه واستقراره.

قيم التسامح في التوجيهات الإسلامية

إذا كان الإسلام دين سلام وعقيدة محبة ووئام بين جميع الناس، مسلمين وغير مسلمين، فإنه أيضا نظام اجتماعي يستهدف تحقيق الأمن المجتمعي الشامل، الذي يرمي إلى أن يستظل بظلاله كل من يعيش داخل المجتمع من مسلمين وأهل ذمة وغيرهم، وهذا الأمن المجتمعي هو الذي يجمع كل هؤلاء أناسا متعارفين متحابين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات:١٣).

إنه حتى في حالة الخصومة والشنآن يبقي الإسلام أسباب الود في النفوس بنظافة السلوك وعدالة المعاملة وسماحة الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة:٨)، وقال سبحانه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٧-٨).

فهذه بعض من تلك القواعد السامية التي جعلها الإسلام أصولا لمعاملة غير المسلمين، وهي أعدل القواعد التي تتفق مع روح هذا الدين وسماحته، وهي أساس شريعته الدولية التي تجعل حالة السلم بينه وبين الناس جميعا هي الحالة الثابتة لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي عليه وضرورة رده.

ومن التوجيهات الإسلامية التي تحث على السماحة ومقابلة الشر بالخير والسيئة بالحسنة قوله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةُۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:٩٦)، وقوله سبحانه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ (فصلت:٣٤).

ومن تلك التوجيهات أيضا أن يكون جدال الآخر بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

ووجه الإسلام إلى مقابلة النوايا السيئة والحقد الدفين بالعفو والصفح، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ (البقرة:١٠٩).

أما سيرة الرسول ﷺ وصحابته الكرام فتعد ترجمة واقعية لتلك التوجيهات القرآنية، حيث طبعت حياتهم بمواجهة الأذى بالصبر والحلم والثبات، أما بعد الهجرة النبوية فكان الحرص على أشده لكي تتحقق داخل المدينة المنورة ملامح الأمن المجتمعي الشامل الذي يؤنس لشيوع أجواء التسامح والتساكن السلمي. ولذلك آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وعقد معاهدات كثيرة مع أعدائه، حيث عاهد ﷺ أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون، وعاهد المشركين في الحديبية على السلم والأمان، وتساهل معهم إلى منتهى التساهل والتسامح، لكن عن قوة وعزة لا عن ضعف وذلة، بل تجلت روح التسامح عند النبي ﷺ حتى في الحرب، فقد قال لهم أيضا: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن» (رواه مسلم).

والإسلام حين يحث على التسامح مع المخالفين، ومن ضمنهم أهل الكتاب، يمنع المسلمين منعا جازما من اتخاذ أولياء منهم يتعاونون معهم، فالتسامح شيء واتخاذهم أعداء الإسلام أولياء شيء آخر، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ (آل عمران:٢٨).

ومن سماحة الإسلام أنه حين يكشف للمسلمين عما تضمره لهم نفوس أعدائهم من الحقد والبغض، لا يأمرهم ولا يحرضهم على مقابلة الغل والدس والكراهية بمثلها، وإنما يحذر المسلمين ويبصرهم بحقيقة العدو، وينبههم إلى الخطر الذي يهدد الأمن المجتمعي لحماية المسلمين، ومع ذلك يحث على الصفح والعفو والجنوح إلى السلم وعدم اللجوء إلى العنف إلا عند الضرورة، كما يربي المؤمنين على أن يعاملوا الناس جميعا بسماحة الإسلام؛ منعا للفتنة وإزالة للتحديات التي تعيق استتباب الأمن والسلام والاستقرار.

الهوامش

(١) لسان العرب لابن منظور ٢/٤٩٠، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، مكتبة الخانجي بمصر، ط ١٤٠٢/٣.

(٢) Dictionnaire Hachette ed ٢، p ١١٧٣.

(٣) Lexique des sciences sociales dallaz- Paris: ١٩٨٣ p ٣٥٨.

(٤) الشوكاني، فتح القدير، ٢٨/١.

(٥) Hassan Azzouzi :La question de la tolérance entre chrétiens ،Juifs et Musulmans in: AL MISBAHIA revue de la faculté des Lettres Sais – Fès Volume، ٤/ ٢٠٠٠ p ٥٩

رحيل المحقق د. عبدالرحمن العثيمين

التحريـــر

توفي المدقق شيخ محقّقي التّراث الإسلاميّ د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين يوم الأحد ٢١ ديسمبر ٢٠١٤م في القصيم بالمملكة العربية السعودية.

ويعتبر الراحل من أبرز المحققين والمشتغلين في التراث، إذ صدر له العديد من الكتب تحقيقا وتأليفا.

وكان الراحل حصل على درجة الماجستير عن تحقيق كتاب «التبيين في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين» لأبي البقاء العكبري عام ١٣٩٧هـ - ١٩٧٤م، أما الدكتوراه، فنالها عن تحقيق كتاب «التخمير في شرح المفصل» للخوارزمي عام ١٤٠٢هـ - ١٩٧٩م.

التحق بالمعهد العلمي بكلية اللغة العربية بالرياض، ثم عين بعد التخرج معلما في مدينة جدة، ثم انتقل للعمل معيدا في جامعة أم القرى، وأنجز رسالة الماجستير، ثم رسالة الدكتوراه، وظلّ أستاذا مساعدا في اللغة، حتى تقاعده وعودته إلى مسقط رأسه في عام ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

واللافت في الراحل أنه بقي في الجامعة أستاذا مساعدا، ولم يسع إلى الترقية، على رغم أن بحوثه وكتبه المحققة تضمن له ذلك، لكنه رفض الترقية كما رفض الاستجابة لجهة علمية طلبت منه إرسال نسخة من مؤلفاته، لمنحه جائزة علمية رشحوه لها.

ولعل عدم توفر بحث عن ترجمة العكبري استدعت اهتمامه بتحقيق كتب طبقات الحنابلة، فحقّق ستة كتب في طبقات الحنابلة، وهي: «الدر المنضد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، «المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد»، «الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب الإمام أحمد» لابن عبدالهادي الإمام العلامة المحدث يوسف بن الحسن عبدالهادي، «غاية العجب في تتمة طبقات بن رجب» لابن حميد النجدي، «طبقات الحنابلة» لابن أبي علي، «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» لابن حميد النجدي.

وكانت المحطة المهمة في حياته العلمية، هي الجمع والتحقيق، فكان له مع المخطوطات شغف وهواية وعشق مبكر، ففي مرحلة البكالوريوس طلب منهم أحد الأساتذة البحث عن ديوان النابغة الجعدي المخطوط، ومقارنته بالديوان المجموع، ومن يعثر على بيت واحد زائد على الديوان المجموع فسيمنحه الدرجة كاملة، يقول العثيمين رحمه الله: فبحثتُ عن الديوان المخطوط فوجدته في تركيا، فسافرت إلى هناك، واطلعت عليه فلم أجد فيه زيادة على المجموع.

أشاد بمكانته أساتذة ومحقّقون، من أمثال: محمود شاكر، وحمد الجاسر، ومحمود الطناحي، ومحمد عضيمة، الذي وصفه بأنه «مباحث» للمخطوطات.

للاستثمار معنى بشري

استثمار الطاقات والموارد لا ينحصر في الشق المادي منها فقط، بل في الجانب الإنساني أيضا، وهو الأهم بطبيعة الحال. وخير ما نتركه للأجيال القادمة ليس صندوقا ممتلئا بالذهب والفضة، ولكن غرس طيب في صدر شرح بالإيمان والتقوى.

يستثمر الفرد فينا مدخراته، وهذا واجب عليه، إذ إن الإسلام لا يقر حبس الأموال ولا يعرف الركود والخمول والبطلان، إنما يحفز على الحركة والنشاط والعمران. ولا عمران إلا بحركة في اتجاه صحيح، وهنا يكون للاستثمار معنى. وبالنظر إلى ما تفعله الأسرة المسلمة نجد أن الأبناء أمانة، وحسن تربيتهم وتعليمهم استثمار حقيقي لا يستهان به، فالعلم أساس الحضارة، والتنافس بين الأمم تنافس على الأخذ منه عبر العنصر البشري من خلال المؤسسات التعليمية الرفيعة المستوى. وفي المقابل، يتأسف المرء على الحال التي وصل إليها البعض من انغماس في الشره الاستهلاكي، وهنا لا استثمار ولا ادخار ولا مستقبل، بل استمتاع بلحظة آنية سرعان ما تمر لتخلف الندم. وكما على الأفراد واجب تجاه أنفسهم وأوطانهم وأمتهم، فعلى الحكومات واجب أيضا في حسن استثمار الطاقات البشرية وغير البشرية مع الترشيد في النفقات وعدم التشجيع على منح أو استقبال القروض غير الإنتاجية.

التحرير

عام الرمادة نموذجا:

إجراءات الدولة الإسلامية للتخفيف من الأزمة الاقتصادية

عبد العلي الوالي
باحث اقتصادي

إن المطلع على تاريخ البشرية يجد فترة نزول الوحي على محمد ﷺ، وفترة حكم الخلفاء الراشدين أزهى ما عرفه هذا التاريخ على مستوى الأعمال الاجتماعية والتطوعية، إلى درجة أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم كانوا لا يجدون أحيانا ما يتطوعون به، فيتحاملون لأجل الصدقة، ولأخذ صورة عن منهج سلفنا الصالح في تدبير الأزمات، واعتماد التكافل وسيلة أساسية لحلها قد اخترت أزمة عام الرمادة التي وقعت في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حلت بالمسلمين أزمة اقتصادية عمت شعب الحجاز وما حوله من قرى العرب، حتى أجهدتهم وحملتهم ما لا عهد لهم به، على ما عرفوا به من اللأواء، واحتمال اختلاف الأنواء، وهو ما عبر عنه بعام الرمادة.

وقد ذكر ابن منظور وغيره سبب تقييد هذا العام بهذا الوصف، فقال: «وعام الرمادة معروف، سمي بذلك لأن الناس والأموال هلكوا فيه كثيرا، والرمد والرمادة الهلاك، وقيل هو الجدب تتابع فصيّر الأرض والشجر مثل الرماد، والأول أجود».

وعن عوف بن الحارث عن أبيه قال: «سمي ذلك العام عام الرمادة، لأن الأرض كلها صارت سوداء، فشبهت بالرماد».

أما زمن هذه الأزمة فيروي ابن سعد أنها وقعت في السنة الثامنة عشرة للهجرة بعدما صدر الناس عن الحج.

ورغم تسمية هذه الأزمة بعام الرمادة، فالظاهر من خلال بعض الروايات أنها دامت أكثر من سنة، ففي المدونة، قال ابن القاسم: «قلنا لمالك: وما زمان الرمادة، أكانت سنة أو سنتين؟ قال: بل سنتين، قال ابن القاسم: «بلغني أنها كانت ست سنين»، ويرى بعض المؤرخين أنها كانت تسعة أشهر.

والقائلون أنها أعوام جدب وليست عاما واحدا، يحمل كلامهم على أن ذلك العام كان هو الأخير المتميز الذي بلغ فيه الأمر ذروة الشدة، فالأعوام السابقة كانت أعوام قحط، فأتت على المدخرات، ثم حل ذلك العام فاجتمعت فيه آثارها. وفي هذه السنة عاش الناس في وضع

مزرٍ جدا، ذلك أن بعض المصادر تذكر أنهم أصبحوا يأكلون كلّ ما يجدوه أمامهم لشدة القحط والحاجة، عن حزام بن هشام عن أبيه قال: «أصاب الناس جهد شديد، وأجدبت البلاد وهلكت الماشية، وجاع الناس وهلكوا، كان الناس يُرون يستفّون الرمة، ويحفرون نفق اليرابيع والجرذان يخرجون ما فيها».

وفي رواية أن الأمر عام الرمادة بلغ بالناس إلى شيٍّ جلد الميتة وأكله وسفّ العظام المسحوقة».

حال إمام المسلمين

يعرف الرجال عند الشدة كما يقال، وقد تجلت في هذا العام شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، بوصفه حاكما فذا، وراعيا مسؤولا، حمله الله أمانة رعيته، وتجلى فيه فقهه الديني والدنيوي، وسياسته الشرعية التي رسمها، وسار عليها في معالجته لهذه الأزمة الخانقة، حتى أذن الله بانفراجها.

وقبل الحديث عن بعض التدابير التي قام بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أجل التخفيف من هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة، نتحدث أولا عن عيش القائد الراعي عمر حال الأزمة، لأنه المسؤول الأول في الدولة الإسلامية عن الرعية التي كلفه الله تعالى بحماية مصالحها وضمان عيشها، ولأن إصلاح الإمام لنفسه يعتبر أولى الخطوات للخروج من أية أزمة، فضلا عن كونه القدوة والمنهج المتبع من طرف الجميع.

من خلال كثير من الروايات يتضح لنا جليا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن يفكر بنفسه بتاتا، بل كان همه الوحيد هو رعيته، ذلك أنه كان يخشى عليها الهلاك في زمانه، فيتحمل هو مسؤولية ذلك أمام الله تعالى وأمام الناس أيضا، عن ابن عمر رضي الله عنه أنه سمع أباه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في السحر: «اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد صلى الله عليه وسلم على يدي».

ومما يدل على هذا المعنى ما روي عن أنس بن مالك أنه قال: «تقرقر بطن عمر، وكان يأكل الزيت عام الرمادة، وكان قد حرم على نفسه السمن قال: فنقر بطنه بأصبعه، وقال: «قرقر ما شئت أن تقرقر، إنه ليس لك عندنا غير هذا، حتى يحيا الناس».

ومن الروايات التي نستنتج منها عدم تمييز عمر نفسه عن رعيته واستئثاره بطعام يفتقده غيره ما رواه عبد الله ابن زيد بن أسلم عن أبيه عن جده أنه لما أتي عمر عام الرمادة بقدر من سنام وكبد، قال: بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام. قال: فأتي بخبز وزيت، ثم قال: ويحك يا يرفا! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام، وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم.

ولم يقتصر منهج التشديد الذي طبقه عمر بن الخطاب على نفسه، بل سلك نفس الأسلوب مع أهل بيته، إذ نظر ذات يوم في عام الرمادة إلى بطيخة في يد بعض ولده، فقال: «بخ بخ يا بن أمير المؤمنين، تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى؟ فخرج الصبي هاربا وبكى، فسكت عمر بعدما سأل عن ذلك فقالوا: اشتراها بكف من نوى».

ورفض رضي الله عنه أن يركب دابة لأنها راثت شعيرا، ثم قال: «المسلمون يموتون هزلا، وهذه الدابة تأكل الشعير، لا الله لا أركبها حتى يحيا الناس».

تدابير عمر

لما حلت الأزمة بالمسلمين لم يقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه مكتوف الأيدي كما يفعل كثير من عشاق الكراسي، بل قام بإجراءات مهمة جدا، وطبقها بصرامة شديدة كما هو معروف عنه، مما ساهم بشكل كبير في إنقاذ الأمة الإسلامية من كارثة إنسانية، وهذه بعض تلك الإجراءات:

– الكتابة إلى زعماء الأمصار التابعة للإسلام من أجل أن يسهموا في درء غائلة المجاعة عن إخوانهم: وكنموذج على ذلك، الرسالة التي بعث بها إلى عمرو بن العاص، والتي كانت شديدة اللهجة، وتنطوي على حزم وعزم واستغاثة ملحة ومؤثرة، قال رضي الله عنه في رسالته إلى عمرو: «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاصي، سلام الله عليك، أما بعد أفتراني هالك ومن قبلي، وتعيش أنت ومن قبلك؟ فيا غوثاه يا غوثاه يا غوثاه».

أما قوله رضي الله عنه إلى العاصي بن العاصي فليس معنى ذلك أنه كان يرى في عمرو بن العاص رجل سوء، وإلا لما استعمله وائتمنه على الرعية، وهو بعد صحابي جليل معروف المكانة، ولكنه إنما يريد أن يكفه ويخفف من غلوائه، ويحتاط لنفسه وللمسلمين من عواقب دهائه.

ولقد كان لهذا الإجراء دور مهم في إغاثة المنكوبين.

– إحصاء المحتاجين للمعونة، وتعيين من يشرف عليهم: في عام الرمادة تجلبت العرب من كل ناحية إلى المدينة، فأمر عمر بعض الصحابة بالإشراف على توزيع الطعام عليهم، فمن بينهم المسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن عبد القاري، وعبد الله بن عتبة، فكانوا إذا أمسوا اجتمعوا عند عمر بن الخطاب، فزودوه بأخبار ذلك اليوم. ومما يستفاد منه سياسة عمر المحكمة في تدبير هذه الأزمة، وبعده عن العشوائية والعبثية في جلب الأرزاق وتوزيعها، ونهجه سياسة الإحصاء لتحديد مقدار حاجيات الناس من

الأطعمة والألبسة، وقد ثبت عنه رضي الله عنه أنه قال في ليلة بعد أن تعشى الناس عنده: «أحصوا من تعشى عندنا» ، وقال أيضا: «أحصوا العيالات الذين لا يأتون والمرضى والصبيان» وبعد ليال زاد الناس فأمر بهم فأحصوا فوجدوا من تعشى عنده عشرة آلاف، والآخرين خمسين ألفا.

– التضرع إلى الله تعالى وإقامة صلاة الاستسقاء: لما عزم عمر بن الخطاب على أن يستسقي ويخرج بالناس، كتب إلى عماله أن يخرجوا يوم كذا وكذا، وأن يتضرعوا إلى الله، ويطلبوا إليه أن يرفع هذا المحل عنهم.

ثم خرج إلى المصلى، وعليه برد رسول الله ﷺ، وكان أكثر دعائه الاستغفار، ورفع يديه إلى السماء مدا، وقبل أن ينصرف حوّل رداءه، فجعل اليمين على اليسار وجعل اليسار على اليمين، وبكى بكاء طويلا حتى أخْضَل لحيته.

وروي عنه رضي الله عنه أنه استسقى بالعباس عم النبي ﷺ، عن ابن عمر قال: استسقى عمر بن الخطاب عام الرمادة بالعباس ابن عبد المطلب فقال: اللهم هذا عم نبيك ﷺ نتوجه إليك به فاسقنا، فما برحوا حتى سقاهم الله، فخطب عمر الناس فقال: «أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان يرى للعباس ما يرى الولد لوالده، يعظمه ويفخمه ويبر قسمه، فاقتدوا أيها الناس برسول الله ﷺ في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله عز وجل فيما نزل بكم». قال ابن حجر معلقا على هذا الحديث: «ويستفاد من قصة العباس استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وأهل بيت النبوة، وفيه فضل العباس وفضل عمر لتواضعه للعباس، ومعرفته بحقه».

وقد ذكر ابن حجر في الفتح صفة ما دعا به العباس، قال رضي الله عنه: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث».

– تأخير الصدقة إلى ما بعد الأزمة: روي عن عمر رضي الله عنه أنه لم يأخذ الصدقة من الناس في العام الذي اشتدت فيه الأزمة، وفي العام القابل أخذ زكاة عامين بعد أن أحيا الناس، ولعل امتناع عمر عن أخذ الزكاة في ذلك العام راجع إلى الحاجة التي ألمت بأصحابها، رغم توفرهم على النصاب الموجب إلى إخراجها، لأن الإنتاج المرتكز بالأساس على المجال الفلاحي قد توقف، ونفس المعنى أشار إليه أبو عبيد في تأخير النبي ﷺ أخذ زكاة عمه العباس، قال: «نراه، والله أعلم، أنه كان أخر عنه الصدقة عامين من أجل حاجة العباس، فإنه يجوز للإمام أن يؤخرها على وجه النظر، ثم يأخذها منه بعد، كما أخر عمر بن الخطاب صدقة عام الرمادة، فلما حَيِيَ الناس في العام المقبل أخذ منهم صدقة عامين».

قال الدكتور يوسف القرضاوي معلقا على هذا الإجراء الذي قام به الفاروق رضي الله عنه: «وكان ذلك من حكمة عمر رضي الله عنه، وحسن سياسته ورفقه بالرعية، فأخر الزكاة عن الممولين في عام المجاعة».

أمر بعض الأسر بإيواء غيرها: ذكر بن عبد البر رحمه الله تعالى أن عمر بن الخطاب في عام الرمادة كان يجعل مع كل أهل بيت عدد أهل بيت آخر مثلهم، وكان يقول: «لن يهلك امرؤ عن نصف قوته».

هذا ما ذكره ابن عبد البر، لكن في رواية عن أم بكر بنت المسور بن مخرمة عن أبيها أن عمر همّ بذلك فقط ولم يفعله، قالت: «سمعت عمر بن الخطاب يقول بعدما رفع الله المحل في الرمادة: «لو لم يرفعه الله لجعلت مع كل أهل بيت مثلهم».

وتحت عنوان «نية لم تتم» ذكر الشيخ محمد محمد المدني أن عمر هم بجعل أهل كل بيت من المسلمين مع مثلهم.

وربما – والله أعلم – أن عمر حفز الناس على فعل ذلك، ولم يلزمهم إلزاما، فكما طلب المعونة من بعض الأمصار البعيدة عن النكبة كمصر والشام والعراق... فالأولى أن يطلب من بعض البيوت إيواء غيرها في مكان النكبة.

– إسقاط حد السرقة: مما يدل على مكانة عمر بن الخطاب الفقهية، أنه عطّل حد السرقة عام الرمادة، وقال: «لا أقطع في عام سنة» ، ذلك أن الناس إذا كانت مجاعة وشدة غلب عليهم الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه، ويجب على صاحب المال بذل ذلك له مجانا على الصحيح، لوجوب المواساة وإحياء النفوس، وهذه شبهة قوية تدرأ القطع عن المحتاج.

والثابت عن عمر رضي الله عنه أنه كان يتجنب تطبيق حد السرقة في كل حالات الاضطرار، بل كان يرى أن للمضطر أخذ ما يبقي به حياته، ولو باستعمال القوة، كما أوجب الدية على من امتنع عن إغاثة الملهوف.

والظاهر أن اجتهاد عمر رضي الله عنه بخصوص سرقة المضطر، له ما يؤيده من النصوص الشرعية قرآن وسنة:

فمن القرآن: قوله تعالى بعد أن حرم الميتة والدم ولحم الخنزير...: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: ٣)

ومن السنة: عن عباد بن شرحبيل قال: «أصابتنا سنة فأتيت المدينة، فدخلت حائطا من حيطانها، فأخذت سنبلا ففركته وأكلت منه، وحملت في ثوبي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فقال ما علمته إذ كان جاهلا ولا أطعمته إذ كان ساغبا أو جائعا، فرد علي الثوب، وأمر لي بنصف وسق أو وسق».

التحريـــر

القروض الاستثمارية وموقف الإسلام منها

ما موقف الإسلام من القروض الاستثمارية؟ سؤال أفرد الدكتور محمد فاروق النبهان عنوانا كاملا في مكتبتنا العربية للإجابة عليه.

صدر الكتاب عن دار البحوث العلمية بالكويت في ٣١٢ صفحة من القطع المتوسط، وبدأ بلمحة تاريخية عن القروض الإنتاجية عند الأمم القديمة والأديان السابقة للإسلام، ثم عرج على دور القروض في عملية الإنتاج والتوظيف، وعقد القرض في الشريعة الإسلامية وحكمه وصلته بالربا، ويختم بمبحث عن كيفية استثمار الأموال وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية بقوله: خلق الله الإنسان، وعلمه البيان، وميزه بهذا عن سائر المخلوقات، وجعله طموحا إلى الرقي، ومنحه أسباب تحقيق هذا الطموح، ولا يمكن أن يحقق الإنسان هذا الطموح ما لم تتوافر له حاجاته التي يحتاج إليها، ومطالبه التي لا يستغني عنها. وهذه المطالب والحاجات تزداد مع الزمن كلما ازدادت تطلعات الإنسان.

ولا يمكن توفير هذه الحاجات التي يحتاج إليها الإنسان ما لم توضع خطة للتنمية الاقتصادية يتم بموجبها تحويل المدخرات – التي يمتنع الإنسان عن استهلاكها – وتوجيهها إلى المؤسسات الإنتاجية التي تستطيع أن تعتمد عليها في تدعيم مركزها المالي. ويضيف موضحا: هناك عوامل متعددة تلعب دورا بارزا في تشجيع الادخار وتوجيه الأموال المدخرة إلى المؤسسات التي تستطيع أن تستفيد منها، ومن هذه العوامل حالة مقدار الدخل، والوعي السكاني، والثقافة العامة، ونمو الوعي الاجتماعي. وتلعب الحكومات دورا كبيرا في تشجيع الادخار وتوفير المؤسسات التي تساعد المواطنين على هذا الادخار.

ونستطيع أن نقسم عملية التمويل إلى قسمين هما: القروض العامة والقروض الخاصة. ويمضي الدكتور النبهان بنا إلى حكم القرض فيقول: القرض من المرافق التي يحتاج إليها المجتمع، وتتوقف عليها مصالحه، وهو نوع من أنواع التعاون دعا الإسلام إليه، وحث عليه، ووضع من الأحكام ما يكفل تحقيق الغاية التي وضع لأجلها، وقد روى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما من مسلم يقرض مسلما قرضا مرتين إلا كان كصدقتها مرة» (رواه ابن ماجة).

وعن أنس بن مالك أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر» (رواه ابن ماجة).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: كان لرجل على رسول الله ﷺ حق فاغلظ له، فهم به أصحابه فقال لهم: «اشتروا له سنا فأعطوه إياه»، فقالوا إنا لا نجد إلا سنا هو خير من سنه، قال: «فاشتروه وأعطوه إياه، فإن من خيركم أو أخيركم أحسنكم قضاء» (رواه مسلم). وعن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ استلف من رجل بكرا، فقدمت عليه أبل من أبل الصدقة، فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره، فرجع إليه أبو رافع، فقال: لم أجد فيها إلا خيرا رباعيا، فقال: «أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء» (رواه مسلم).

أما أركان القرض وشروطه فقد قدم الكاتب لمحة موجزة عنها، فقال: أركان العقد هي الأجزاء التي يتكون منها العقد، وهي شيئان: الإيجاب والقبول: وهما العاملان الإنشائيان في بناء العقد، والعمل القانوني الذي يربط المتعاقدين، فتصير به إدارتهما شريعة ملزمة لهما، في حدود حقوقهما. ويسمى الإيجاب والقبول «صيغة العقد»، أي العبارات المتقابلة الدالة على اتفاق الطرفين.

والأصل في العقد هو توافق الإرادتين، وهو التراضي ما بين المتعاقدين على العقد، ولما كان التراضي مجهولا، ولا يمكن الاطلاع عليه، لأنه من الأمور الباطنة، فقد أوجبت الشريعة أن يعبر العاقدان عن إرادتيهما الباطنة بألفاظهما، ويجب أن تتوافر في صيغة الإيجاب والقبول أمور ثلاثة: جلاء المعني، توافق الإيجاب والقبول، جزم الإرادتين.

ويفرد الكاتب مبحثا للحديث عن وجوب رد المقترض إلى المقرض مثل حقه الذي أقرضه إياه، قدرا وصفة، ففي المثلي يرد المثل، وفي القيمي يرد المثل أيضا صورة حتى لو اختلف سعر يوم القبض والقضاء، فلو استقرض طنا من القمح وكان سعره يوم القبض مئتي ليرة، ثم ارتفع سعر الطن إلى ثلاثمئة بعد فترة من الزمن، فعلى المقترض أن يرد إلى المقرض المثل، وهو طن من القمح، ولو اختلف السعر، لأن الواجب هو المثل، وحق المقرض متعلق بالمثل لا بالقيمة. وعلى المقرض أن يقبل حقه إذا دفعه إليه المقترض، إلا إذا سلمه إياه ناقصا أو مغايرا للمثل، وعندئذ يحق له أن يمتنع عن قبول الوفاء. ويوضح د. النبهان: «ويجوز للمقترض أن يدفع إلى المقرض عين حقه إذا كانت موجودة عنده، كما يجوز له أن يدفع المثل، وهو بالخيار ما بين العين والمثل.

ولو أراد المقرض أن يأخذ عين حقه، كان المقترض بالخيار، إن شاء دفع له ذلك، وإن شاء أعطاه المثل، وهذا هو الرأي الصحيح».

خير تركة للأبناء.. أدب وتعليم

السنوسي محمد السنوسي
باحث وصحفي

احتفى الأدب العربي بالأبناء وخلع عليهم أوصافا كثيرة، تفصح عن منزلتهم ومكانتهم، وتبين عميق محبة الآباء لهم؛ فهم فلذة الكبد، وقرة العين، وثمرة القلب. جاء في كلام الأحنف ابن قيس وهو يهدئ معاوية رضي الله عنه لما غضب على ابنه يزيد، فهجره: «يا أمير المؤمنين؛ أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة؛ إن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، ولا تكن عليهم قفلا؛ فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك» (١).

وصف القرآن الكريم الأبناء بأنهم «زينة الحياة»؛ وهو وصف فيه من الجمال والبهجة ما فيه، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف:٤٦). وجعل الدعاء بصلاحهم واستقامتهم مما يتوجه به «عباد الرحمن» إلى الله سبحانه، فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان:٧٤).

أمانة لديك

وإذا كان أمير الشعراء أحمد شوقي قد قرر أن الذكر الحسن هو للإنسان عمر ثان يمتد بعد وفاته، فقال:

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها
فالذكر للإنسان عمر ثاني

فإن أبناء الإنسان الذين يتركهم بعد مماته، وقد أحسن تربيتهم، وأدى حق الله فيهم؛ هم أفضل ذكر حسن له، يجعل من حياته امتدادا غير منقطع، بل هم إحدى ثلاث تستمر بها صحيفة الإنسان في الامتلاء بالحسنات بعد وفاته ومفارقته دار العمل والكسب؛ قال ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (أخرجه مسلم).

إذن، الأبناء نعمة، والأبناء ذكر ثان، والأبناء أيضا أمانة؛ قد أودعها الله سبحانه عند الإنسان، وسيسأله: حفظ ذلك أم ضيع؟ فكما جاء في الحديث الشريف: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته» (أخرجه البخاري ومسلم). وجاء أيضا: «إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ ذلك أم ضيع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته» (رواه ابن حبان عن أنس بن مالك، وصححه الألباني).

وقيام الإنسان بما توجبه عليه هذه النعمة وتلك الأمانة، يعني بالضرورة أن يهتم بأبنائه، عقلا وروحا وجسدا، على السواء؛ إذ إن بعض الآباء يظن - خطأ - أنه بمجرد توفير حاجات أبنائه المادية، فإنه يكون قد برهم وأحسن واجبه تجاههم. كما أن البعض يظن أن انشغاله معظم الوقت بمتطلبات أبنائه المعيشية، يمثل ذريعة له عن تقصيره في حسن رعايتهم وتفقد أحوالهم.

لا.. هؤلاء وهؤلاء يرتكبون خطأ جسيما، فالإنسان ليس جسدا فقط، وما يجب على الآباء تجاه أبنائهم يتعدى الأمور المادية، بل قد تكون هذه الأمور أيسر ما يمكن القيام به تجاه الأبناء! ولذا روي في الحديث الشريف: «ما نحل والد ولده من نحل، أفضل من أدب حسن» (أخرجه أحمد، والترمذي). والمفارقة، أن الإنسان ربما انشغل عن أبنائه بزعم أنه يؤمن لهم مستقبلهم، فإذا هم ينشأون على غير هدى واستقامة، فيضيعون ما شقي الأب بجمعه، وانشغل به عنهم.

التربية.. علم وفن

كثيرة هي النصائح والتوجيهات والإرشادات التي يمكن أن تقال في هذا المقام، وهي في مجملها لا تخفى على أحد؛ لكن المشكلة في وضعها موضع التطبيق، وفي ضبط الآباء انفعالاتهم أمام مشكلات الأبناء المتعددة، وفي ثباتهم أمام ضغوط الحياة التي تجرفهم بعيدا عن مراعاة الجوانب النفسية والتربوية والإيمانية عندهم.

لكن تبقى ثلاث نقاط جديرة بالتنبيه والعناية؛ وهي:

- أن التربية علم وفن.
- وأن من الواجب مراعاة طبيعة المراحل العمرية المختلفة التي يمر بها الأبناء.
- إضافة إلى أن «تعليم الأبناء» هو خير ما يمكن أن يستثمر فيه الآباء، ويعود بالنفع عليهم وعلى أبنائهم وعلى مجتمعهم.

للأسف، فإن كثيرين من الآباء يعتمدون في تربية أبنائهم على ما راكموه في ذاكرتهم من خلال تجربتهم الشخصية، أو ما سمعوه، أو رأوه في البيئة المحيطة بهم؛ وهي أمور لا تخلو من غبش كثير!

هل سمعتم أن إنسانا يقبل أن يعالجه من يعتمد فقط على تجربته ومعارفه الشخصية، أم يذهب إلى طبيب ماهر حاذق؟! فما بالنا بقضية مهمة كهذه نستسهل الأمر، ونستهين به؟! لماذا لا يقرأ الآباء في كتب التربية؛ ليعرفوا ما حوته من كنوز وخبرات وإرشادات؟ لماذا لا يسعون إلى حضور دورات في تربية الأولاد، وما أكثرها؟ لماذا يستحي البعض أن يسأل: ابني يفعل كذا وكذا، كيف أتصرف معه؟

نعم، قد يسأل الآباء عن مواجهة مشكلات لأبنائهم، لكن بعد أن يقعوا فيها، ويصعب الخلاص منها!

مراحل مختلفة.. وزمان مختلف

يمر الإنسان في حياته بأطوار مختلفة، تتدرج إجمالا تحت ثلاث مراحل: الطفولة، ثم الشباب، ثم الكهولة. ولكل مرحلة منها طبيعة وخصائص مختلفة عن الأخرى.

● فما يناسب مرحلة الطفولة، حتما لا يناسب ما يليها من مراحل؛ مما هو مفصل في علوم النفس والتربية. ولذلك جعل الإسلام لكل مرحلة ما يناسبها من الأحكام الفقهية، في مثل

قول النبي ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع» (رواه أبوداود بإسناد حسن). وجاء في الحكمة: «داعب ولدك سبعا، وأدبه سبعا، وعلمه سبعا، ثم اترك حبله على غاربه» (٢).

لكن المشكلة الكبرى، التي تتوالد عنها مشاكل لا حصر لها، تحدث حينما يتعامل الآباء مع أبنائهم على أنهم أطفال دائما، كأنما توقف الزمان عندهم لا يتحرك أبدا! فلا يراعون التغيرات النفسية والجسدية والعقلية التي تطرأ عليهم، ولا يتيحون لهم الاعتماد على أنفسهم والتعبير عن ذواتهم ومشاعرهم ورغباتهم وتطلعاتهم، ولا يسمحون لهم بأن يروا الحياة والأحياء من خلال عيونهم هم لا عيون آبائهم!

● إن من يتأمل الحياة بتقلباتها وتغيراتها، يجد أنها في حركة مستمرة، وأن الزمان لا يتوقف عن الدوران. ومع هذه الحركة وذلك الدوران تنشأ مفاهيم وتتغير عادات، وليس من المناسب أن يصنع الأبوان قفصا حديديا لأبنائهما؛ بل الأوفق أن يغرسا فيهم احترام ما لا خلاف عليه، والتمسك بما افترضه الله، ثم يتركا لهم أن يمارسوا حياتهم بأريحية، وأن يكونوا أبناء زمانهم؛ ما دام ذلك لم يخدش حياء، ولم يؤد إلى معصية.

أما من يصر على أن يكون أولاده «نسخا كربونية» منه، فليجهز نفسه لمشكلات لا تنتهي؛ ولذا جاء في الحكمة «لا تكرهوا أولادكم على آثاركم؛ فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم» (٣).

خير استثمار

العلم هو أساس الحضارة؛ عليه تقوم، وبه تشيد أركانها، ومعالمها، وفنونها. والإنسان هو عماد تلك الحضارة، منه تبدأ، وعند رقيه ورفاهيته تنتهي.. ولاشك أن التنافس بين الأمم والحضارات هو في حقيقته تنافس على الأخذ من العلم بالنصيب الأكبر؛ بما يمكن من تطوير مجالات الحياة، ومن إحراز أفضل النتائج فيها بأقل تكلفة وفي أقصر وقت ممكن.

وإن أفضل استثمار يعود بالنفع على المرء وعلى أولاده، بل وعلى مجتمعه الذي ينتمي إليه، هو أن يستثمر أمواله وطاقاته في هذا «الإنسان» الذي يشكل عماد الحضارة، من خلال صقله بـ«العلم» الذي يمثل أساس أي حضارة.

ويرى أحد الباحثين أن جميع شواهد التطور في العالم تؤكد ضرورة استثمار العنصر البشري بكل طاقاته؛ لأن ذلك هو ما يحقق الفارق في التقدم والتطور؛ وأنه لابد من تخريج قوة بشرية لها القدرة على التطوير والتحديث؛ وذلك من خلال المؤسسات التعليمية والجامعات والمعاهد العليا، وأن يسهم التعليم العالي في رسالة بناء الإنسان وتطويره.

وفي لفتة مهمة، يشير أحد الباحثين إلى أن مفهوم «الاستثمار» ارتبط بمفهوم «التنمية الشاملة»؛ التي تهدف إلى تحسين نوعية الحياة، وقدرة الإنسان على التعامل مع العلم والمعرفة وتقنيات العصر؛ وأن «التنمية» بهذا المفهوم تتوقف على التعليم الجيد للإنسان، فالتعليم هو المحور الأساسي للتنمية والنهضة الحضارية (٤).

● وفي هذا الصدد، نشير إلى ضرورة تعلم لغة أجنبية، لكن ليس على حساب اللغة العربية، كما يقع البعض في هذا الخطأ؛ فاللغة العربية وإن لم تكن لغة العلم المعاصر، لكن لا توجد أمة تبدع بغير لغتها، فضلا عن دور اللغة العربية في حفظ الهوية وتأكيد الاستقلال الحضاري (٥).

● كذلك من المهم أن يهتم الآباء بتنمية الجانب العملي والمهاري عند أبنائهم منذ الصغر، ولو عن طريق الألعاب التي تنمي الذكاء، وتدفع العقل لمزيد من التفكير؛ وألا يولوا الأهمية للحفظ فقط؛ لإحراز أعلى الدرجات، فيتحول الأطفال إلى آلات لا تعي شيئا مما تحفظ. وللأسف فإن نمط التعليم في كثير من الدول العربية يغذي هذا الاتجاه، ولذلك ليس مفاجئا أن تتراجع جامعاتنا بعيدا في قائمة الترتيب على مستوى العالم!

● وأما التنبيه الثالث، فهو أن يترك الآباء لأبنائهم الحرية كاملة في المجال الذي يريدون التخصص فيه، فلا يفرضون عليهم دراسة بعينها؛ فالعلم - بمفهومه الواسع، ومجالاته المتعددة، النظرية والعملية - مطلوب للأمة، ويمكن أن يبدع الإنسان في أي مجال من تلك المجالات، مادام قد اختاره عن رغبة وقناعة ومناسبة لمهاراته؛ وبالتالي يستطيع من خلال ذلك أن يكون ناجحا في الحياة، نافعا لمجتمعه.

الهوامش

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة، ٣/ ١٠٥.

(٢) نسبه بعضهم إلى عبدالملك بن مروان.

(٣) لا يصح هذا القول حديثا شريفا، وقد نسبه الشهرستاني لسقراط، في «الملل والنحل»، ١٤٥/٢.

(٤) هو: د. خالد جلبان، استشاري طب الأسرة في كلية الطب بجامعة الملك خالد بأبها، نقلا عن جريدة «الرياض»، بتصرف يسير، على الرابط: http://www.alriyadh.com/٨٨٨٩٣٢.

(٥) شهد كثير من المستشرقين - مثل نولدكه وجرونيباوم - على تفرد اللغة العربية، وقدرتها على مسايرة العلوم، وتميزها بخصائص وجماليات دون اللغات الأخرى.

لماذا نتجنبه وكيف نقضي عليه؟

الشره الاستهلاكي

تحقيق:
نشوه صالح

لماذا غيّب الشره الاستهلاكي ثقافة الادخار في عالمنا العربي؟ وماهي الأسباب والعوامل التي أدت إلى تفاقم النزعة الاستهلاكية في المجتمعات العربية إلى هذا الحد؟ وكيف نقضي عليها لتعود ثقافة من جديد؟

هذه الأسئلة وغيرها حاولت «الوعي الإسلامي» الإجابة عنها من خلال الالتقاء بعدد من المحللين الاقتصاديين وعلماء النفس والاجتماع والدّين، الذين أكدوا جميعهم أن ظاهرة الاستهلاك انتشرت وبقوة في المجتمعات العربية بصورة لافتة للأنظار، في ظل غياب ثقافة الادخار.

وأشاروا إلى أن حب تقليد الآخرين، وغياب سياسة ترشيد الإنفاق يغذي ثقافة الإنفاق المبالغ فيه.

في البداية يوضح الخبير الاقتصادي حجاج بوخضور أن الادخار ثقافة يكتسبها الفرد من أسرته، ومن البيئة التي يشبّ فيها، موضحا أن الشعوب التي تتمتع بثقافة الادخار هي الشعوب التي تتمتع بذكاء عال، وحرص على المستقبل، لافتا إلى أن الحكومات عندما تتمتع هي الأخرى بالثقافة

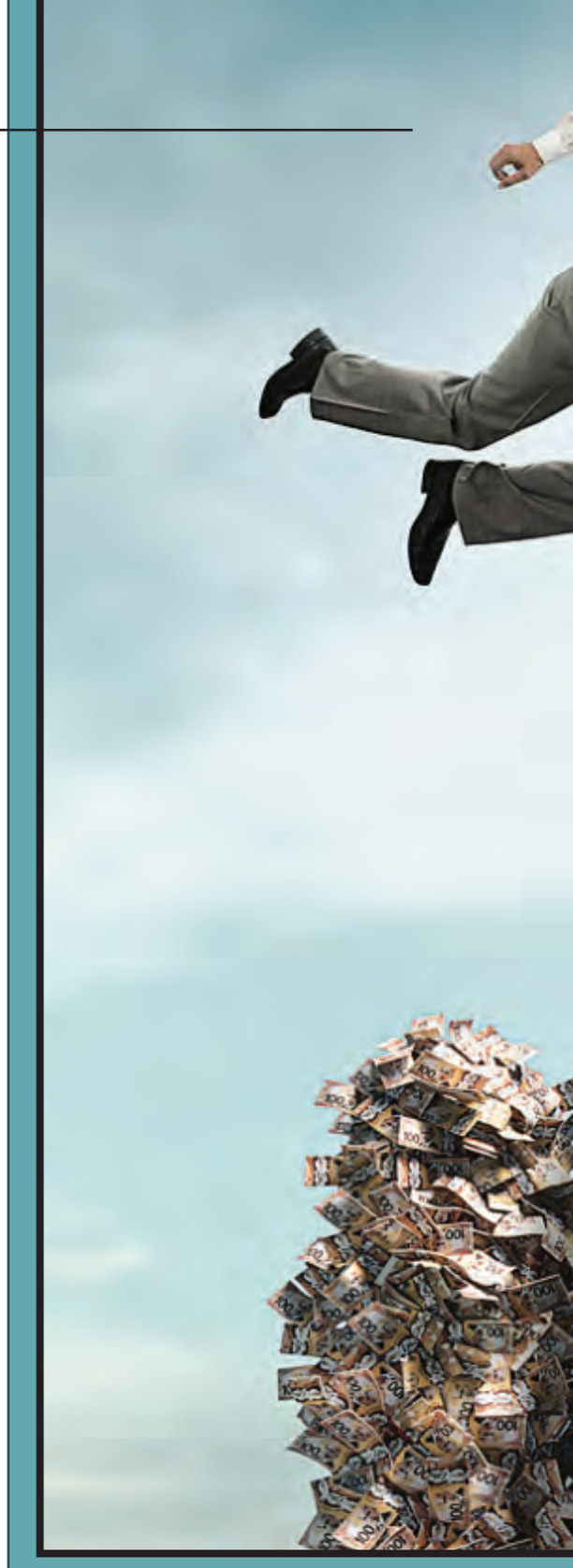

الادخارية، فإن مواطنيها يكتسبون هذه القيم منها تلقائيا، ولكن عندما يجد الأفراد والشعوب أن الحكومات تنفق ببذخ هائل دون رشد فسيكونون أكثر بذخا.

وأكد بوخضور أن هناك عدة جوانب أخرى تبعد الإنسان عن ثقافة الادخار، وتدفعه نحو الترف الاستهلاكي، أهمها محاولات الدول الرأسمالية الكبرى تقوية النزعة الاستهلاكية في الشعوب الغنية والفقيرة، من أجل استنزاف كل ما في أيدي تلك الشعوب، موضحا أن تقليد الآخرين يشجع على غياب ثقافة الادخار، لأن هناك أشخاصا يبحثون عن ملذات النفس، من خلال امتلاك سلع كمالية للاستهلاك وتقليد الآخرين والتباهي.

سلوك منفلت

ويقول الخبير الاقتصادي صلاح العازمي: إن هناك مؤشرات اقتصادية توضح مدى غياب ثقافة الادخار، منها تراجع نسبة المدخرين في شهادات الاستثمار، منبها إلى أن ارتفاع نسب قروض المواطنين من البنوك يعد من المؤشرات الرئيسة لغياب ثقافة الادخار، فضلا عن أن هناك بنوكا تعمل ليل نهار على تحفيز المواطنين على الاقتراض من البنوك، وتقدم في سبيل ذلك إغراءات غير عادية.

واختتم العازمي كلامه قائلا: إن غالبية من مواطني العالم العربي لا يقدرون قيم الادخار، موضحا أن شعوب الدول الأوروبية ودول جنوب شرق آسيا لديها ثقافة ادخارية عالية جدا، ولذا فإن مواطني هذه الدول لا ينفقون أموالهم إلا فيما يستحق.

ويرى أستاذ علم الاجتماع في جامعة الأزهر د. محمد العبيدي أن الدراسات الاجتماعية والسيكولوجية تشير إلى زيادة النزعة الاستهلاكية التي تنتشر في المجتمع بصورة سريعة، عندما تغيب ثقافة الادخار عن هذا المجتمع، موضحا أن السلوكيات الاجتماعية الانفلاتية ذات الشراهة الاستهلاكية تتوغل في المجتمعات بصورة أعظم عندما لا تتخذ حكومات تلك الدول أي إرشادات لمواطنيها، لتحثهم على الادخار.

وأوضح د. العبيدي أن مؤسسات المجتمع المدني عليها أن تقوم بدورها الإيجابي لمعالجة ظاهرة زيادة النزعة الاستهلاكية، مع ضرورة ترسيخ قيم الثقافة الادخارية في المجتمع.

حب القصور

ويشير أستاذ علم النفس في جامعة الكويت د. عويد المشعان إلى أن غياب ثقافة الادخار تنتشر في الكثير من المجتمعات العربية، خاصة الخليجية، نظرا لارتفاع دخل الفرد فيها عن الدول العربية الأخرى. ومع هذا فإن ثقافة الاستهلاك الترفي المبالغ فيه تنتشر في معظم المجتمعات العربية، مفيدا أن المواطن لا يكبح جماح نفسه عن شراء كافة الموديلات الحديثة، سواء في السيارات أو كافة المقتنيات الأخرى، وهو يفعل ذلك ليس حبا في اقتناء كل ما هو جديد، وإنما حبا في الظهور بالمظاهر الخداعة.

ورأى د. المشعان أن الآباء والأمهات يلعبون دورا أساسيا في غياب ثقافة الادخار وزيادة النزعة الاستهلاكية لأولادهم، عن طريق إعطاء الأولاد كل شيء دون حساب، مطالبا أولياء الأمور بضرورة تعويد أبنائهم على الادخار منذ صغرهم. فالابن الذي يدخر من أجل شراء هدية لأمه أو لوالده أو لشقيقه الأصغر، فإن هذا الابن ستنمو لديه ملكة الادخار، أما إذا تعود الأبناء على الإنفاق المبالغ فيه حسب قاعدة «اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب» فهؤلاء الأبناء لن يقدروا على الادخار في حياتهم. ومن هنا سوف يعاني هؤلاء الأبناء في كبرهم من الإفراط في الإنفاق.

دور الأم

وأشار د. المشعان إلى أن الأم عليها أن تعود أبناءها على الادخار، وأن تساعدهم في ذلك، وعليها أن تحببهم في القناعة وعدم تقليد الآخرين، متأسفا لوجود بعض الأهل الذين يزرعون سلوكيات البذخ والإسراف المبالغ فيه في نفوس الأبناء. فاذا اشترى ابن العم هاتفا حديثا فإن بعض الأمهات تتجه فورا لشراء الهاتف نفسه لأولادها بحجة واهية.

غيرة المرأة

ويرى الاستشاري في الطب النفسي د. خالد الإبراهيم أن غيرة المرأة من المرأة تلعب دورا كبيرا في غياب الثقافة الادخارية، موضحا أن المرأة إذا رأت زميلتها في العمل اشترت سيارة جديدة أو حتى عباءة فإن دوافع الغيرة تتحرك داخلها، ولذا تتجه لشراء ما هو أفخم مما اشترته زميلتها في العمل، موضحا أن هناك الكثير من الشباب والرجال أيضا الذين لا يهتمون بتوفير أي مبالغ للمستقبل، لأنهم اعتمدوا على الدولة في كل شيء، موضحا أن المواطن عندما يجد أن دولته ترعاه من المهد إلى اللحد، فما الذي يجعله يدخر، ذاكرا أن الثقافة الادخارية تزداد في المجتمعات الفقيرة بشكل أكثر من المجتمعات الميسورة، مطالبا بضرورة تعزيز السلوكيات النفسية التي تدفع الأجيال الصاعدة نحو الثقافة الادخارية بكافة الطرق. منها على سبيل المثال أن يسلط الإعلام الضوء على تعزيز الثقافة الادخارية، وأن تهتم الأسر بتربية أبنائها على ثقافة الادخار، وتقوم المدارس بدورها في تعزيز هذه الثقافة وتبتعد عن ثقافة الشره الاستهلاكي.

ترشيد الإنفاق

وشدد الأمين العام لمؤسسات المجتمع المدني عبدالرحمن الغانم على أهمية أن تقوم مؤسسات المجتمع المدني بدورها التوعوي والإرشادي، لتعزيز قيم الادخار في المجتمع، كما أكد على أهمية قيام الآباء والأمهات بتعويد أولادهم على ثقافة الادخار من أجل تأمين المستقبل، موضحا أن الدول النفطية ينبغي عليها أن تربي أجيالها على ثقافة الادخار، من خلال ترشيد الإنفاق، ومن خلال الابتعاد عن الهدر المتواصل.

ويرى المحامي ماجد بورمية أن غياب ثقافة الادخار أدت إلى دخول الكثير من الرجال والنساء والشباب السجون، نتيجة عدم تعودهم على الثقافة الادخارية، موضحا أن الإنسان عندما يشب على قيم الإفراط في الإنفاق، فإن هذا الإنسان من السهل عليه أن يورط نفسه في قروض بنكية من أجل شراء سيارة جديدة مثلا، أو يستدين من البنوك من أجل أن يستمتع بالسفر من خلال الاستدانة، مشيرا إلى أن القوانين ملزمة لأي إنسان لا يدفع مستحقات البنوك، خاصة وأن تحرير شيك بدون رصيد أصبح جناية وليس جنحة.

كل البسط

ويقول الداعية الإسلامي الشيخ أحمد الموسى: إن على الإنسان أن يلتزم بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فيما يتعلق بالادخار، لأن الإنسان إذا أنفق كل ما لديه دون أن يدخر للمستقبل فإنه سوف يلوم نفسه. والآية الكريمة في ذلك تقول ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء:٢٩). موضحا أن المواطن الذي يحب تقليد الآخرين، ويتجه لشراء أحدث السيارات وآخر صيحة في الهواتف النقالة مهما كان سعرها، دون أن يكفي راتبه كل هذا هو إنسان يهلك كل ما لديه من أموال.

مشيرا إلى أن الادخار نعمة من نعم الله، لأن الإنسان إذا كان الآن في سعة من رزقه فعليه أن يعلم أن النفس لا تدري ماذا تكسب غدا، ولذا يجب أن يدخر المسلم على قدر استطاعته، ولكن في نفس الوقت يجب أن يخرج الزكاة في مواعيدها، ويتصدق على الفقراء، وأن يستثمر ويتاجر مع الله عزوجل، مع استمراره في الادخار، محذرا في الوقت نفسه من المبالغة في الادخار لدرجة البخل على النفس وعلى الغير.

سلطة ولي الأمر في تقييد المباح (١)

التحرير

الأصل في الأنظمة التي تأتي على وفق الاحتياط للمصلحة أن تكون داخل دائرة المباح، فالمصالح المعتبرة كدليل مشروعية، ذات حدين، حد متعلق بتصرفات الإمام، وحد متعلق في المتصرف فيه، فهي من جهة أساس يستند إليه ولي الأمر في تقييد المباح، وهي من الجهة الأخرى ضابط يستند إليه ولي الأمر في عدم تجاوز ما يباح له فعله (٢).

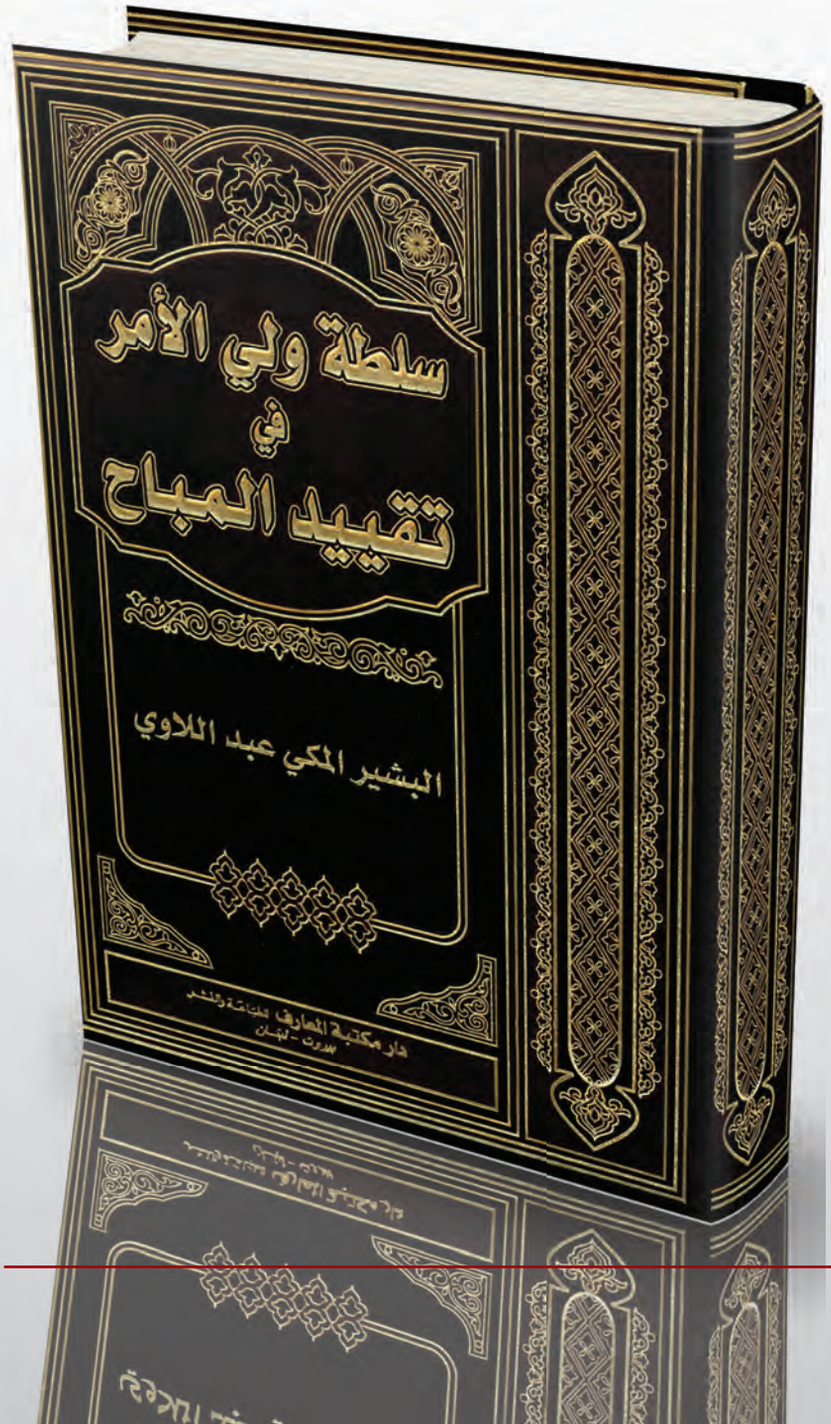

وقد عبر الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله (٣) عن تقييد المباح باصطلاحات متعددة منها: «إيقاف العمل المباح» و«منع المباح» و«تقييد المباح» و«تعطيل المباح» و«الامتناع عن المباح» وجميعها تتفق في المعنى الذي هو ترجيح أحد طرفي الإباحة؛ حيث إن المباح ليس مباحا بإطلاق؛ لأن تناوله أو الإحجام عنه تتعلق به حقوق الآخرين، ولابد من مراعاتها، مما يستوجب منع المباح تارة والأمر به تارة أخرى، بحسب ما يؤول إليه التناول أو الإحجام، بحسب الحال والمكان والزمان.

وهذا المنع أو الأمر، ليس على سبيل الدوام، فهو مؤقت باستمرار الحاجة أو الضرورة الداعية لترجيح أحد طرفي الإباحة، وهكذا فإن تقييد المباح هو ترجيح بعض الخيارات لأسباب معقولة ومؤقتة، على سبيل الأمر أو الحث، ما لم يوجد مانع شرعي من نص خاص أو قاعدة كلية أو ضابط (٤).

وبذلك يدخل في دائرة المباح تغير الأحكام بتغير الحال والمكان والزمان، وفق ضوابط التغير الشرعية، فعندما يتخلف مقصود الحكم الشرعي عنه، سواء المندوب أو الواجب أو المكروه أو المحرم، لزم ولي الأمر وهو المنوط به بحكم الولاية العامة صيانة تحقيق المقاصد الشرعية الخمسة ورعايتها،

وأعلاها حفظ الدين، بأن يتدخل بتصرف يعيد تحقيق المقصود الشرعي من الحكم.

تقييد المباح تفرضه السياسة الشرعية لا الهوى والتسلط:

وهذا التصرف من قبل ولي الأمر يعد من أمور السياسة الشرعية؛ فولي الأمر وهو يقيد الإباحة لا يقيدها بالهوى والتشهي، بل بالنظر والاحتياط المشروع والسبيل الأجود لمصلحة الرعية؛ ولذا لابد أن يلاحظ مدى مشروعية تناولها، من خلال موافقة قصد المكلف في التناول لقصد الشارع في التشريع، فإذا وافقها كان استعماله مشروعا، وإن كان على خلاف ذلك كان مطلوب الترك (٥).

وليس في ذلك أي تغيير للأحكام الشرعية، فهما خارج نطاق التخيير، ولابد من الامتثال للشرع، فتسن الأنظمة للأمر باللازم في الواجبات والحث عليها، واستحداث المرغبات لها، وعقوبة تاركها، وللأمر باللازم في ترك المحرمات والتحذير منها وعقوبة فاعلها؛ قال الشاطبي: «ومن كلامه – يقصد عمر بن عبدالعزيز – الذي عني به ويحفظه العلماء، وكان يعجب مالكا جدا، وهو أن قال: «سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفه، من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا»، وبحق ما كان يعجبهم؛ فإنه كلام مختصر، جمع أصولا حسنة من السنة» (٦).

وبناء عليه يكون حمل مقولة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله: «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، على مقتضى الأصول المضمنة في أثر عمر بن عبدالعزيز: أن سنة ولاة الأمر وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسلم، لقوله: «الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله»، وهو أصل مقرر في غير هذا الموضع، فقد جمع كلام عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أصولا حسنة وفوائد مهمة، وهو قول الشاطبي (٧).

ما هو المباح الذي يمكن تقييده؟

إلا أن هذا المباح ليس مطلقا في كل مباح، بل هو فقط فيما جعل للإمام فيه حق التصرف بالمصلحة المعتبرة، وفي كل أمر هو من اختصاصه، وضمن مسؤوليته، بحيث يباح له فعله، فيخرج بذلك جميع المباحات التي ليست من اختصاصه، ومنها على سبيل المثال خصوصيات الناس، فلا يحق للإمام أن يلزم الناس بشرب القهوة دون الشاي، أو شخصا بزواج فلانة دون علانة، أو مثل ذلك (٨). والدليل على تقييد المباح لمصلحة معتبرة من فعله ﷺ؛ حيث نهى عن ادخار لحوم الأضاحي وعلل ذلك بالدافة، وهم الأعراب الفقراء الذين يفدون على المدينة، ثم أذن في ذلك فقال ﷺ: «ألا فكلوا وتصدقوا وادخروا» (٩)، ومن فعل الصحابة منع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض الصحابة من السفر خارج المدينة (١٠)؛ فقد كان يرى جواز منع بعض الأشخاص من السفر؛ لحاجته إلى استشارتهم في الملمات والنوازل، وذلك لاحتياج الأمة لهم، وحرصه عليهم، حيث يخشى بذهابهم فقدان البديل لهم، وخاصة بعد مقتلة القراء، وكذلك لدرء بعض المفاسد التي تنتج من انتشارهم في البلاد، كظهور التعصب بين الناس للصحابي المقيم في مدينته في مقابل باقي الصحابة، مما يبث الأحزاب والفرق بين المسلمين (١١).

الفرق بين المنع من بعض أفراد المباح والمنع من جنس المباح:

وللمكلف أن يمنع نفسه من بعض أفراد المباح متى دعت الحاجة إليه، وليس له أن يمنع نفسه من جنس المباح، فإذا لم يجز ذلك للمكلف فهو من باب أولى غير جائز للإمام؛ فليس له أن يسن نظاما أو أمرا أو غير ذلك مما من شأنه أن يمنع جنس مصلحة على عموم المكلفين، بل له فقط أن يمنع الفرد من أفراد المصالح، ذلك أن جنس المصلحة متى ثبت بالدليل الشرعي؛ لم يصح منع جنسه بأي حال، فقد أخرج الإمام البخاري في «صحيحه» بسنده عن حميد بن أبي حميد الطويل أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

فلا يصح أن يأتي تقييد المباح على سبيل النسخ بإبطال حكم سابق بحكم لاحق؛ فذلك من اختصاصه ﷺ، وقد انقطع النسخ بانقطاع الوحي بوفاته ﷺ، وأما منع الفرد من أفراد المباح في حالة معينة، ولوقت معين، فجائز بضوابطه.

ومن طبيعة الأنظمة المعمول بها في كل دولة تقييد ما تدخل عليه من المباحات، وهذا التقييد معدود في أعمال السياسة الشرعية التي يقوم بها ولاة الأمر، فهي إجراء مؤقت تدعو له الضرورات أو الحاجات، من أجل المحافظة على قصد المباح إذا تعرض للنسيان أو التناسي، أو عارضتها عادات أو ممارسات تعود على المباح بالنقض، ولاسيما متى تعلق المباح بحق الآخرين؛ إذ الأصل في مشروعيته اعتبار حقوق الآخرين؛ وبزوال سبب المشروعية ترفع الإباحة (١٢)، وهو من أنواع العمل بمبدأ أن لولي الأمر تقييد المباح –عند من يقرره من أهل العلم– لمصلحة عامة لا خاصة، والمقصود اختياره أحد أفراد المباح الذي جاز فعله أو تركه أصلا، مع إلزام الناس بهذا الاختيار؛ سواء بمنعهم من فعله، أو بإلزامهم به، وهذه المباحات وإن كانت مساحة تقبل التوجيه

نحو الخير أو نحو الشر حسب إرادة المتناول لها، فإن الله عزوجل لم يرد بها إلا الخير؛ ولهذا فإن كل تصرف في المباح بما يحقق المقاصد الشرعية من جعلها مباحة يعد من مظاهر النهوض بمسؤولية خلافة (١٣) الإنسان في الأرض، ومن باب أولى خلافة الحكام على الناس.

وعلى الجملة فالمباح – كغيره من الأفعال – له أركان وشروط وموانع ولواحق تراعى؛ والترك في هذا كله كالفعل، فترك الفعل فعل؛ فكما أنه إذا تسبب الفرد للفعل كان مسؤولا عن تسببه، كذلك إذا تسبب إلى الترك كان مسؤولا عنه، فالمسؤولية تنفي الإطلاق في التصرف، وتقيد الحرية بما يؤول إليه التناول (١٤)، وعلى هذا فيجوز لولي الأمر – وقد يجب – التدخل لاتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية المباح، ومنع الضرر أو الحرج المترتب على تناوله؛ إما بمنع الناس مما يرى أن في عدم تقييد إباحته ضررا بالمجتمع، أو إيجاب ما يرى أن في الأمر به دفعا لمفسدة أو جلبا لمصلحة لعموم الناس، أو وضع طريقة مفصلة لتناول المباح، تذهب مفاسد التناول وتحول دون إساءة الاستخدام، وما يتخذه ولي الأمر من إجراءات في سبيل ذلك يكون ملزما واجب الطاعة (١٥)، فكل تقييد لمباح يحقق مصلحة عامة معتبرة، اختاره الإمام والتزمه في سن الأنظمة أو إصدار الأوامر والتعليمات وغيرها من الوسائل الإدارية؛ وجب على الأمة أن تطيعه فيه.

ومن الأمثلة على ذلك: إعادة تنظيم عمر بن عبدالعزيز رحمه الله للجانب الإجرائي في رد المظالم إلى أهلها، فرفع جميع القيود والشروط التي أضافها من سبقوه من الولاة لإثبات المظلوم لمظلمته، ثم خفف ما تبقى منها؛ بحيث يكون جانب الاحتياط باتجاه عدم تفويت مصلحة المتظلم، وذلك بالتيسير وعدم التشدد في طلب البينة القاطعة من المتظلمين، في زمن كثر فيه غشم الولاة، فكان يكتفي بأيسر من ذلك، وإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه، ولم يكلفه تحقيق البينة (١٦)، عملا بقاعدة: «إذا ضاق الأمر اتسع» (١٧)، فمتى كان الخصم أحد الجهات الحكومية أو المسؤولين فيها؛ فقد تكون بينة المتظلم من المتعذر تحصيلها، وذلك لوجودها لدى خصمه، كما هو الحال في غالب التظلمات من تصرفات أو إجراءات الجهات الحكومية والعامة، أو تلك المتعلقة بعقود الإذعان، فيتعسر على المتظلمين الحصول على البينة؛ فيضيق بهم الحال، ويقع عليهم الحرج الكبير، فبعض التراتيب الإدارية قد تؤدي إلى تعثر العمل الحكومي وامتناع المحاسبة على التقصير؛ لذا ينبغي ألا يقام نظام الحكومة على ضوابط ملتوية، يعز على القائمين بالأمر أن يقوموا به، وعلى المحاسبين أن يحاسبوا ويعينوا من جاء منه الخلل والفساد (١٨).

ولأجل ذلك، أوسع عمر على الناس بتخفيف شروط البينة الكافية لإصدار قراره في المظلمة لرفع مفسدة قطع البينة عن صاحبها، والاحتياط لحقوق الناس، ومراعاة فارق الحال بين الخصمين، وتعظيم فرص ومصلحة رد الحقوق إلى أهلها.

تقييد ولي الأمر للمباح منوط بمصلحة الرعية:

ولي الأمر الأكبر هو المخول بسن الأنظمة التي تقيد المباح، وفق ما تقتضيه أحكام الشريعة السمحة. ولكن مع ذلك يبقى موقف تحديد المساحة الحرة وتقييدها موقفا صعبا وحرجا ودقيقا على الإنسان غير المعصوم، والتريث في هذا الأمر وعدم الاستعجال فيه من الإحسان؛ لأن ما زاد عما يقتضيه الحال من درء أو رفع لمفسدة، أو من جلب لمصلحة وتكثيرها؛ يعد تجاوزا للحد المشروع، وتجاوز الحد غير مشروع، وبخاصة أن تلك الأمور يصعب على عامة الناس في أكثر أحوالهم إدراك كامل الأمر، ولا يرون سوى الجزء اليسير المتعلق بمصالحهم الشخصية، قال الفاروق رضي الله عنه لما حمى الربذة: «وايم الله إنهم – أهل الربذة – ليرون أني ظلمتهم، إنها بلادهم قاتلوا عليها في الجاهلية، وأسلموا عليها في الإسلام، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عنهم من بلادهم شبرا»، فتأكيده رضي الله عنه الكلام بالقسم مؤذن بأن لهم شبهة قوية ناتجة عن نظرة جزئية في أن الخليفة ظلمهم، وحاشاه رضي الله عنه من ذلك! والحاصل أنه قد يترتب على الحاكم تكلفة سياسية حتى في احتياطه للتوسعة على عموم المسلمين (١٩).

والحريات تتسع بمقدار اتساع الأنظمة كيفا، والإقلال منها كما، وتتسع الأنظمة وتقل كميتها بمقدار ما يجعل الناس في تناولهم للمصالح التي يحتاط لها النظام والمفاسد التي يقيدها؛ موافقة لمقاصد الشارع من التشريع، ثم بحسب نمو أسباب التمدن والشعور بالمسؤولية، وبذلك يتأكد أن تقييد المباح بالأنظمة، وما يدخل في حكمها ليس إلا تدبيرا سياسيا شرعيا مؤقتا، يحفظ المجتمع والدولة من أسباب الفرقة والضعف والانحلال (٢٠).

تقييد المباح مؤقت وليس أبديا:

والأصل التأقيت في تقييد المباح؛ لأن التقييد السلبي والإيجابي الذي يترتب على سن الأنظمة عمل اجتهادي، يهدف إلى جلب مصلحة ودفع مضرة؛ لذا فهو أمر عارض أصل الإباحة، فيزول بزوال مبرراته، أضف إلى ذلك أن كثرة تقييد المباح بتبني الإمام لأحكام اجتهادية لتصدر الأنظمة على وفقها، سيؤدي إلى تقييد الاجتهاد في المسائل الاجتهادية التي صدر فيها النظام، وفي ذلك إضعاف لفكر ونظر المعنيين بتطبيق النظام (٢١). وقد ناقش ابن القيم هذه المسألة، وبين أن التقييدات تصرفات سياسية صادرة عن الخلفاء، ساسوا بها الأمة، ثم تساءل في سبيل إثبات تعلقها بالمصالح المتغيرة، فقال: «هل هي من الشرائع الكلية التي لا تتغير بتغير الأزمنة، أم من السياسات الجزئية التابعة للمصالح فتتقيد بها زمانا ومكانا؟» (٢٢)، وقد أجاب ابن عاشور عن هذ التساؤل فبين أن ذلك

موكول لنظر المجتهد سدا وفتحا، بأن يراقبوا مدة اشتمال الفعل على عارض فساد فيمنعوه، فإذا ارتفع عارض الفساد أرجعوا الفعل إلى حكمه الأصلي (٢٣)، ويأتي كلام ابن القيم وابن عاشور مقتضيا التوسعة والموافقة لمقولة الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور»، فأما التوسيع فمن جهة دخول السياسات التي يحدثها الخلفاء في قول عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله «تحدث للناس أقضية»، ودخول الفساد في قوله «ما أحدثوا من الفجور»، وإشارة ابن القيم إلى سياسة تقييد المباح أنها من السياسات الجزئية التابعة للمصالح، فتتقيد بها زمانا ومكانا، وتصريح ابن عاشور بمراقبة مدة اشتمال الفعل للفساد العارض يأتي على سبيل الموافقة لقول عمر: «بقدر».

والأصل في الأنظمة أن تكون مؤقتة، وجواز تدخل الدولة بالمنع والإلزام مشروط بأن يكون مؤقتا في الأفعال التي الأصل فيها عدم إيجابها على الرعية، أو عدم منعهم من إتيانها، وعلى أن يكون التدخل في أحوال مخصوصة فقط (٢٤)، والتأقيت المقصود هنا لا يحدد بزمن معين، وإنما بقاء العمل بالنظام ببقاء ما يبرره وبقاء أمر ولي الأمر به، وذلك – بحساب الزمن – قد يطول وقد يقصر، والمحدد لذلك طبيعة العارض، ومن ثم يكون من المهم تحديد مدى العارض زمنا ووقتا، وهذا صراط دقيق لا غنى عنه لمن تصدى لمهمة الإفتاء، ومن باب أولى يتأكد لمن تصدر مسؤولية الحكم، وما يقتضيه ذلك من اجتهاد في سياسة أمر الناس (٢٥).

فتقييد المباح بسن الأنظمة ليس أمرا يكثر استخدامه في إطار السنة المالية الواحدة التي تعمل بها الدول اليوم، وليس من الأمور الاعتيادية؛ لذا فسن الأنظمة يعد تدبيرا سياسيا استثنائيا، استدعاه الواقع المتغير بتغير الضرورات والحاجات، وهذا يكشف عن لزوم حضور الواقع في فكر ولاة الأمر، ولزوم متابعة مدى التزام الناس في إتيان مصالحهم، وفق الأنظمة على الوجه المشروع للتصرف في المباحات، كما يكشف عن المرونة التي تتجلى في الشريعة من خلال مراعاة إلغاء النظام والعودة إلى أصل الإباحة بزوال مصلحة تقييدها (٢٦)، لكي لا تتراكم الأنظمة فتشق على الناس وتوقعهم في حرج، دون مصلحة تعود لهم أو للدولة جراء ذلك.

تقييد المباح احتياط للمصالح المعتبرة:

وبناء على ما تقدم، يكون تقييد المباح احتياطا للمصالح المعتبرة بإطلاقها وتكثيرها ومنع دخول المفاسد عليها، وهذا عند التحقيق أحد أدوات وإجراءات مراعاة تغير وسائل وطرق المصالح المعتبرة بتغير وسائلها وطرقها المعاصرة، بحيث تؤول المصالح والأنظمة المرعية إلى صيانة الشريعة، وتجديد العمل بثوابت هذا الدين الحنيف، وحمايتها بكل وسيلة مشروعة. مع التأكيد على أن تدخل الدولة إنما أبيح لإقرار الشرع له، وليس نابعا عن مجرد تصور الدولة للمصلحة العامة، أو مسايرة للرأي العام، أو غير ذلك (٢٧).

ومن الأمثلة على تغير الطريق إلى مصلحة التعليم الشرعي، ما نقل عن تغير موقف علماء الأمة من كراهية تدوين العلم الشرعي في كتب؛ لأجل سد الذريعة إلى مفسدة، وهي كما نقل الشاطبي في كتابه الاعتصام «الخوف من الاتكال على الكتب استغناء بها عن الحفظ والتحصيل، وإما على ما كان رأيا دون ما كان نقلا من كتاب أو سنة»، إلى أن قرر الشاطبي: «اتفاق الناس بعد ذلك على تدوين الجميع لما ضعف الأمر، وقل المجتهدون في التحصيل، فخافوا على الدين الدروس جملة» (٢٨)، ويمثل الخوف على انقطاع العلم جملة انقطاع الطريق إلى المصلحة، والذي ترتب عليه حدوث مفسدة واقعة، وكانت تلك مقابل سد الذريعة لأجل مفسدة متوقعة.

الهوامش

(١) مبحث مجتزأ من بحث واسع منشور بعنوان: «سياسة عمر بن عبدالعزيز في سن الأنظمة بناء على قوله: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» للدكتور عبدالعزيز بن سطام بن عبدالعزيز آل سعود.

(٢) منقول بتصرف من: سلطة ولي الأمر في تقييد المباح للدكتور البشير بن المكي عبداللاوي (ص:١٩٥).

(٣) كشف المغطى لابن عاشور (ص: ١٧٩)، والدريني، خصائص التشريع الإسلامي، (ص:٣١١).

(٤) عبداللاوي، نفس المرجع، ص ٧٨–٧٩.

(٥) عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (المرجع السابق، ص:٨١).

(٦) انظر، الاعتصام للشاطبي ١/ ١٤٤.

(٧) المرجع السابق: ١ /١٤٦–١٤٧.

(٨) ياسين بن علي، فقه تقييد المباح، مجلة الزيتونة.

(٩) صحيح مسلم.

(١٠) تاريخ الطبري ٦٧٩/٢، وانظر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ٣٠٢/٣٩.

(١١) السبيعي، إبراهيم عبدالله البديوي (٢٠٠٧م)، المنع من السفر كعقوبة تعزيرية في الشريعة الإسلامية...، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، العدد ١٧، العام ٢٠٠٧م.

(١٢) ينظر، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق ص:٨٢).

(١٣) بتصرف، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (نفس المرجع ص: ١٣٦).

(١٤) نفس المرجع، ص: ١٠٣، والشاطبي، الموافقات، ١/ ١١٦.

(١٥) ينظر: الملكية في الشريعة الإسلامية لعلي الخفيف، ص: ١٠٢–١٠٣.

(١٦) انظر: طبقات ابن سعد ٥/ ٢٥٢.

(١٧) الأشباه والنظائر للسيوطي (ص:٨٣).

(١٨) بتصرف، تدوين الدستور الإسلامي للمودودي (ص:٥٩).

(١٩) ينظر: أصول النظام الاجتماعي لابن عاشور، (ص: ١٧٧–١٧٨)، وبتصرف، عبداللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق، ص: ١٧٤).

(٢٠) ينظر، اللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (نفس المرجع، ص:٨٣)، والدريني، خصائص التشريع الإسلامي، هامش، (ص:٢٧٦)، نقلا عن أقوم المسالك، (ص:٣٠٥).

(٢١) بتصرف، التشريع وسن القوانين في الدولة الإسلامية لمحمد بن أحمد وسامي صالح (ص:٣٨).

(٢٢) ينظر، ابن القيم، الطرق الحكمية، (ص:١٨).

(٢٣) ينظر، ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (مرجع سابق، ص:١٦٣)، وينظر، اللاوي، سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، (مرجع سابق، ص: ١٥١).

(٢٤) السيادة وثبات الأحكام في النظرية السياسية الإسلامية لمحمد بن أحمد وسامي صالح (ص:٤٩).

(٢٥) ينظر: الاجتهاد وقضايا العصر، مرجع سابق، ص: ٢٨٦

(٢٦) سلطة ولي الأمر في تقييد المباح، ص:١٥٨، ١٦٠.

(٢٧) السيادة وثبات الأحكام في النظرية السياسية الإسلامية، مرجع سابق، (ص:٩٣).

(٢٨) الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٣٠.

المسلمون في أوروبا الشرقية (١-٢)

د. علاء الدين سيد أغا
باحث أكاديمي سوداني

كان العالم في العصر الأموي قسمين:
- دار حرب (البلاد غير الإسلامية)، ودار سلم، أو إسلام مع الدول الإفرنجية والدولة البيزنطية، ومع ما يظهر على هذا التقسيم من سمات الفقه والمعاملات، فإن عنصر الجهاد يضرب فيه بسبب جدّ قوي، فقد كانت الدولة الأموية تتصل بدار الحرب وأهلها اتصالا تجاريا، تتخلله حروب كثيرة، تضع أوزارها حينا، لتستمر من جديد (١)، وترمي هذه الحروب الأموية إلى تأمين الحدود مع الدول المجاورة، ولما كان هذا التأمين الحدودي نفسه يلتزم مكثا دائما بتلك الثغور، فإنه لا مشاحّة قد تمهد رباطا تحيي فيه هذه الصفوة المجاهدة الشعائر الإسلامية، مع قيامها بواجبها الدفاعي المنوط بها.
أما في العصر العباسي فقد تبدلت هذه العلاقات تبدلا استقر حلفا وصداقة بين الدولة العباسية وبين دولة الإفرنج، وبرزت هذه الصداقة والسفارة كأوضح ما تكون بين هارون الرشيد وشارلمان. وقد أورد مؤرخ شارلمان وسكرتيره eginhard «أن هدايا هارون إلى شارلمان كانت تشمل بعض المنسوجات والروائح العطرية وفيلا، وساعة مائية»، وقد ترددت هذه الهدايا بينهما مرارا فيما بين عامي (٧٩٧ - ٨٠٩).

ومن جهة أخرى فقد استقرت تلك العلاقات عداوة بين الدولة العباسية وبين الدولة الأموية في الأندلس والإمبراطورية البيزنطية.

ولم يكن هارون أول محدث لهذه العلاقات بين الدولة الإسلامية وبين الدول المسيحية، فقد كان المنصور وخلفاؤه على علاقة متينة، وكان شارل مارتل يتودد إلى الخليفة المهدي مهددا به منافسه، وعدو الطرفين إمبراطور الدولة البيزنطية.

وانشغلت الدولة العباسية ببعض الثورات والفتن، كفتنة بابك الخرّمي الذي اعتصم بجبال الشمال الشرقية عند حران سنة ٢٠١هـ، وانتهز هذه السانحة الإمبراطور البيزنطي فاستمال الخرّمية، وقدم لهم كل مساعدة، غير أن الإمبراطور البيزنطي حسب حسابه ثانية، وكفّ عن مساعدة الخرمية، وكتب إلى المأمون بالصلح والمهادنة.

وفي زمان المعتصم أقضت فتنة الخرمية كل مضجع، فنهض لها المعتصم (٢) وقضى عليها، وفي هذه الأثناء دبر إمبراطور بيزنطة غارة على مدينة بطرة وحرقها، وساق من فيها من المسلمين أسارى، يعضد ساعد بابك الخرمي، ليوهن المعتصم، ولكن هذه الأمنية تبددت أحلام نائم.

روى ابن الأثير أنه لما خرج ملك الروم، وفعل في بلاد الإسلام ما فعل، بلغ الخبر المعتصم، فلما بلغه ذلك واستعظمه وكبر لديه، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت، وهي أسيرة في أيدي الروم: «وامعتصماه» فأجابها وهو جالس على سريره: «لبيك.. بيك» ونهض من ساعته، وصاح في قصره: «النفير النفير»، ثم ركب وسار ساعتئذ إلى أنقرة في جيش لجب، فاستولى على أنقرة،

ثم اتجه إلى عمورية - وهي مدينة تيوفيلس وحجر صباه، وملعب تربه، فحاصرها المعتصم حتى أسقطها، واستخلص من كان بها أسيرا أو مستضاما، وكان ذلك في سنة ٢٢٣هـ، وكان في جند المعتصم وقادته الكبار أشناس وبغا الكبير والأفشين.

وتجدر الإشارة إلى أن العنصر التركي في العصر العباسي الأول كان قد استقل بالإدارة والجيش بسبب الفسحة التي أذن بها المعتصم لتدبيره أمر خلافته. وأتراك هذا العصر قدموا من مناطق ما وراء نهر جيحون، أو ما يعرف بإقليم تركستان (٣)، وهو الإقليم الذي دخله المسلمون في العصر الأموي، على عهد الخليفة الوليد بقيادة قتيبة بن مسلم، ثم وفدت بعد ذلك قبائل كثيرة، وتزاوجت مع أهل البلاد، واستقرت وانتشر لذلك الدين الإسلامي في هذه المناطق، لتصبح هذه البلاد محط سفارات ورحلات.

ويلاحظ أن هذه اللحمة - العربية - التركية - الإسلامية شكلت وجودا إسلاميا، تردد ذكره في كتب الرحلات والكشوف الجغرافية، التي اختصت بهذه البلاد، وعلى رأس هذه المصادر جميعا كتب الفتوح الكبرى.

ويحسن التنبيه إلى أن هؤلاء الترك المتقدم ذكرهم ليسوا بالأتراك الشراكسة أهل بلاد القوقاز، أو المنطقة المترامية بين البحر الأسود وبين بحر قزوين.

ولا هم من الأتراك السلاجقة أو المغول، فهؤلاء قبائل تركية تباين ظهورها في التاريخ، واختلفت مواطنها على خريطة الأرض.

ولا نعني بطبيعة الحال الأتراك العثمانيين (آل عثمان)، إذ لم يظهروا بعد على مسرح التاريخ.

ولما كادت أن تأذن الدولة العباسية بالغروب إبان دورها الثاني والأخير، كان العالم الإسلامي قد اتسع اتساعا كبيرا جدا، حتى إن أطرافه المترامية بعيدا عن عاصمة الخلافة جرأت عددا غير قليل من الأمراء على الاستقلال والانقطاع جملة واحدة عن مركز الخلافة، عدا عن أمور شكلية، كالدعاء للخليفة على المنبر، وسك العملة باسم الخليفة، وإرسال الجزية، وأشباه هذه الأمور. فظهرت:

- الدولة الأموية بالأندلس، وقد تنامت وطار ذكرها كل مطار، وطبقت شهرتها الآفاق زمانا ليس بالقليل، وكان قد أسسها عبدالرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبدالملك سنة (١٣٨) هـ.
- الدولة الإدريسية (١٧٢- ٣٦٣هـ).

ثم ظهرت دول استقلت استقلالا جزئيا، أو داخليا.

- دولة الأغالبة ١٨٤ - ٢٩٦هـ.
- الدولة الطاهرية ٢٠٥ - ٢٥٩هـ مؤسسها طاهر بن الحسن.
- الدولة الصفارية ٢٥٤ -٢٩٠هـ مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار، وكانت ببلاد فارس، ودامت ٣٦ سنة.
- الدولة السامانية ٢٦١ - ٣٨٩هـ مؤسسها نصر الأول بن أحمد، وكانت ببلاد ما وراء النهر وإيران.
- الدولة البويهية ٣٢٠ - ٤٤٧هـ نسبة إلى بني بويه من الديلم جنوب غرب بحر قزوين.
- الدولة السلجوقية ٤٢٩- ٧٠٠هـ نسبة إلى سلجوق بن يقلق، وينسبون إلى قبيلة كبيرة من قبائل الترك، تعرف باسم «الغز» (٤)، وهؤلاء الغز يظهر دورهم الكبير في نشر الإسلام في كثير من أصقاع البلاد الإفرنجية والآسيوية والإفريقية، فقد أورد ابن جبير (٥٨٠هـ-١١١٤م)، وابن بطوطة (٧٥٦هـ-١٣٥٥م) ذكرا للغز في رحلتيهما بحذاء البحر الأحمر في طريق حجهما للبيت الحرام.

ثم آذنت الدولة السلجوقية بالزوال لتظهر الدولة الخوارزمية، بعد أن قضت على دولة الخطائين الوثنية، واستردت ثغور ما وراء النهر، وقد تصدى ملك خوارزم شاه وابنه جلال الدين للتيار المغولي الذي اجتاح إيران كلها وبغداد سنة ٦٥٦هـ.

ويلاحظ في هذا العرض الموجز أن الوطن الإسلامي شرقه وغربه ظل صاعدا متفاعلا متسعا لجميع المسلمين.

الكشف الجغرافي والرحلات إلى شرق أوروبا: تقدم أن دور الثغور لم يكن دورا دفاعيا فحسب، بل تعدى ذلك ليصبح دورا مهما في نشر الإسلام في البلاد المجاورة للدولة الإسلامية. وما كان للجهود الجغرافية المتمثلة في تدوين البلدان وأخبارها وتقويمها، ولا للسفارات والرحلات أن تكون، لولا منافذ الثغور المطلة على البلاد المجاورة للدولة الإسلامية والدول الإفرنجية، ناهيك عن طرق ومسالك التجارة المؤمنة والمنتشرة في أرجاء العالمين بعرضها وطولها (٥)، وعلى رأس هذه الطرق والمسالك طريق الحجاج.

وباتساع الفتوح الإسلامية استوعب المسلمون تجارب ومعارف، زادت كلما انتشروا في أصقاع البلاد، وتطلب

إدارتها التعرف الدقيق عليها، لضبط شؤونها المالية والإدارية بتنظيم الإدارة والبريد والخراج، ليتقررعلى أساس ذلك قدر الجزية والخراج، ثم تولى المؤرخون من أصحاب السير والمغازي وصف هذه المدن وسكانها وأحوالهم.

وواضح أن اتساع الدولة الإسلامية في ذلك الوقت قد هيأ لها آفاق القوى مع غيرها عن طريق السفارات والبعثات، كما فتح للمسلمين أبواب معرفة عملية وعلمية، تعرفوا من خلالها على أخبار مجاوريهم وأحوالهم معرفة خلطة وتقويم رسخت للإسلام أقداما، ساحت من بعد في تلك البلاد.

ومن قديم ما يذكر في هذا الباب بعثة الخليفة الواثق (٨٤٢- ٨٤٧ هـ) لسلام الترجمان إلى بلاد الصين، ليشاهد السد الذي بناه الإسكندر في ديار يأجوج ومأجوج، ولما عاد قص على الناس أخبار وعجائب هذه الجهة، ومهما يكن دافع هذه البعثة، فإنه بيَّن الدلالة على الولوع بالكشف والمعرفة، واستقصاء الأخبار وامتحانها دون الالتفات إلى بعد الشقة، وبعد المكان (الصين).

ولعل أعلى البعثات شأنا البعثة الدينية التي بعث الخليفة المقتدر عام (٩٢١م) إلى بلاد البلغار، تلبية لطلب ملكها (٦)، قال ابن فضلان في شأن الخزر:

ولعل الخزر مدينة عظيمة على نهر أنل، وهي جانبان، وفي أحد الجانبين المسلمون، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه.

وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك يقال له «خزمة»، وهو مسلم. وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم من التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم لا ينظر في أمورهم، ولا يقضى بينهم غيره.

والظاهر من هذا النص أن الإسلام قديم عندهم، ومن خطأ القول أن بعثة المقتدر هي بداية دخول الإسلام لتلك الجهات، وبرهان ذلك ما أورده ابن فضلان نفسه متمثلا في الأسئلة الفقهية التي سأله الصقالبة «فلما اجتمعنا قال للترجمان: قل له – يعنيني –: ما يقول في مؤذنين أفرد أحدهما وثنّى الآخر، ثم صلى كل واحد منهما بقوم، أتجوز الصلاة أم لا؟ قلت: الصلاة جائزة، قال: «باختلاف، أم بإجماع؟» قلت بإجماع» قال له: ما يقول في رجل دفع إلى قوم مالا لأقوام محاصرين مستعبدين فخانوه؟ فقلت: لا يجوز، وهؤلاء قوم سوء».

وكلام ياقوت الحموي عن بلدان تلك الجهات ينبئ عن قدم الإسلام في تلك الجهات. والحق أن تجريد مادة الإسلام والمسلمين عن كتب التقويم والبلدان تحتاج إلى بحوث كبار قائمة برأسها، غير أني أتخير هنا شيئا يسيرا للتدليل على صحة ما مرّ من إشارات.

وقال أبوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري (توفي أواسط القرن السادس الهجري): الزيتون في رومه.. وفي غربي هذه المدينة بلاد أرمينية الكبرى، وقد بلغت غارات المسلمين في البحر من بلاد الأندلس إلى هذه البلاد، وكان يومئذ على الأسطول محمد بن ميمون من مدينة المرية، وغزاها من بعده من إشبيلية عيسى بن ميمون وفيها قبره، وهي التي أخذها محمد ابن ميمون عرمة، هي التي أخذها عيسى بن ميمون (٧).

«فلندة»:

«ومما يلي هذه البلاد الملف، وهم أقوام من الإفرنج... وإنما عرفوا بهذا الاسم لأنهم نسبوا إلى مدينة عندهم اسمها فلندة، وهي من أعظم بلاد الإفرنج...»

«أقلوبة»:

ومما يلي هذه المدينة على ساحل البحر في المشرق مدينة أقلوبة بشكيرة، ومدينة جنوة، وهي من أعظم مدن الروم والإفرنج، وأهل هذه المدينة هم قريش الروم، يقال عنهم أن أصلهم من العرب المتنصّرة من أولاد جبلة بن الأيهم الغساني الذي تنصّر في الشام، وهم قوم لا يشبهون الروم في خلقهم، لأن الروم الغالب عليهم الشقرة، وهؤلاء قوم سمر دعج شم العرانين، فلذلك قيل: إنهم من العرب، وهم قوم تجار في البحر (٨):

«بونيه»: (هي قاعدة مدن

لنقردية، وهي مدينة بالحجر والآجر والكلس، كبيرة جدا كثيرة الأهل، تتفجر داخلها العيون، وهي على نهر يجتمع تحتها بمقدار نصف ميل بنهر آخر، وفي هذه المدينة قصر حسن على بابه صورة فاس من نحاس متناهية العظم، بعثها من الدهر القديم ملك القسطنطينية إلى بلد لنقردية، وبهذه البلدة ثلاثمئة فقيه من المسلمين، وعندهم يتحاكم أهل لنقردية، وهم يعقدون لهم على وثائق أثريتهم وبيوتهم، وفيها من المسلمين تجار أغنياء، عددهم أزيد من أربعمئة، ولهم مبان سرية، ومتاجر قوية، ولذلك صار المتوجهون من التجار والحاج إلى رومة لابد لهم من بونيه (٩).

وعدّ ابن حوقل مدينة بالرمو من إحدى كبريات مدن الإسلام من حيث تعداد مساجدها، وقربها من مدينة قرطبة، وكان التشابه آنذاك بين المدينتين كبيرا جدا.

وأحسب أن الذي دفن هذه الحقائق الساطعة، وأجهز عليها تبديدا وطمسا الصليبية الحاقدة على الإسلام، بحيث تجد غياب هذه الفترة واضحا في أكثر المؤلفات الأوروبية، وإن مروا عليها لففوا الحقائق بقمط صغار، لا يدركها إلا من تدرب أساليبهم وطرقهم من البحث والفهم.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية إن أسماء البلدان الأوروبية القديمة قد تغير الآن عما كان عليه قديما، وظل الاسم القديم في كتب الجغرافيين العرب القدامى كما هو، دون أن يسمه استدراك أو بيان، فيما طبع حديثا بحروف المطابع، ولا غرو فإن ما بعث – طباعة – من كتب الجغرافية العربية الإسلامية كان بأيدي الأوروبيين (ياقوت) و(المكتبة الجغرافية) ستة مجلدات، وغيرها ما له مساس با لتقو يم والخرائط، وهم أول من تولى درسها، و تو جيهها ، ولا أريد هنا الإفاضة في هذا الموضوع بقدر ما أريد أن أشير إلى إهمالنا دراسة مادة الجغرافيا الإسلامية، وما استدركنا من ذلك إلا النزر اليسير.

لأن معرفة الجغرافية التاريخية الإسلامية لجهات أوروبا الشرقية في تلك العهود مما لا ينبغي إهماله في البحث، لأنها تضيء حقبة حالكة من حياة المجتمعات والشعوب الساكنة والمتحركة في تلك الأصقاع، لأن الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادي عشر كان الصقالبة أو السلاف (ESCLAVE) – غابات أوروبا– ينتشرون في الغرب، حيث تقدموا في أعقاب الهجرات الجرمانية نحو الغرب بين القرن الثالث والرابع، وتقدموا نحو نهر الألب ومنطقة السال – ألمانيا الشرقية اليوم – SAALE وجبال الألب الشرقية واليستريا ودالماسيا والبلقان، حتى جزر البيلوبونيز، إلى أن طردوا منها بعد القرن السادس، أما في الشرق فكانت حدودهم تنطبق على الغابة الكبيرة بالشمالية: أي: أعالي نهر الدنيبر، وأعالي نهر الدون، وأعالي نهر الفولجا مع بعض الطلائع في السطح، حيث كان البوليان يجاهدون الدرفليان، وكانت تنتشر خلف بلاد السلافين باتجاه نهر البلطيق الأقوام الفينية، التي يدمجها الجغرافيون العرب مع الصقالبة.

وكانت تعيش في سهوب روسيا الجنوبية والدانوب أقوام تركية منغولية كالخزر والبلغار والمجر. وكان السلافيون ينصرفون لحياة الغابات والأنهار، ويحيون حياة قوامها الصيد المائي، والصيد البري، وقطف الثمار، موزعين بين قبائل لا ترابط بينها.

وتمركزوا في القرن العاشر من

منطقتين، هما: بولونيا وبوهيميا، وابتداء من القرن الثامن أصبحت منطقة الأنهار (الفولجا والدون والدنيبر) مكان تجول الإسكندنافيين (VAREGUES). والروس الذين كانوا في القرن التاسع إمارة روسية إسكندنافية على نهر الدنيبر، وهي ثالث نقطة تبلور قومي.

وكان الإسكندنافيون يتجرون في اتجاهين: الأول نحو بحر الشمال وأوروبا الغربية - وهي محطات على الطريق المؤدي إلى إسبانيا والمغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط، ونحو بحر قزوين والمشرق الإسلامي - والثاني باتجاه البحر الأسود وبيزنطة (١٠).

أما في بلاد البلقان (التلال الوعرة المرتفعة التي تكسوها الغابات) فاسمها القديم هيموس HOEMUS وهو وصف للممرات البلقانية الكثيرة ذات الصيت في التاريخ مثل (أي بوغاز جلقواق، دمر قابو - باب الحديد).

وواضح من وصف بلاد البلقان أنها كانت مجالا حيا لتحركات التجمعات البشرية المختلفة، واختلاطها ببعضها تجاريا وثقافيا واجتماعيا، وذلك عبر هذه الممرات الكثيرة التي تشبه إلى حد كبير شبكة للمواصلات بعيدة الانتشار، شديدة الارتباط والانفصال (١١).

وأشرنا هنا إلى هذه الأقوام والبلاد، لأن هذه المناطق جميعها ستشغل دورا رائدا ومهما في تاريخ الإسلام بهذه الجهات، وستجد من بعد الدولة العثمانية (العلية) الأرض ممهدة لنشر الإسلام، وتوسيع فتوحاتها على النحو الذي سيمر.

العهد العثماني وشرق أوروبا:

تقدم أن دور الثغور الإسلامية، أو دويلات الثغور قد أوجدت علاقات مستقرة بين البلاد الإسلامية والبلاد الإفرنجية، وقد شهدت هذه الثغور والممرات الحروب الصليبية المتتالية صوب العالم الإسلامي. وهذه الحروب قد كشفت عن علاقات اجتماعية بعيدة عن روح التعصب الصليبي، وأوضحت أيضا الأخلاق السمحة التي كانت تطبع سلوك المسلمين ومعاملاتهم للمسيحيين.

وقد بين حفيد بربروسه الصليبي - الألماني الصقلي - فريد ريكو هذه العلائق منصفا المسلمين معتمدا عليهم حتى بعد هزائمهم، واسترداد المسيحيين صقلية.

وبعيد هذا القليل كان الأناضول (تركيا) قبل أن تغدو إليه قبيلة «قايي»، وكان إسلاميا قد تمهد بفضل المؤثرات التي أشرت إليها فيما تقدم من بيان، وكما كانت قبيلة «قايي» قبيلة مسلمة، فقد وجدت في الأناضول مستقرا صالحا لتكوين إمارة صغيرة تجاهد في سبيل الإسلام على الحدود السلجوقية - البيزنطية عند المنطقة المعروفة حوالي «أسكي شهر». حيث دأبت الدولة السلجوقية على تعيين بعض القواد للدفاع عن البلاد الساحلية، وعن مناطق الحدود، واشتهر هؤلاء بأمراء الحدود.

وكان الأناضول خلال القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين منطقة تناحر بين الدولة السلجوقية والإمبراطورية البيزنطية، حتى استقر أمره إسلاميا كله، وأسس عثمان إمارة إسلامية صغيرة، تولى أمرها من بعده ابنه أورخان، وهو الذي فتح بروسه (١٣٢٦م)، وجعلها عاصمته، ثم عبر المضيق إلى غالبولي، لتصبح قاعدة التوسع العثماني في البلقان (١٢).

وكان عثمان ورجاله قد تقدموا في أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى في اتجاه البحر الأسود، واستقل عثمان بالإمارة، وحسب نفسه وارثا لملك السلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وقائما بجهاد البيزنطيين، وردهم إلى غربي آسيا، ومكث هناك مجاهدا، وكان حضه على الجهاد الشيخ أودبالي، وزوّجه إحدى بناته، ولقبه بالغازي، وأوصاه أن يهب نفسه للجهاد في سبيل الله في أراضي الروم، ودخل كثير من الروم البيزنطيين الذين كانوا يسكنون هذه النواحي الإسلام، وكان في العثمانيين ميل شديد إلى التنظيم وحسن الإدارة، فأنشأوا قوات مدربة تقوم بالجهاد.

وتحولت دولة الأتراك العثمانيين إلى دولة مجاهدة، وظهرت جماعات الجهاد الإسلامية، كجماعة غازيان روم (غزاة الروم)، وهي جماعة قديمة كانت على الحدود بين دولة الإسلام ودولة الروم منذ العصر العباسي.

ثم نهضت الثقافة الإسلامية بين الأتراك العثمانيين. ويذكر كوبريلي أن جماعة الآخيان الإسلامية قد قلدت جماعات الفتوة أيام الخليفة الناصر العباسي، وكان أغنياء التجار يتبرعون بأموالهم للمحتاجين. ومهما كان من أمر هذه الجماعات فإن غلبة الروح الدينية على الدولة العثمانية في أول أمرها كان ظاهرا، ودفعت هذه الروح الدينية الأتراك إلى الفتوحات الإسلامية، فيما جاورهم من بلاد، وفي سنة ١٣٥٤م عبر الأتراك بحر إيجه، ونزلوا ساحل اليونان، وكانت بلاد البلقان مقسمة بين أملاك البندقية وبقايا

الدولة البيزنطية، وكانت مملكة الصرب التي تقع جنوبي شبه جزيرة غاليبولي (ولاشيا الصربية) مقسمة ضعيفة.

وفي سنة ١٣٦٢م دخل الأتراك إقليم تراقيا، وتوجهوا شمالا في بلاد البلغار وغربا إلى مقدونيا، وفي سنة ١٣٨٦م استولوا على صوفيا عاصمة بلغاريا، وكذلك «نيش» وفي عهد بايزيد الأول أخضعت بلاد اليونان كلها قبل نهاية ١٣٩٣م.

وبعد هذا التوسع الكبير لاحظ الأتراك العثمانيون جملة مسائل، كان أهمها إيجاد ذوي الخبرة العارفين بالإسلام والشرع، ليساعدوا في تنظيم الدولة على أساس إسلامي، ولاحظوا أيضا قلة عددهم قياسا لغيرهم، وهنا حاول الأتراك توحيد الإمارات الإسلامية الصغيرة.

وفي أيام محمد الثاني الملقب بالفاتح اتسعت حدود الدولة العثمانية جدا، وفتحت القسطنطينية في ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م، وصارت عاصمة الإمبراطورية، وفي عهد الفاتح أيضا فتحت أثينا وما حولها، وكان ذلك سنة (١٤٥٨-١٤٦٠م) وفي عام ١٤٥٩ أخضعت بلاد الصرب، وبلاد البوسنة سنة (١٤٦٣-١٤٦٤م)، واعتنق الإسلام جملة صالحة من البوسنيين، وأصبحت البلاد البلقانية وما جاورها تابعة للدولة العثمانية الإسلامية.

ونشطت الدولة العثمانية نشاطا كبيرا في تلك البلاد، ثم جاءت الحرب التركية الروسية، ومعاهدة سيفر أغسطس ١٩٢٠م، واستولت روسيا على القرم، واستمر تراجع الأتراك أمام الروس والنمساويين.

وساءت الأحوال داخل تركيا نفسها سوءا شديدا، فبرزت الرشاوى في الدوائر الحكومية، وتفشى الفساد بين الموظفين.. وفي ذلك الوقت كان التتار قد استقلوا عن بولندا، ويمموا شطرهم نحو بحر قزوين، ثم أخذ الروس كيلبورون وكيرش وينبي تامي، ومنحت الأفلاق والبغدان استقلالا ذاتيا تحت السيادة العثمانية، كذلك حصل الروس على حق رعاية رعايا السلطان من الأرثوذكس في البلاد التركية، واستولت كاترين على القرم منتصرة، ثم تحالفت مع يوسف الثاني إمبراطور النمسا، واتفقا على تقسيم تركيا، ثم اجتاح الروس خوتين وياس وأوترشاكوف، وقتلوا جميع سكانها المسلمين بأمر القائد ألكساندر سوفوروف.

هذه لمحة موجزة عن خطوات تدهور الإمبراطورية العثمانية في أوروبا الشرقية، أما الدولة العثمانية في الشرق الإسلامي فقد توفرت لها أيضا جملة مشاكل أسرعت بها نحو الغروب.

والذي يعنينا هنا الجانب الاصلاحي الذي نشدته الدولة العثمانية في آخر طور من أطوارها، ولم تدركه، وباستقراء أحوال الدولة العثمانية في هذا الطور يلاحظ سببان رئيسان:

الأول: تراخي الدولة العثمانية عن الدين الإسلامي.

الثاني: إهمال أحوال المسلمين في البلاد المفتوحة.

وأميل إلى هذين السببين كمؤشرين جوهريين لنشوء الأقليات المسلمة في شرق أوروبا، وهذان السببان يتداخلان في المشاكل المعاصرة تداخلا شديدا.

الهوامش

١- تاريخ الدولة العباسية، الشيال، دار الفكر، ص ٥٥.

٢- تاريخ الطبري، المجلد العاشر، ص ٢٤٤.

٣- تركستان، فاسيلي بارتولد، ترجمة صلاح الدين علي هاشم، الكويت.

٤- رحلة ابن جبير، بيروت، رحلة ابن بطوطة، بيروت.

٥- طرق التجارة الدولية ومحطاتها، د. نعيم زكي، مصر، الهيئة، وراجع أيضا، البسط الجيد في:

- تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ف، هايد، الهيئة، مصر.

- والعلاقات بين الشرق والغرب، عزيز سوريال، دار الثقافة، مصر.

٦- رسالة ابن فضلان، تحقيق د. الدهان، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص ٧٢.

٧- كتاب الجغرافية، لأبي عبدالله الزهري، تحقيق محمد صادق، مكتبة الثقافة، مصر، ص٧٥.

٨- نفسه، ص ٧٨.

٩- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت- لبنان، ص ١١٦.

١٠- الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي، موريس لومبارد، دار الفكر- دمشق.

وانظر حديثه عن التجارة والسلع والطرق التجارية.

١١- KANITZ :DONAU- BULGARIA UND DER NALKAN.

١٢- أصول التاريخ العثماني، أحمد عبدالرحيم، القاهرة،١٩٨٢م.

تاريخ ثقافي مشرق.. وتبادل علمي عريق

الثقافة العربية الإسلامية في شبه القارة الهندية

إعداد: تركي محمد النصر
باحث دراسات إسلامية - الكويت

شبه القارة الهندية، هي قسم كبير من القارة الآسيوية، تضم البلدان الواقعة على الصفيحة التكتونية الهندية، وهي: بنغلادش، بوتان، الهند، نيبال وباكستان. وتضم أيضا الجزر المتمركزة على الجرف القاري، وهي: سريلانكا، وجزر المالديف.

تقع شبه القارة الهندية في جنوب آسيا جنوب جبال هيمالايا وجبال الكاراكورام، وشرق جبال هندوكوش ومنطقة بلوشستان.

وتمتد جنوبا في المحيط الهندي بين بحر العرب في الجنوب الغربي وخليج البنغال. وتغطي مساحة تقدر بحوالي ٤,٤٨٠,٠٠٠ كم٢، أي: ما يعادل ١٠ في المئة فقط من القارة الآسيوية، ومع ذلك فإن أكثر من ٤٠ في المئة من سكان آسيا يعيشون فيها؛ حيث بلغ عدد سكانها حوالي: ١,٦٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، يتحدثون لغات كثيرة تفوق الألف لغة، أهمها: الهندية، أردو والبنغالية.

وتتمتع هذه البقعة من العالم بمعالم جغرافية كثيرة ومتنوعة، مثل الأنهار الجليدية والغابات المطيرة والصحارى والوديان والمراعي.

تشرفت شبه القارة الهندية بالإسلام في عهد الخلافة الراشدة، وكان لمالابار في ساحل شرق الهند، شرف السبق للتعرف على الإسلام واعتناقه حتى قبل دخول الجيوش الإسلامية.

ثم بدأ المسلمون يوجهون حملاتهم إلى شبه القارة الهندية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد أرسل واليه على البحرين وعمان، عثمان بن أبي العاص الثقفي، جيشا إلى الهند، ونزلوا في تانه، ومنها إلى بروص وديبل من ناحية السند.

وفي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فتح ربيع بن زياد الحارثي مناطق السند، وكان معه الإمام الحسن البصري، وقد أقاموا بها بضع سنوات.

وكذلك أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه الحارث بن مرة العبدي عام ٣٨هـ قائدا على الحدود الشرقية فيما يلي بلوجستان، وكانت هناك مقاومة بينهم إلا أنها انتهت بانتصار المسلمين. وفي عهد الدولة الأموية فتحت السند وما جاورها من المناطق، الحدث الذي مثل نقطة تحول في تاريخ العلاقات الهندية العربية، إذ ظهرت في السند دولة إسلامية ذات جذور ثقافية (١).

أهل الحديث

ظلت شبه القارة الهندية تنعم بالحكم الإسلامي طيلة ثمانية قرون، صارت خلالها محط أنظار العلماء، ومركزا للعلوم. ولم يخل عصر من التاريخ الإسلامي الطويل في الهند من العلماء الذين نشروا الحديث، عملا وتدريسا، فكانت نهضة عظيمة أثرت على باقي البلاد الإسلامية، فاقتدى بها غالب البلاد الإسلامية في طبع كتب الحديث والتفسير.

والجدير بالذكر أن أهل شبه القارة الهندية، منذ الفتح الإسلامي إلى أواخر القرن الرابع، كانوا عاملين بالكتاب والسنة على مذهب أهل الحديث، وقد شهد على ذلك الرحالة أبوالقاسم المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»، حين زار بلاد السند سنة ٣٧٥ هـ قائلا:

«إن مذهب أكثرهم مذهب أصحاب الحديث، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة رحمه الله.. إنهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة، وصلاح وعفة، وقد أراحهم الله من العصبية والفتنة» (٢).

ومن أشهر هؤلاء العلماء:

- الشيخ المحدث إسماعيل اللاهوري (ت ٤٤٨هـ) الذي قدم من بخارى إلى لاهور سنة ٣٩٥هـ قبل أن يفتحها المسلمون، فدعا الناس إلى الإسلام، وأسلم على يديه الآلاف، وهو من علماء القرن الخامس.

– ومن علماء القرن السادس نجد الشيخ أبا الحسن علي بن عمرو بن الحكم اللاهوري (ت ٥٢٩هـ)، صاحب الجهود العلمية العظيمة في البلاد.

– ومنهم في القرن السابع: الإمام المحدث أبوالفضل رضي الدين الحسن ابن محمد الصغاني (ت ٦٥٠هـ)، الذي كان من مشاهير محدثي الهند وأئمة اللغة العربية، وكان معروفا بعلمه وفضله، وله العديد من المؤلفات في الحديث واللغة والأدب.

– وفي القرن الثامن الهجري قدم بعض تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى شبه القارة الهندية من الشام، وقاموا بأمر الدعوة إلى الله تعالى، ونشروا علوم الشريعة، وزودوا المكتبة الإسلامية بما أتوا به من كتب الحديث من الشام ومصر، ومن أشهر هؤلاء: العلامة عبدالعزيز الأردبيلي، والعلامة عليم الدين الملتاني، والعلامة شمس الدين بن الحريري.

– وفي القرنين التاسع والعاشر، كان لتلاميذ العلامة ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، وغيره من علماء هذه الفترة، دور كبير، حيث رحل هؤلاء التلاميذ إلى بلاد الحرمين والشام وتلقوا فيها العلوم الشرعية ورجعوا إلى بلادهم لينشروا العلم فيها.

– الإمام أحمد بن عبدالأحد السهرندي (ت ١٠٣٤هـ).

– الشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي (ت ١٢٥٢هـ).

– العلامة الشيخ ولي الله الدهلوي (ت ١١٧٤هـ)، الذي كان له الأثر الكبير في نصرة العمل بالحديث على طريقة المحدثين.

– الشاه عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي (ت ١٢٣٩هـ)، الذي سار على نهج والده في نصرة العمل بالحديث ضد الجمود الفقهي.

– الشاه إسماعيل بن عبدالغني الدهلوي (ت ١٢٤٦هـ).

– العلامة حسن بن علي الحسيني الفتوجي (ت ١٢٥٣هـ).

– العلامة محمد إسحاق المهاجر المكي (ت ١٢٦٢هـ)، الذي انتهت إليه رياسة الحديث في عصره، وتخرج عليه كبار العلماء في شبه القارة الهندية، ومن أبرز تلاميذه:

– السيد نذير حسين المحدث الدهلوي (ت ١٣٢٠هـ)، رائد الدعوة في الهند.

– الشيخ المحدث عبدالغني المجددي (ت ١٢٩٦هـ)، شيخ الحنفية في الهند.

وبالجملة، فإن فضائل علماء الحديث في شبه القارة الهندية – بعد فضل الله – واضحة جلية في حفظ السنة النبوية، وقد أعطاهم العلامة محمد رشيد رضا بعض حقوقهم عندما وصفهم بقوله:

«ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر؛ لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر» (٣).

العلاقات الثقافية العربية

الروابط بين جنوب جزيرة العرب والديار الهندية عموما كثيرة، منها: إطلالة شريط ساحلي طويل من سواحل كل هذين القطرين على بحر العرب، وهو يمثل الشريط الساحلي الجنوبي للجزيرة العربية، ومن الهند الساحل الغربي.

وكانت العلاقات التجارية والفتوحات الإسلامية أشبه ببذور ألقيت في تراب شبه القارة الهندية، وقد نمت وترعرعت فيما بعد حتى أصبحت تجود بثمارها في صورة العطاء الثقافي العلمي، وما إن ظهرت الدولة العباسية حتى نشطت الحركة العلمية والثقافية، وقويت حركة الترجمة، وكان أول كتاب ترجم إلى العربية في عهد المنصور هو كتاب «السدهانت».

ونقل يحيى البرمكي في بغداد أهم الكتب الطبية السنسكريتية إلى اللغة العربية، ومنها: كتاب «أسماء عقاقير الهند»، وكتاب «سيرك»، الذي نقله عبدالله بن علي إلى العربية ويعد نواة هذه العلاقة الثقافية.

ومن الطبيعي أن يسبب هذا التفاعل نشأة اللغة العربية وتطورها في ربوع الهند، وقد كانت العربية، متداولة ومفهومة في بلاد السند والمنصورة والملتان (٤).

تلك الهجرات المتبادلة بين الطرفين أقر بفضلها كثير من الكتاب المنصفين، ومنهم الأستاذ محمود شيث خطاب، حيث وصفها في كتابه «قادة فتح السند» (ص١٤٦) بقوله: «حين ظهر الإسلام، ودخل العرب في دين الله أفواجا، كان منهم التجار والبحارة العرب.. حملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي كانوا يتعاملون معها.. وكانت الهند تئن حينئذ من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه دياناتهم، فكان التوحيد والمساواة نعمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها... فوجد الإسلام في الهند أرضا خصبة سهلة».

ونظرا للأهمية التي لهذه المنطقة في قلوب العلماء وطلاب العلم؛ قام العديد منهم بإفراد ترجمات ومؤلفات عن علمائها، ومنها كتاب الأستاذ عبدالنصير أحمد الميباري الشافعي، الذي ترجم فيه لعلماء الشافعية في الديار الهندية، وأسماه «تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية». وقال في مقدمته حاكيا عن هذه البقعة الطيبة: «تركت في ملف تاريخها الآثار الخالدة، وأريقت في أرجائها وربوعها الدماء الزكية الغالية، والتي لم تكن لتذهب هدرا، فأنجبت أبطالا، هم محاسن الدنيا وزينة الحضارة ورجال تعتز بهم الأمة شرقا وغربا، تنوعت مواهبهم، وتعددت إسهاماتهم في إثراء الحضارة الإسلامية العالمية» (٥).

تبادل علمي مع علماء نجد

لقد كانت - ومازالت - وشائج الصلة بين أهل السنة لا تعترف ببعد المسافات، ولا باختلاف الأعراف واللغات، ومن ذلك العلاقة المتميزة بين علماء نجد وإخوانهم في شبه القارة الهندية، والتي وصفها شيخ الحنابلة العلامة القاضي الشيخ عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل الحنبلي النجدي، بقوله:

«علماء السنة في الهند، وإخوانهم في نجد، جمعت بينهم العقيدة الصافية والأخذ بالتمسك بالدليل، وتعددت الوسائل العلمية والثقافية بينهم، رغم بعد المسافات وصعوبة المواصلات، فمن ذلك الرحلة في طلب العلم، لما اشتهر علماء الهند بالاشتغال في الحديث، وتميزوا في ذلك: رحل إليهم عدد من علماء نجد، منهم شيخنا علي بن ناصر أبووادي عنيزة، ومنهم شيخ مشايخنا إسحاق بن عبدالرحمن آل الشيخ، وسعد بن حمد بن عتيق؛ فرحلوا من الرياض إلى محدث عصره شيخ مشايخنا العلامة نذير حسين وغيره.

ومن بعدهم شيخنا الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي، والشيخ عبدالله بن علي بن يابس، وجماعة آخرون، أخذوا الحديث عن الشيخ المحدث أحمد الله الدهلوي.

كما أخذ عدد كبير من علماء نجد على شيخنا المحدث عبدالحق الهاشمي لما ارتحل من الهند واستقر في مكة، منهم مشايخنا: الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، والشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز، والشيخ عبدالله بن حميد، كما أخذت عنه أيضا ولله الحمد.

وفي المقابل، أخذ عدد من علماء الهند عن علماء نجد، فأخذ العلامة عبدالرحمن السهارنفوري الأنصاري عن العلامة عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ.

وأخذ العلماء محمد بشير السهسواني وعبدالجبار الغزنوي وشمس الحق العظيم آبادي وغيرهم عن شيخ شيوخنا العلامة أحمد بن إبراهيم بن

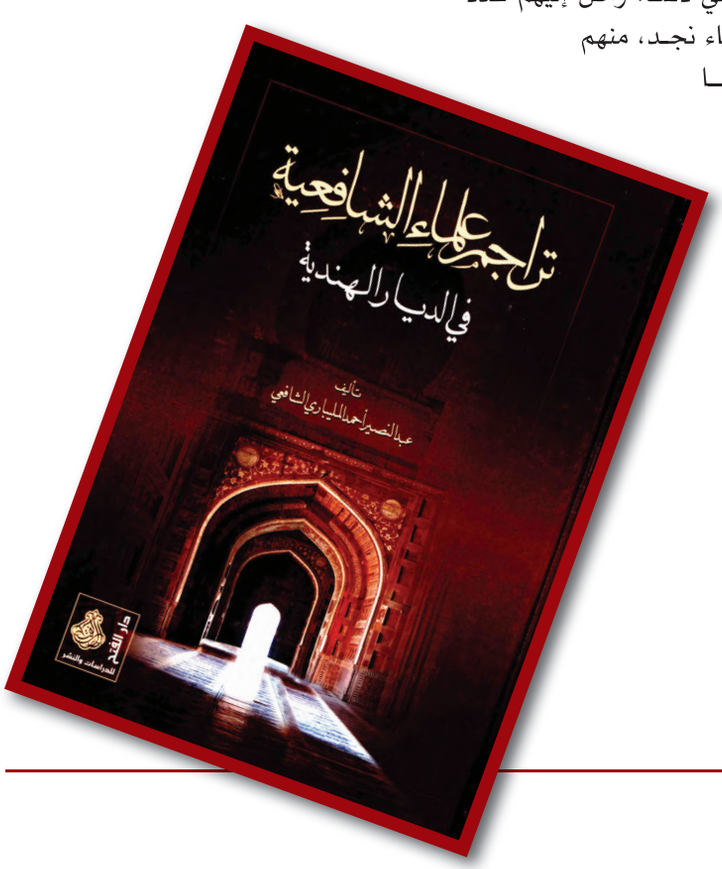

عيسى.

وفي آخر القرن الماضي رحل جماعة من أعيان مشايخ ودعاة الهند للدراسة في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، فاستفادوا من علماء المملكة، مثل الشيخ عبدالعزيز بن باز، والشيخ عبدالمحسن العباد، والشيخ حمد الأنصاري، وغيرهم.

وكان علماء أهل الحديث في الهند أول من طبع كتب أئمة الدعوة في نجد، وكثير من الكتب النجدية طبعت طبعاتها الأولى في الهند، مثل مجموعة التوحيد، وتاريخ ابن غنام، وديوان ابن سمحان، وغيرها» (٦).

ولعل من ثمرات العلاقات المتميزة التي جمعت بين علماء شبه القارة الهندية وإخوانهم في شبه الجزيرة العربية؛ المجالس الحديثية التي أقامتها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية في السنوات القليلة الماضية، وتمت خلالها قراءة عدد كبير من الكتب الحديثية وغيرها، ونقل علماء شبه القارة الهندية إسنادهم إلى خلق كثير من إخوانهم المسلمين في هذه البلاد، وقد استضافت الوزارة خلالها كوكبة من كبار العلماء المحدثين في شبه القارة الهندية، منهم:

- الشيخ المحدث أحمد بن علي السورتي الأجبوري رحمه الله.
- الشيخ المحدث ثناء الله بن عيسى خان المدني.
- الشيخ المحدث محمد إسرائيل بن محمد إبراهيم الندوي.
- الشيخ المحدث محمد الشجاع آبادي.
- الشيخ المحدث محمد بن عبدالعلي الأنصاري الأعظمي.
- الشيخ المحدث غلام الله رحمتي رحمة الله.

مساهمات العلماء (٧)

بعد فترة الاستعمار الطويلة التي عاشتها شبه القارة الهندية؛ ظهر نوعان من القيادة للمسلمين: النوع الأول هو القيادة الدينية، والثاني هو قيادة تعليمية. أما القيادة الدينية فركز أصحابها اهتمامهم على الاحتفاظ بالبقية الباقية من العاطفة الدينية ومظاهر الحياة الإسلامية، وأراد بعض زعماء القيادة الدينية أن يؤسسوا المدارس العربية الإسلامية في عدد كبير من مختلف مناطق الهند، وذلك لمواجهة التحديات الحضارية الأجنبية الغربية، ونجحوا في تأسيس أول معهد إسلامي من هذا النوع في بلدة ديوبند الصغيرة عام ١٨٦٦م، وتولى مهام إدارته محمد قاسم النانوتوي (١٨٣٢ - ١٨٧٩م)، واستهدفوا به إيجاد جيل تموج نفسه بالعواطف الإسلامية، تتغذى روحه بالثقافة والحضارة الإسلاميتين.

وبعد تأسيس دار العلوم بديوبند أنشئت معاهد عربية إسلامية في عدد كبير من مناطق شبه القارة الهندية، مثل ندوة العلماء وغيرها. وفي جميع هذه المعاهد الإسلامية يدرسون القرآن الكريم والسنة النبوية كمصدرين أساسيين للشريعة الإسلامية ويدرسون أيضا اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية والاجتماعية، القديمة منها والحديثة، وينشرون العلوم الإسلامية والأدبية، ويحتفظون بالتراث الإسلامي، ويهتمون بنشر اللغة العربية في شبه القارة الهندية.

وعندما تأسست الجامعات والمعاهد الحكومية، تم اندماج اللغة العربية في هذه الجامعات والمعاهد الحكومية، حيث يوجد في شبه القارة الهندية العشرات من الجامعات والمعاهد للتعليم العالي، حيث تدرس اللغة العربية وآدابها، وفي كل هذه الجامعات والمعاهد العليا يوجد قسم خاص للغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية. ومن هذه الجامعات يأخذ الطلبة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه في الأدب العربي واللغة العربية والدراسات الإسلامية.

وفي القرن العشرين أنجبت شبه القارة الهندية الأدباء والكتاب الذين نالوا شهرة واسعة، وتضاهي أعمالهم الأدبية أعمال الأدباء العرب الكبار، وقد تأثر هؤلاء الأدباء والكتاب بالأدب العربي الحديث وفنونه المختلفة.

ولأجل ذلك، ظل علماء المدارس الدينية حتى الآن يحتلون مكان الصدارة في مجال التأليف وإنتاج الكتب باللغة العربية، وعدد مؤلفاتهم في الموضوعات الدينية الإسلامية والفنون الأدبية يزداد يوما إثر يوم. ومن هنا، لا تزال مراكز مهمة للغة العربية والأدب

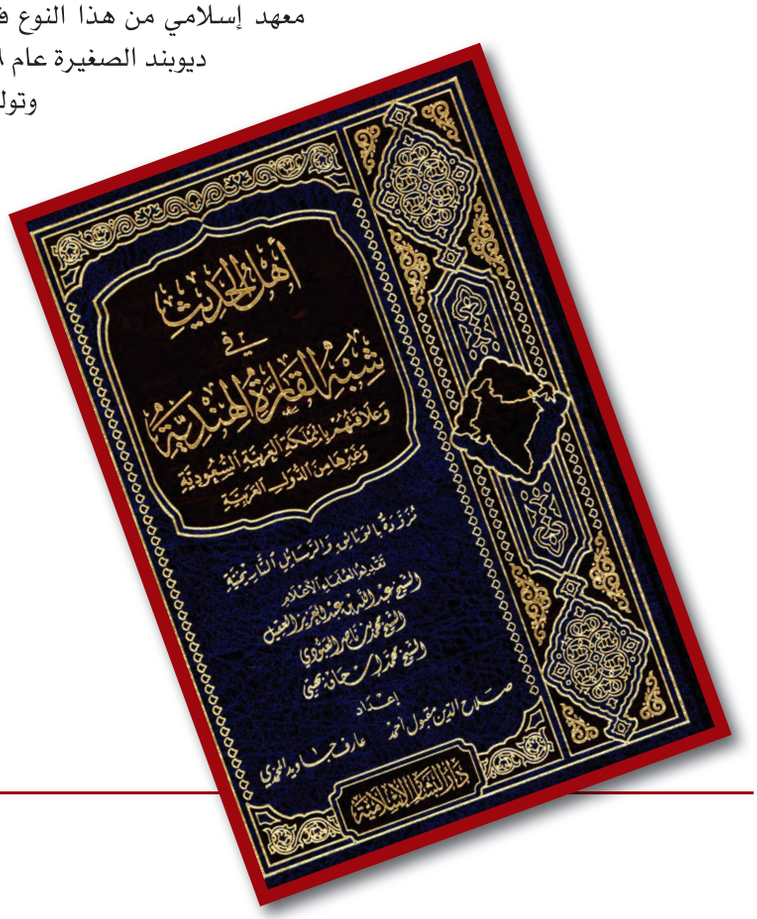

العربي ومعاقل الثقافة الإسلامية في شبه القارة الهندية قائمة تؤدي دورها على أكمل وجه.

ولعل كتاب الدكتور أحمد خان «معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية منذ دخول المطبعة إليها حتى عام ١٩٨٠م» يأتي ليبرز الكم الهائل، والتراث العظيم من المؤلفات العربية لعلماء شبه القارة الهندية، بما تحتويه من تعدد وتجدد، حيث قال المؤلف الدكتور أحمد خان في مقدمة كتابه: «إن الببليوجغرافية الممتدة على الزمن نحو قرنين ونصف قرن، وعلى بقعة الأرض الواسعة، ليس بوسع أحد أن يكملها في حياته الواحدة» (٨).

علماء عرب

وفي مقابل إسهامات علماء شبه القارة الهندية في علوم اللغة العربية، فإن العلماء العرب لهم اللمسات الواضحات في إحياء الحضارة العلمية الإسلامية في الديار الهندية، وقد سلط الدكتور محمد أبوبكر باذيب الضوء على هذا الجانب في كتابه: «إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه في الهند»، حيث قال في مقدمته: «معظم الهجرات التي ذكرت في كتب التاريخ كانت هجرات فردية. وحفلت كتب التراجم بذكر ذوي الآثار العلمية والاجتماعية التي كان لها دور بارز في النهضة العلمية في شبه القارة الهندية... وأقدم هجرة حضرمية إلى بلاد الهند في العصور الوسطية هي هجرة فرع من بيوت السادة بني علوي الحسينيين الحضارمة» (٩).

المخطوطات العربية (١٠)

لقد اعتنى علماء شبه القارة الهندية بالتراث العربي الإسلامي - كما مر آنفا - وبان ذلك واضحا من خلال خدمتهم لمخطوطاته النفيسة المتناثرة في البلاد؛ وقد كان هؤلاء العلماء يحرصون حرصا شديدا على اقتناء المخطوطات العربية، وبخاصة من مكة المكرمة والمدينة المنورة عندما يأتون إليهما حجاجا، إما بطريق الإهداء أو الشراء أو الاستكتاب.

ولذلك، نرى بعضها قد نسخ في مكة أو في المدينة المنورة، أو أن بعضها يحمل تقييد إهداء من أحد العلماء، أو أن بعضها قد نسخها نساخ من إحدى هاتين المدينتين المقدستين، أو نساخ وفدوا إلى شبه القارة الهندية من أقطار عربية وإسلامية مختلفة، فنرى فيهم البغدادي والحضرمي والشامي والمصري والبخاري والترمذي والسمرقندي. ومن هذه المخطوطات النفيسة التي جمعت بعضها مؤسسة الفرقان في مجلدين باسم «المخطوطات العربية بجامعة عليكرة الإسلامية في الهند»: منها في الأدب العربي:

- جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. المؤلف: محمد بن أبي الخطاب أبوزيد القرشي، المتوفى سنة ١٧٠هـ.
- الروضة الفائقة في الأشعار الرائقة. المؤلف: أحمد بن عبدالرحيم الشافعي (ت ١٢٩٣هـ).

ومنها في التراجم والرجال:
- أسماء رجال البخاري. المؤلف: عبدالرحمن بن أبي الخير النصربوري التتوي.
- الإكمال في أسماء الرجال. المؤلف: الخطيب التبريزي محمد ابن عبدالله (ت ٧٤١هـ).

ومنها في أصول الحديث:
- الإرشاد لمعرفة حديث خير العباد. المؤلف: يحيى بن شرف الدين النووي، المتوفى سنة ٦٧٧هـ. اسم المكتبة: جيب كنج.
- شرح البداية في علم الرواية. المؤلف: زين الدين بن علي بن أحمد الجبعي العاملي (ت ٩٦٦هـ).

ومنها في أصول الفقه:
- البدر الطالع في حل جمع الجوامع للسبكي. المؤلف: محمد ابن أحمد جلال الدين المحلي، المتوفى سنة ٨٦٤هـ.
- تصريح التوضيح. المؤلف: جلال الدين بن محمد بن عمر الكشي (ت بعد ٨٥٣هـ).

ومنها في علم التاريخ:
- الأوائل. المؤلف: الحسن بن عبدالله ابن سهل العسكري، المتوفى سنة ٣٩٥هـ.
- الوسائل إلى معرفة الأوائل. المؤلف: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ).

ومنها في علم التجويد:
- الشاطبية. المؤلف: القاسم بن فيره بن خلف الرعيني الشاطبي (ت ٥٩٠هـ).
- الحواشي الأزهرية في حل ألفاظ المقدمة الجزرية. المؤلف: خالد ابن عبدالله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهري (٩٠٥هـ).

ومنها في علم التصوف:
- إحياء علوم الدين. المؤلف: محمد بن محمد أبوحامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ).
- بستان العارفين. المؤلف: نصر ابن محمد بن أحمد السمرقندي (ت ٣٧٥هـ).

ومنها في علم التفسير:
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل. المؤلف: عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ).
- تفسير الجلالين. المؤلف: جلال الدين المحلي (ت ٨٦٤هـ)، وجلال الدين السيوطي (٩١١هـ).

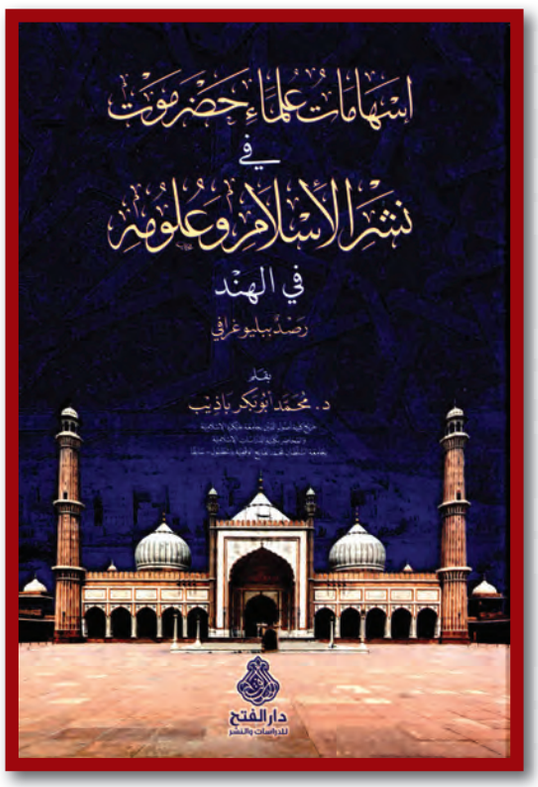

ومنها في علم التاريخ:
- عارضة الأحوذي في شرح الترمذي. المؤلف: محمد بن عبدالله المعافري بن العربي (ت ٥٤٣هـ).
- المحلى بحل أسرر الموطأ. المؤلف: سلام الله بن شيخ الإسلام بن فخر الدين الدهلوي (ت ١٢٣٣هـ).

وغيرها كثير في علم الصرف، والطب، والأخلاق، والحساب والهندسة، والمعاني والبيان، وعلوم القرآن، والفقه، والكلام، والمناظرة، والمنطق، والنحو.

الهوامش

(١) انظر: أهل الحديث في شبه القارة الهندية وعلاقتهم بالمملكة العربية السعودية (ص ٢١)، وأعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية (ص ١٣-١٤).

(٢) جهود مخلصة (ص٢٢).

(٣) مقدمة مفتاح كنوز السنة للخولي (١٦٨).

(٤) انظر: أعلام المؤلفين بالعربية في البلاد الهندية (ص١٤)، ومساهمة علماء دلهي في اللغة العربية وآدابها (ص٤٦، ٥١)، وقادة فتح السند، للأستاذ محمود شيث خطاب (ص١٤٦).

(٥) انظر: تراجم علماء الشافعية في الديار الهندية، تأليف عبدالنصير أحمد المليباري الشافعي.

(٦) انظر: تقديم العلامة العقيل لكتاب أهل الحديث في شبه القارة الهندية (ص٧).

(٧) انظر: مقال للأستاذ الدكتور عبدالمجيد عبدالعزيز.

(٨) انظر: معجم المطبوعات العربية في شبه القارة الهندية الباكستانية للدكتور أحمد خان (ص١٢).

(٩) انظر: إسهامات علماء حضرموت في نشر الإسلام وعلومه، للدكتور محمد أبوبكر باذيب (ص٣٩).

(١٠) انظر: فهرس المخطوطات العربية بجامعة عليكرة الإسلامية الهند.

المؤرخ الشيخ محمود شاكر الحرستاني في ذمة الله

(١٣٥١ - ١٤٣٦هـ - ١٩٣٢ - ٢٠١٤م)

التحرير

فقدت الأمة الإسلامية – بل العالم أجمع - شخصية من الشخصيات التي جبلت على العطاء الفكري الإنساني، وتركت بصماتها النافعة، إنه المؤرخ العلامة السوري الشيخ محمود شاكر الحرستاني – أسكنه الله فسيح جنانه - وقد فارق الحياة صباح الأحد ٢٣ نوفمبر في منزله بالعاصمة السعودية (الرياض).

هو المؤرخ الأديب، والجغرافي الأريب، والشيخ العلامة أبوأسامة محمود بن شاكر بن بكري شاكر الحرستاني الدمشقي.

مولده ونشأته وأسرته: ولد الشيخ محمود في حرستا الشام، في الشمال الشرقي لمدينة الياسمين دمشق، في شهر رمضان المبارك عام (١٣٥١هـ)، ونشأ في بيت دين وصلاح وكرم وصيانة، في ظل أسرة فلاحية بسيطة، فنشأ نشأة طيبة في مدرسة بلدته الابتدائية، ثم الإعدادية والثانوية بدمشق، وتخرج فيها عام (١٣٧١هـ)، ثم التحق بجامعة دمشق، حيث درس في كلية الآداب قسم الجغرافيا، وتخرج فيه عام (١٩٥٧م)، وحصل على الإجازة العالية في مجال الجغرافيا بأنواعها البشرية، والطبيعية، والإقليمية، في مرحلة زمنية كانت الشام تموج فيها بتيارات فكرية مختلفة، آثر الشيخ عدم الخوض والتأثر في طرقها ومسالكها.

وبعد تخرجه من الجامعة، عمل الشيخ في سلك التدريس، ثم التحق بالخدمة العسكرية الإجبارية في بلاده، وتخرج منها برتبة ملازم، وكان يخدم على الحدود مع فلسطين المحتلة، وبعد انتهائه من العسكرية، عاد الشيخ محمود إلى سلك التعليم والتدريس ثانية.

من اليمين أديب صالح ،زهير الشاويش ،يوسف القرضاوي وفي الوسط محمود شاكر

والشيخ متزوج وله تسعة من الأولاد، اثنان من البنين، وسبع بنات، وكانوا جميعا من البررة القائمين على خدمته ورعايته.

علمه ونشاطه الأكاديمي: درّس الشيخ محمود علوم الجغرافيا والتاريخ في العديد من مناطق سوريا، منها: درعا، دوما، الزبداني، دمشق، وغيرها، ثم انتقل إلى المملكة العربية السعودية عام (١٣٩٢هـ)، وعمل أستاذا للجغرافيا والتاريخ الإسلامي في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض والقصيم، وقد شارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في علمي التاريخ والجغرافيا، وأشرف خلالها وناقش العديد من الرسائل العلمية.

وكان رحمه الله، جميل العبارة، حسن الأسلوب والتعبير، حريصا على تفهيم الطالب، له قدرة على إفادة الطلاب.

صفاته وشمائله: كان الشيخ ذكيا فطنا، بليغا فصيحا، ملي المحيا بالقبول مليحا، وقورا مهيبا، متواضعا لبيبا، خيرا وقورا، صبورا شكورا، كثير تلاوة القرآن والصيام، مواظبا على التهجد والقيام، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ملازما للعلم منذ صغره، حسن السيرة، محبوبا في القلوب.

منهجه في كتابة التاريخ: يمكن تحديد ملامح منهجية الشيخ وطريقته في كتابة التاريخ بصورة موجزة على النحو الآتي:

١- اتباع طريقة علمية رصينة،

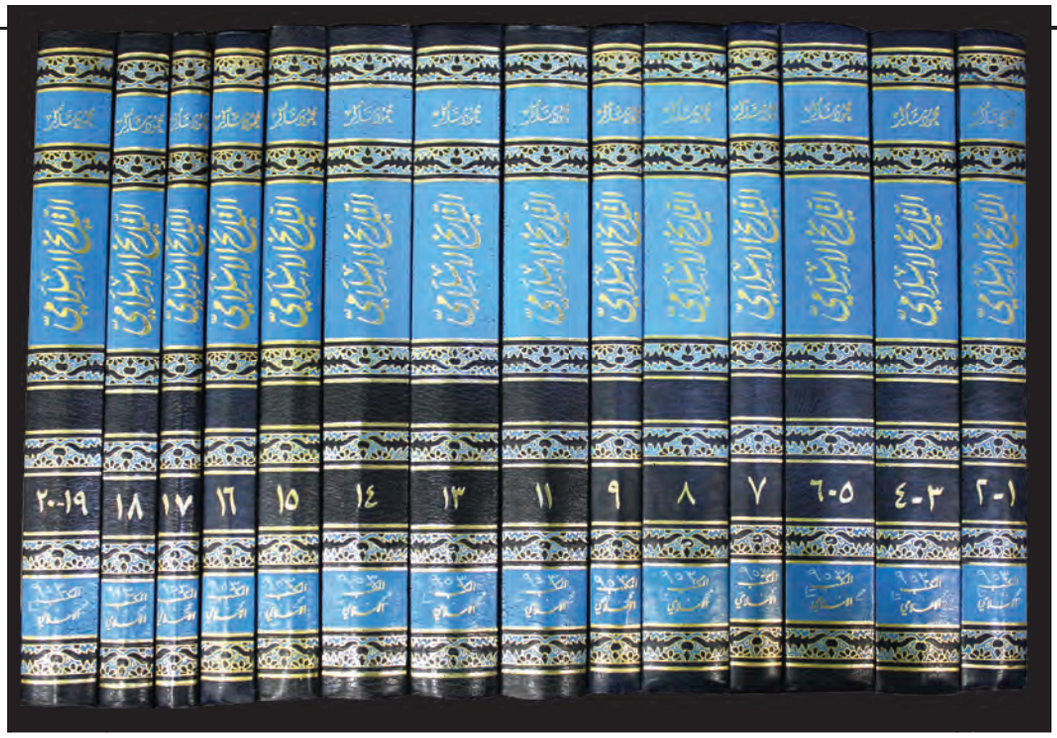

مستفيدا مما كتبه المؤرخون، مما أسس على مصادر صحيحة، مع الاستقراء والتحليل والتعليل، بعيدا عن الحشو والحشد باختيار الأحداث المهمة، والوقائع البارزة، ليرصدها ويعرضها بأحسن صورة، مع جزالة الألفاظ ودقة العبارة.

٢- التحليل والتوجيه والتعليق والمقارنة والاستنتاج: وهذه الجوانب تعد أثرا لعميق فكره، وموضوعية نظرته، وسلامة منهجه.

٣- اهتمامه بتصوير البيئات المختلفة في عصور المسلمين: وقد اهتم كثيرا بهذا الجانب، مع استلهام العبر في تلك العصور.

٤- جاءت كتاباته جامعة بين الجانب العلمي والجانب التربوي، بحيث لا يطغى أي منهما على الآخر.

٥- عنايته بالجانب الجغرافي في عرض المادة التاريخية.

٦- الإحساس بواجب الدعوة الإسلامية نحو الأمة من خلال التاريخ.

٧- مجاورة العقل والعاطفة: فلا يكون الخلط بين البحث العلمي والإيمان والعاطفة على حساب كل منهما.

٨- وضع تشجيرات خاصة بأنساب الشخصيات التاريخية البارزة، توضح أصولهم وفروعهم، يراها القارئ بكثرة في سلسلة (الخلفاء).

٩- وضع العناوين الدالة على المحتوى.

١٠- الاستشهاد بالآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، والآثار عن السلف.

مؤلفاته وتصانيفه: للشيخ محمود رحمه الله أكثر من مائتي مصنف في التاريخ والجغرافيا، والفكر والثقافة الإسلامية، طبع أكثرها في المكتب الإسلامي ببيروت، لصاحبه الشيخ زهير الشاويش - رحمه الله - منها:

١- كتاب التاريخ الإسلامي: يعد هذا الكتاب مرجعا موسوعيا مهما بين كتب التاريخ، ويقع الكتاب في ٢٢ جزءا، ١٩ مجلدا، ٦٤٠٨ صفحة.

٢- سلسلة الخلفاء: (الراشدي، والأموي، والعباسي...).

٣- تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، بالاشتراك مع د. إسماعيل ياغي، يقع الكتاب في جزأين.

٤- سلسلة بناة دولة الإسلام (١ -٧) أجزاء، كل جزء فيها عشر شخصيات في سيرة الصحابة رضي الله عنهم.

٥- حرستا بلد الزيتون، وهي رسالة التخرج من جامعة دمشق.

٦- جغرافية البيئات.

٧- البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، بالاشتراك مع: أ. محمد السيد غلاب، أ. حسن عبدالقادر صالح.

٨-الكشوف الجغرافية دوافعها - حقيقتها.

وغيرها كثير كثير، كما أن للشيخ العديد من المقالات في مجلة حضارة الإسلام، وقد كتب ذكرياته ومذكراته في كتاب سماه: «من حصاد العمر»، وأوصى بطبعه بعد وفاته، وهو عند المكتب الإسلامي، وكان - رحمه الله - قد أعد برنامجا إذاعيا في إذاعة القرآن الكريم، أطلق عليه اسم: «جغرافيا العالم الإسلامي»، وكان مفيدا نافعا.

من ثناء أهل العلم عليه: أثنى عليه وعلى مؤلفاته كثير من أهل العلم والعرفان، منهم الشيخ عبدالرحمن الباني رحمه الله بقوله: «... والأستاذ محمود من أحسن من كتب في جغرافيا العالم الإسلامي، وأفضل من كتب في التاريخ الإسلامي والأقليات الإسلامية...».

وأيضا الأستاذ الشيخ عصام العطار بقوله: «أخي الحبيب، وصديقي الوفي، الإنسان الكبير، والمؤرخ الكبير، المؤمن العالم العامل، الصابر المحتسب، الشيخ محمود شاكر..».

مرضه ووفاته: ظل الشيخ رحمه الله يعمل بنشاطه المعهود حتى أصابه المرض، وضعف في آخر عمره، وذاق من أدواء العجز والكبر غاية أمره، إلى أن توفي صبيحة يوم الأحد غرة صفر من سنة (١٤٣٦هـ)، بمدينة الرياض، وكانت جنازته مشهودة، وتأسف الناس عليه، فجزاه عما قدم خير الجزاء، ورحمه الله رحمة واسعة.

القول المأثور في إحياء الصواب المهجور (٢٩)

عبدالله أيت الأعشير
مفتش منسق جهوي لمادة اللغة العربية - المغرب

انطلاقا من عبارة «أنا الذي ألبس الأدب الفرنسي القبعة الحمراء»، التي قالها الأديب الفرنسي «فيكتور هيجو» للتأكيد على جمال عباراته، فإن وَكْدَ وسَدَمَ صاحب هذه الحلقات أن يرى الفصحى رَأيَ عَيْن اليقين؛ وهي تجري على ألسنة العرب عذبة رقراقة نقية صافية صفاء أعين الدِّيَكة، ليس فقط اقتداءً بهذا الشاعر الفرنسي الذي أدرك دور اللغة وجمالها في تقوية الفكر واستقامته، وفي إظهار مكانتها بين سائر الأمم، ولكن لأن منزلة الفصحى فوق كل هذه الاعتبارات؛ فهي لغة القرآن المعجز بألفاظه وتراكيبه ودلالاته وصوره البلاغية التي لا طاقة لأحد من العالمين الإتيان بمثلها. لأجل هذه الميزة الربانية التي لا تتوفر في سائر لغات الدنيا، فإنه من الحتم المقضي أن نظل نحن ــ العرب ـ متمسكين بالطرق اللاحبة الناهجة التي ترشدنا إلى كيفية تعلم الحفاظ على صيانة لغتنا العربية ما بقي الملوان، بل إننا مدعوُّون ــ أكثر من غيرنا ـ إلى إعمال النظر والفكر لتنقية الفصحى كما تُصَوَّلُ الحنطة، لأننا محاصرون من قبل العولمة الماحقة بكثير من المعلومات التي تحتاج إلى النخل والتصفية لتمييز غثها من سمينها، وحنطتها من زؤانها، وأن نعمل من أجل مرضاتها لأنها أمُّنا الرؤوم التي غذتنا بلِبانها الممزوجة بما أودعها فيها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف من نجوم نيرات، ودُرَر مكنونات، وجواهر لامعات، ومعارف شائقات، وبِما طرَّسَه فيها أسلافنا من علوم ومعارف وآداب مكَّنتها من بسط سلطانها على أمم الدنيا، عندما كان العقل العربي قائما على محمود الفحص والتنقيب، يلمح أسرار الوجود، ويستحضر قيمه الخالدة، التي تنفي عنه القفز المجاني في فراغات تضيع فيها قيمه، لأجل خلق أفضلية تُري الأمم الأخرى بدائع المعارف المجتباة، وعندما أدرك هذا العقل العربي أن اللغة العربية الفصحى هي أم القضايا التي تُعْقد عليها الخناصر، ولذلك بذل الأوائل المهَجَ في امتلاكها صحيحة معافاة، لإيمانهم أن الذين يُمسِّكون بالفصحى ينالون السيادة ويبلغون القوة والغلبة التي تهديهم إلى بناء أفكار تفرض سلطانها على الآخرين، كما فرض الغلام الأعرابي منطقه على الحجاج بن يوسف الثقفي، فأمر له بجائزة رغم الجراءة عليه وعلى جلسائه، كما توضح الحكاية الآتية التي تَذكر أن غلاما أعرابيا أدخل على الحجاج بن يوسف الثقفي، ومعه مَلأ من أهل العراق، فلما رمق الفتى الأعرابي المنْظرَةَ التي جلس فيها الحجاج مع جلسائه، - تلا من دون أن يعبأ بالحجاج -

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ (الشعراء:١٢٨-١٢٩). وكان الحجاج مُتَّكئا فاستوى في مقعده قائلا: يا غلام، إني أرى لك عقلا وذهنا، أحَفظتَ القرآن؟ فقال الفتى: أوَ خِفْتَ عليه حتى أحفظه؟ قال: أفَجَمَعْتَ القرآن؟ قال أو كان مُفرقًا حتى أجْمعه؟ قال: أفَأحْكمتَ القرآن؟ قال: أوليس الله أنزله مُحكما؟ قال: أفَاسْتظهَرتَ القرآن؟ قال: معاذ الله أن أجعلَ القرآنَ وراء ظهري. فقال الحجاج وقد ثار غضبا: وَيْلكَ قاتَلكَ الله.. ماذا أقول؟ قال الغلام: الوَيْلُ لكَ ولِقَومكَ، قُلْ: أوَعيتَ القرآن في صدرك؟...» (١). أما الدرس البليغ الآخر فنستفيده من الأديب والمترجم الفرنسي «جون غروجان» الذي يقول: «أحاول أن تكون لغتي فرنسية خالصة، مصفاة. هناك شيء شغلني باستمرار، هو: ما هي المعاني والظلال التي تعبر عنها مختلف التراكيب اللغوية؟ فأنا أعمل على إدراك كنه عبقرية اللغة الفرنسية والبنية الذهنية لهذه اللغة، ولب اللغة الفرنسية هذا نجده إذا ما أقصينا لغات أهل الجنوب، وأصحاب الأقدام السوداء، ولغات كل المتعلمين الذين درسوا اللاتينية في المدارس، وأولئك الذين درسوا الإنجليزية، واستعمالات الذين درسوا الفلسفة الألمانية، وأيضا مستعملي اللهجة العامية المسماة «لارغو» لغة الشارع. إذا أقصينا كل هذه اللغات، وجدنا الفرنسية» (٢). فما بالنا اليوم لا يكاد كثير من كتابنا ومتكلمينا يغادرون فضاء اللغة اليومية التي استحوذت عليهم، رغم أن النص القرآني المعجز البليغ يناديهم أن تعالوا فارتعوا في رياضي الدَّفرَة لتتعلموا أسرار البراعة التي أخرست شقاشق الأولين والآخرين، لما اشتمل عليه من الدقة والبراعة في التعبير عن المراد. تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ (سبأ:٢٤). إذ استعمل القرآن العظيم حرف الجر «على» مع الهُدى، واستعمل الحرف «في» مع الضلال، لأن صاحب الهُدى لا يكون إلا في عُلُوٍّ، وصاحب الضلال لا يكون إلا في سفالة. كما استعمل القرآن الكريم أفعال: «أقبل، أتى، جاء» بدقة متناهية لا يدرك خصوصية كل فعل من تلك الأفعال إلا من أوتي حظا عظيما من التنقير والمعرفة بأسرار الفصحى وخبيئها الذي لا تظهره على السِّيف، حيث إن: «أقبل» لا تقال إلا إذا اعترى الخوف أو الغضب المرء كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ (القصص:٣١). وفعل «أتى» لا تقال إلا للذي يأتي من بعيد أو بعد طول انتظار أو جاء، بشيء، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام:٣٤)، بينما «جاء» تستعمل للمجيء عن قرب ولا تحتاج إلى صلة، كما تؤكد الآية الآنفة وغيرها من الآيات القرآنية التي تند عن الحصر، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (النمل: ٣٦). ولهذا يعد الامتلاء والضلاعة من الفصحى والتبحر في طرائق تأليف الكلام، وكمال العرفان بخصوصية أساليب العربية من تمام شرائط المعرفة بأسرار الفصحى، حيث إن الأسماء والأفعال التي تتكون منها الجملة العربية تحتاج إلى الأدوات والحروف التي تسند لها أدوار الربط المحكم بين الكلمة وأختها حتى يستقيم المراد من الكلام، وهي الخاصية التي بدأ كثير من متكلمي العربية يفتقدونها، ومن ثمة يسهل اهتضام كلامهم بالحجة المخرسة، لأنه لم يسلم من الهجنة، على شاكلة هذه الجمل التي لم تصب فصوص المراد: سوف لن أفعل هذا الذنب. يعد هذا الأسلوب قمة في الركاكة. كرر فلان القول مرات... وغيرها من الجمل التي افتقدت الحس اللغوي الدقيق الذي يدرك البغية؛ لا يتجاوزها ولا يقصر عنها. فجملة: «سوف لن أفعل هذا الذنب». جمعت بين النقيضين. وهذا لا يجوز، لأن «سوف» تدل على الإيجاب في المستقبل، بينما «لن» تدل على النفي في الاستقبال. بالإضافة إلى أن «أفْعَل الذنب» هي الأخرى تحتاج إلى تعديل يشد أزرها؛ إذ الفعل الذي يناسب إتيان الذنب هو: «اقترف» وهذا يحذقه من كان دَرِيًا بطرق نظم الكلام البليغ؛ الذي يصدف عن الجملة الآنفة الناكبة عن سبيل الفصاحة، ليستبدل بها ما يأتي: «لن أقترف هذا الذنب» في حال النفي أو «سوف أقترف هذا الذنب» في حال الإيجاب. أما عبارة: «يعد هذا الأسلوب قمة في الركاكة» فيجب أن نستبدل بها العبارة الآتية التي تبدو أحسن منها مظهرا ومخبرا: «يعد هذا الأسلوب دركة في الركاكة» لأن الشيء الذي يجب أن يُتَّقى لا تصلح معه إلا لفظة «دركة» ولذلك قيل: الجنة درجات وجهنم دركات. وبالنسبة إلى عبارة: «كرر فلان القول مرات» فإن التكرار يقع على إعادة الشيء مرة، وعلى إعادته مرات، ولذلك لا يحسن بالمتكلم زيادة الكلام من دون حاجة. قال العسكري: «ولا يقال كرره مرات، إلا أن يقول ذلك عامي لا يعرف الكلام» (٣).

هذا هو الحق الأغر الذي ليس له رد، وهذا هو الرأي القارح الذي يشعب هذا الصدع، ولا خير في كلام يزجيه قائله قضيبا خشيبا، عاريا عن الحس اللغوي، الذي يحرص أن تكون كل لفظة مع لفقها الذي يقتضيها؛ لا ترى فيها عوجا ولا نبوا عن المكان الذي أنزلت فيه. أما الرضا بالدون من الكلام الذي جمع صنوف العي من كل جانب فتلك سبيل من يقنع من الإعجاز بالعجز، ومن السبق والتبريز بالفسكلة والتأخير. وقانا الله شر هذه العاقبة. آمين.

الهوامش

١ ـ انظر القصة كما وردت كاملة في كتاب: «من وصايا الرسول» شرح وتعليق طه عبد الله العفيفي، المجلد الأول، الجزء الخامس ، ص ٣٨، دار الاعتصام.

٢ ـ سراج الرعاة: حوارات مع كتاب عالميين، خالد النجار، كتاب الدوحة رقم ٣٣، ص ٤٩. وزارة الثقافة والفنون والتراث، دولة قطر، فبراير ٢٠١٤م.

٣ ـ الفروق اللغوية، أبوهلال العسكري، ضبط وتحقيق: حسام الدين القدسي، ص ٢٧. ١٤٠١هـ ١٩٨١م، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.

بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية:

الحرف العربي وتحديات المستقبل

إسلام لطفي - القاهرة
دار الإعلام العربية

«الحرف العربي وتحديات المستقبل» كان هذا هو عنوان الندوة التي أقامها معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وناقشت عددا من التحديات التي تواجه لغة الضاد، خصوصا في عصر استحوذت عليه وسائل التواصل الاجتماعي، واستخدامات الحاسوب، بخلاف التحدي الحضاري في اللغات المكتوبة بالحرف العربي.

«الوعي الإسلامي» شاركت في الندوة وجاءتكم بأبرز تفاصيلها.

«الحرف العربي ظل متصدرا اللغات الإفريقية، لكن تتم تنحيته في الوقت الحالي في مواجهة الحرف اللاتيني». بهذه العبارة بدأ مدير معهد المخطوطات العربية د. فيصل الحفيان، موضحا أن ذلك يتم بحكم القوة ودعاوى الاستعمار حول صعوبة اللغة العربية، لافتا إلى مخاطر طغيان الحرف اللاتيني على منظومة التواصل في العالم العربي، ومؤكدا أن إشكالية تعليم اللغة العربية نفسية في المقام الأول.

وشدد على ضرورة دراسة هذه الإشكالية وبحث أسبابها من جميع النواحي، وأخذها بعين الاعتبار في سياق برامج ومناهج تعليم العربية في المدارس والجامعات.

استنهاض الهمم

وقال شيخ البلاغيين د. محمد أبوموسى إن عيون علمائنا كانت على اللغة العربية والجيل الذي يستقبلها، فكانوا يكتبون ما شاءوا ولا ينسون تقديمه إلى الجيل الجديد في صورة تحببه في لغته، حيث كان العالم يكتب في العلم كتبا تتكرر، إلا أنه في كل كتاب زيادة تتناسب مع السن التي يخاطبها الكتاب.

ولفت إلى أن زرع اللغة بين الجيل الجديد غاية في الأهمية، مشيرا إلى أن ابن هشام كتب «قطر الندى» في النحو لسن ١٤ و١٥، وزاده إلى سن ١٧ و١٨ عاما، ثم كتب للطالب المهيأ لدخول الجامعة ثم للباحثين، وبذلك رتب كتاباته حسب السن.

وأضاف: جيلنا والجيل الذي قبلنا افتقدا هذه العناية، وتركا يستوحشان العربية وأن نحوها لا يعلمه إلا الشيوخ، وهذا غير صحيح. لذا، يجب أن تهتم المناهج الدراسية منذ الصغر باللغة العربية.

وأيد د. موسى ما ذهب إليه د. الحفيان من أن الاستعمار زرع في نفوسنا أن لغة القرآن صعبة، على عكس الحقيقة، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧)، فمن المستحيل أن يسهل الله كتابه للذكر ويصعب لغته.

وطالب باستنهاض الهمم لتعلم لغة الضاد وتسييدها في كل شؤون المجتمع، وضرورة التصدي للتغريب الذي امتزج بكل مناحي الحياة من أسماء المتاجر والمأكولات إلى شتى المعاملات اليومية والدراسية.

نصف العرب لا يتقنون لغتهم

وتحدث أستاذ علم اللغة العربية والإنجليزية بجامعة القاهرة د. صفوت علي صالح عن المدونات والمتصفحات اللغوية، مؤكدا أن معظمها لا تدعم العربية أو الخط العربي، حيث تقرأه على أنه رموز ومربعات.

ولفت إلى غرف المحادثات عبر مواقع التواصل الاجتماعي التي

قلما تجد أحدا لا يستخدمها عن طريق الهواتف أو الحواسب، والتي رصد العديد من الباحثين أضرارا نفسية لاستخدامها لما يسمى بثقافة الشاشة.

وأكد أن الخطر لا يقف عند هذا الحد، بل امتد إلى ضرب اللغة العربية في صميمها، حيث استبدال رموز أخرى بالحروف العربية، ما يعد تنازلا عن جزء من الهوية العربية.

وأوضح أن هناك إحصائية تفيد بأن أكثر من ٥٠ في المئة من سكان الوطن العربي لا يتقنون اللغة العربية، علاوة على وجود دراسة للمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية تحذر من خطر تمرد الشباب وعدم استخدام العربية.

وأكد أنه لا يدعو إلى استخدام لغة المتنبي بدلا من اللغة التي يستخدمها الشباب، إلا أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال ترك الأمر كما هو، إنما لابد من صحة تركيب العبارة.

واختتم بقوله: لا ندري ما ستكون عليه اللغة العربية إذا دام الحال على ما هو عليه بعد ٣٠ عاما!

رقمنة الخطوط العربية

وتحدث نائب مدير مركز الخطوط في مكتبة الإسكندرية أحمد منصور، عن مشروع المركز الجديد المتمثل في حوسبة الخط الأميري، وميكنة الخطوط العربية والتراثية، حيث كانت نقطة الانطلاق من خلال «رقمنة» الخط الذي استعملته أقدم المطابع المصرية، التي تأسست في عهد واليها السابق محمد علي، مطبعة بولاق، حيث سَمّوه الخط الأميري، الذي طبع به أول مصحف في الوطن العربي.

وأضاف: نعمل الآن على جمع الخطوط التراثية المنقوشة على الآثار في قاعدة بيانات، ثم رقمنتها لاستخدامها في أجهزة الحاسوب، لتناسب جميع المطابع، وبذلك تمكنا من مزاحمة الخط الحاسوبي بخطوط تراثية مأخوذة من العصور الفاطمية والمملوكية والعثمانية.

تضمنت الندوة تكريم د. نبيل علي لخدماته الجليلة في المعالجة الحاسوبية للغة العربية، باعتباره أول من صمم أول محرك بحثي للغة العربية على أساس صرفي، وأول قاعدة بيانات معجمية للغة العربية، وأول برنامج للقرآن الكريم، وأول قاعدة معارف للشعر العربي. كما طور العديد من المعالجات الآلية الأخرى للغة العربية، وصمم نموذج المعمل المتقدم لتعليم العربية وتعلمها، وغير ذلك من برمجيات تعليمية وثقافية، إضافة إلى تكريم شيخ البلاغيين فضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبوموسى.

كائن حي

بينما أكد الفنان والخطاط مصطفى عمري أن اللغة والخط العربي بحران عميقان لا نهاية لهما، لافتا إلى أن الخط كائن حي قد يفقد حياته إذا اعتمد على عالم الحاسوب، حيث يدخل أرضا ليست أرضه، فكان الأساتذة الكبار يكتبون الكتب بخط أيديهم ويفتخرون بذلك، علاوة على ما كان يفعله حفظة القرآن الكريم.

وأوضح أن الخطاطين يسمون الخط العربي بـ «الشريف»، كونه هندسة روحانية تخاطب الروح وليست مادية ملموسة، وهناك مقولة: «اكتب أعرف من أنت»، حيث تتضح شخصية الإنسان من خلال كتاباته.

وأضاف أن الخطاط يستخدم كل حواسه عندما يكتب، ولا يستمتع فنان بأعماله كما الخطاط، ولا يمكن للحاسوب مهما بلغ من التقنية أن يضاهي الحروف التي تكتب باليد.

البحث عن بدائل

أخيرا، أشار أستاذ الحاسبات والمعلومات د. نبيل علي، إلى أن اللغة وسيلة عملية لتطبيق المعرفة، لما لها من دور خطير في عصر المعلومات، مؤكدا أن اللغة العربية هي البوابة الملكية لفهم العلاقة الثقافية اللغوية وربطها بمجتمع المعرفة.

وأوضح أن النماذج الحاسوبية الموضوعة للغة العربية بدائية ولا تواكب عصر المعلومات والمعرفة، خصوصا أنه مع إشراقة كل صباح هناك ٨٥٠ مصطلحا جديدا يولد، فأي مجمع لغوي يستطيع ملاحقة هذا الكم الهائل؟ هنا يأتي الحاسوب، ليقترح لنا البدائل على أسس أعمق وأشمل، وإلا ستفرض علينا هذه المصطلحات من دون أن نفهم أسسها.

بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية:

نظرية جديدة لتعليم الفصحى

التحرير

في خطوة جديدة من نوعها تقدم الأستاذ الدكتور عبد الله الدنان بمشروع نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، وأصدر المنتدى الإسلامي بالشارقة كتيبا فيه موجز هذه النظرية، وكيفية تطبيقها. وذلك ضمن احتفالات الشارقة عاصمة للثقافة الإسلامية ٢٠١٤م. يتكون هذا البحث من ثلاثة أقسام، هي: موجز نظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، تطبيقها وتقويمها وانتشارها، ثم برنامج دورة محادثة باللغة العربية الفصحى، خاص بالمربيات في مرحلة رياض الأطفال والمدرسين والمدرسات في المراحل الابتدائية والمتوسطة والثانوية والأمهات والآباء.

وأخيرا الخطوات المقترحة لتنفيذ تطبيق نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة. يقول المؤلف في البداية: هذه النظرية عملت عليها منذ سبعة وثلاثين عاما من أجل النهوض باللغة العربية في الوطن العربي، والقضاء على الضعف العام بهذه اللغة عند الطلاب العرب، واستندت فيها إلى أحدث البحوث العلمية، التي قمت بتطبيقها، ونجحت في ذلك - ولله الحمد - نجاحا كبيرا، بشهادة المختصين من علماء اللغة، والمربين في بعض البلاد العربية.

وقد تأكد هذا النجاح بالبحث العلمي المتمثل في رسالتي للماجستير التي أعددتها حول هذه النظرية وتطبيقاتها.

الوثائق الخاصة بالنظرية

يؤكد الدكتور الدنان أنه يمكن الاطلاع على الوثائق الخاصة بالنظرية وتطبيقاتها في موقع على الفيس بوك، بعنوان «الدكتور عبدالله الدنان صاحب نظرية تعليم الفصحى بالفطرة والممارسة»، والذي يحتوي على نماذج من أقوال الصحف، ونماذج من التسجيلات لأطفال يتحدثون بالفصحى.

ويضيف الدنان: لاحظ المربون والباحثون أن هناك ضعفا عاما باللغة العربية لدى هؤلاء المتعلمين، وبدأت الشكوى من هذا الضعف تتردد على امتداد الوطن العربي، وعقدت الندوات والمؤتمرات من أجل إيجاد حل لهذا الضعف العام، الذي نتج عنه العزوف عن القراءة، والضعف في المواد الدراسية، مما أدى إلى تدني المستوى الثقافي لدى معظم أفراد الشعب العربي، وندرة المبدعين والمخترعين، كما أدى أيضا إلى وصف اللغة العربية بأنها صعبة، وهو وصف ظالم لا يستند إلى دليل علمي، مستطردا: وبما أنني متخصص في العلوم اللغوية التطبيقية، فقد عملت منذ سبعة وثلاثين عاما على تقديم الحل الناجح لمشكلة الضعف العام باللغة العربية، وبالتالي القضاء على كل السلبيات الفكرية والحضارية الناتجة عن هذا الضعف العام باللغة العربية، التي هي لغة العلم والمعرفة في البلاد العربية كلها.

ونصل الى مرحلة التطبيق العملي لنظرية تعليم اللغة العربية الفصحى بالفطرة والممارسة، حيث يكشف لنا الباحث أنه بدأ أول تطبيق عملي لهذه النظرية على ابنه «باسل» المولود في ١٩٧٧/١٠/٢٩م، فيقول: تحدثت معه بالفصحى مع تحريك أواخر الكلمات، وطلبت من زوجتي أن تحدثه بالعامية، وقد نجحت بالتجربة، وصار باسل يتحدث معي بالفصحى، يرفع وينصب ويجر دون أي خطأ، وفي الوقت نفسه كان يحدث أمه بالعامية، لأنه اكتشف قواعد اللغة العربية اكتشافا ذاتيا، كما اكتشف قواعد العامية، فأتقن اللغتين معا. ويكمل: كررت التجربة على ابنتي «لونة» المولودة ١٩٨١/٩/٢٦م فنجحت أيضا نجاحا تاما.

ويضيف: في عام ١٩٨٨م أسست في الكويت «دار الحضانة العربية»، وكانت أول منشأة تربوية في البلاد العربية والعالم تعتمد التواصل مع الأطفال بالفصحى فقط طوال اليوم المدرسي داخل الصف وخارجه، وذلك بعد أن دربت المعلمات على التحدث بالفصحى السليمة، مع المحافظة على الحركات الإعرابية، فنجحت التجربة وصار الأطفال يتحدثون مع معلماتهم بالفصحى، وكتبت الصحافة في الكويت مقالات عديدة عن هؤلاء الأطفال، ومدى إتقانهم للتحدث بالفصحى.

مركز تصحيح مفاهيم الغرب احتفل به:

اليوم العالمي للعربية

التحرير

نظم مركز تصحيح مفاهيم الغرب عن الإسلام، التابع للمسجد الكبير في دولة الكويت، وتحت رعاية منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة، ممثلة باللجنة الوطنية في الكويت، وبالتعاون مع مركز الكويت للفنون الإسلامية، احتفالية بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، كما حددته الأمم المتحدة عام ٢٠١٠م في الثامن عشر من ديسمبر من كل عام، وذلك في القاعة الغربية بالمسجد الكبير.

وقد تخللت البرنامج ورشة عمل لتعليم مبادئ اللغة العربية، قدمها مدير المركز محمد المتعب، مع تواجد الخطاط جاسم الشمري؛ ليخط أسماء الحضور بجانب معرض لوحات الخط العربي.

وقدم د. ريموند فارين أستاذ الشعر الجاهلي في الجامعة الأميركية محاضرة عن تجربته مع اللغة العربية.

الأوقات في الموروث اللغوي العربي

خلف أبو زيد
كاتب متخصص في التراث

الوقت في اللغة مقدار من الزمان، يفرض فيه أمر، والجمع أوقات. وقته فهو موقوت، إذا بين له وقتا، قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣)، أي مفروضا في الأوقات. والتوقيت تحديد الأوقات.

والوقت المعلوم يوم البعث، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ (الحجر:٣٧-٣٨).

ولو تأملنا تراثنا اللغوي، فسنجده ممتلئا بالمفردات والألفاظ التي حددت الوقت والأوقات تحديدا دقيقا متناغما مع أجزاء اليوم، بداية من بزوغ الفجر إلى آخر لحظات الليل، الأمر الذي يؤكد على ثراء لغتنا العربية، وتفردها بين اللغات الأخرى، وهذا ما سوف نتعرف عليه عبر هذه السطور.

الفجر والساعات الأولى من اليوم

بداية، يقسم اليوم إلى قسمين، هما: الليل والنهار، يتساويان في مقدار الوقت تارة، ويختلفان أخرى، تبعا لمنازل الشمس في الفلك. وكل قسم منهما ينقسم إلى عدة أجزاء، وهذه الأجزاء لها مسميات عديدة ومتباينة، نظرا لاتساع استعمال العرب للمفردة، ونبدأ بالوقت الممتد من الفجر إلى الظهيرة، لنرى المسميات التي أطلقها العرب، بداية بكلمة الفجر، التي تعني في اللغة: الصباح المتمثل بحمرة الشمس في سواد الليل. والعرب يقولون للرجل الذي يطلع عليه الفجر «مفجر»، وللذي تطلع عليه الشمس مشرق. وقد أقسم الخالق عزوجل بالفجر في محكم كتابه الكريم: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (الفجر:١-٢)؛ ليلفت النظر إلى بديع آياته وكمال قدرته. ومن الأسماء التي تطلق على وقت الفجر «الفلق». والفلق، هو: شق الشيء وفصله إلى شقين. والفلق: الصبح، لأن الظلام ينفلق منه. ويرتبط الفجر بالبكور، وهو أول النهار، ويبدو أن هذا الاسم قد جاء من حب العرب لبكور الأشياء فجعلهم يجرونه على الوقت الذي يأتي مع أول الضياء متصلا بما قبله من الليل، وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

بكرن بكورا واستحرن بسحرة
فهن لوادي الرس كاليد للفم

ومن أوقات البكور عند العرب «الغدو»، وهو أول النهار. وأيضا «الصبح»، حين يقول العرب أصبح فلان، أي دخل في الصباح. وكيف أصبحت، ويعنون الوقت من منتصف الليل إلى آخر نصف النهار، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود:٨١). ومن ساعات اليوم الأولى وقت الضحى، الذي عرف بأسماء عديدة، هي: الضحوة، والضحو، والضحية. ويقصد بهذه الأسماء ارتفاع النهار. والأصل في الضحى البروز والظهور، والعرب يقولون سرنا في غزالة الضحى، أي أوله. وفي راد الضحى، أي في ارتفاعه. وفي ذلك يقول زهير بن أبي سلمى:

وقفت بها راد الضحاء مطيتي
أسائل أعلاما ببيداء فردد

الأديم

وأديم النهار، هو: الوقت الذي يمتد فيه بياضه. وقيل أديم النهار عامته وارتفاعه.

الظهيرة

الظهيرة اسم منتصف النهار الذي تبديه الشمس لنورها وشدة حرها، والشعراء يؤقتون بها الأفعال، قال زهير بن أبي سلمى:

رد القيان جمال الحي فاحتملوا
إلى الظهيرة أمر بينهم لبك

وجاء في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ (الروم:١٨)، أي تدخلون في الظهيرة، وفيها وقت صلاة الظهر. ومن أسماء الظهيرة عند العرب «الهاجرة». والهاجرة تقترب باشتداد الشمس وحرها، ولذلك يعدون سير الهاجرة أشق أنواع السير، وفي ذلك يقول عمرو بن القميئة:

وهاجرة كأوار الجحيم
قطعت، إذا الجندب الجون قالا

وكلمة الهجر تعني انتصاف النهار، وفي ذلك يقول لبيد:

راح القطين بهجر بعدما ابتكروا
فما تواصله سلمى ولا تذر

وفي الظهيرة القيلولة، التي تعني نومة منتصف النهار. وجاء من القيلولة المقيل، وهو المكان الذي يستريح فيه القائل، قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ (الفرقان:٢٤)، ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ (الأعراف:٤)، أي نائمون بالظهيرة. كما أن القيلولة استراحة نصف النهار، وإن لم يكن معها

نوم، وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

فلو أن أهل الدار فيها كعهدنا
وجدت مقيلا عندهم ومعرسا

ومن أسماء القيلولة عند العرب أيضا «الغائرة»، والعرب يقولون أتيته عند الغائرة، أي عند القيلولة. وغور القوم، أي قالوا.

العصر أو العصران

وهو وقت النهار الذي بين القيلولة والأصيل. وأما العصران فهما الليل والنهار، والجمع عصور، ومنه سميت صلاة العصر.

وقت صلاة العصر حين يصبح ظل كل شيء مثله. ويرتبط العصر بالأصيل، وهو الوقت الذي يأتي بعد العصر مباشرة، وينتهي بابتداء الغروب، والعرب يقولون لقيته أصيلا وأصيلالا وأصيلانا، قال النابغة الذبياني:

وقفت فيها أصيلانا أسائلها
عيت جوابا وما بالربع من أحد

ووردت كلمة «أصيل» في القرآن الكريم مقترنة بكلمة بكرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان:٥). ووردت اللفظة بصيغة الجمع «آصال» في قوله تعالى: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ (الأعراف:٢٠٥)، أي أوائل النهار وأواخره. ويدخل أيضا في هذا الجزء من اليوم المساء، والذي قيل إنه يبدأ من الظهر إلى المغرب، وقيل إنه يستمر إلى منتصف الليل. وهو بهذا شركة بين الليل والنهار، وتنتهي هذه الفترة بالرواح، وهو الوقت من لدن زوال الشمس إلى الليل، قال المرقش الأصغر:

أمن رسم دار ماء عينيك يسفح
غدا من مقام أهله وتروحوا

الغروب ودخول الليل

يرتبط الغروب بغياب الشمس من جهة الغرب، والعرب يقولون تغرب الشمس غروبا ومغيربانا، وثمة مغربان: أحدهما هو أقصى ما تنتهي إليه الشمس في فصل الصيف، والآخر أقصى ما تنتهي إليه في الشتاء، وفي ذلك يقول الخالق عزوجل: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن:١٧). فالغروب مقترن بإدبار النهار وقدوم الليل، الذي يمتد من غروب الشمس إلى طلوعها، وأثناء هذا الوقت نجد العديد من المفردات التي استخدمها العرب، منها «الغسق»، وهو أول ظلمة الليل. وقد غسق الليل، أي أظلم. والغاسق: هو الليل إذا غاب الشفق، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ (الفلق:٣)، بمعنى الليل إذا دخل. ولفظة «الغسق» تدور على معنى الانصباب والسيلان، ومن انصباب الليل على الكون يجيء الظلام، تقول: أغسقت العين، أي دمعت أو نضبت أو أظلمت. وغسق الجرح، أي سال منه ماء أصفر، قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ (الإسراء:٧٨). ودلوك الشمس، أي وقت زوالها. وغسق الليل، أي إقبال ظلمته. ومن أسماء الليل «الزلفة»، وهي الطائفة من أول الليل، وجمعها زلف، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ (هود:١١٤). فالزلفة هي الساعات من أول الليل. وقيل المغرب والعشاء. ويدخل أيضا في هذا الجزء «العشي» و«العشية»، والوقت فيهما يكون آخر النهار وأول ظلمة الليل. و«العتمة» وقت صلاة العشاء، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد «العتمة الثلث الأول من الليل بعد غيبوبة الشفق». وكان الأعراب إذا أعتموا، أي إذا دخلوا في وقت العتمة، يريحون أنعامهم بعد الغروب، فإذا أفاقت، وذلك بعد مرور قطعة من الليل، أثاروها وحلبوها، وتلك الساعة تسمى «عتمة». أما نصف الليل فقد أطلق عليه العرب لفظ «الوهن»، وهو بالتحديد نصف الليل، أو بعد مرور ساعة منه، وفي ذلك يقول بشر بن أبي حازم:

ليالي تستبيك بذي غروب
يرف كأنه وهنا مدام

أما آخر الليل فهو وقت السحر، والذي يكون قبيل بزوغ الفجر. وقيل وقت يكون من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، والجمع أسحار، والعرب يقولون أسحر فلان أو استحر، أي صار في السحر، قال امرؤ القيس:

يعل به برد أنيابها
إذا طرب الطائر المستحر

قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ (القمر:٣٤)، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران:١٧). وقد خصت الأسحار بالذكر هنا، لأنها لذة النوم ووقت الغفلة، كما عبر العرب عن وقت الليل كله بلفظ البيات والمبيت والبيتوتة، وكلها تعني الدخول في الليل، حتى آخر وقت منه.

المصادر

- لسان العرب، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، الناشر دار صادر عام ٢٠٠٣م.
- الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، د. عبدالإله الصائغ، الناشر دار عصمي للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، القاهرة عام ١٩٩٦م.
- ألفاظ الزمان بين اللغة والقرآن، كاظم فتحي الراوي، مجلة كلية آداب المستنصرية، العدد الرابع عام ١٩٧٩م.
- دائرة معارف الفيصل، مجلة الفيصل السعودية، العدد ١٦١، يونيو عام ١٩٩٠م.

قد رضيت بقربه

محمد عباس
شاعر وأديب

الآن جئتك قاصدا نور الهدى
والليل يأكل مقلتي ويشتهي
أشقى بدرب كان يوما وجهتي
وفقدت فيه الروح عند توجهي
وبقيت نفسا لا تفيء لروحها
وتعيش ليلا شائها لا ينتهي
تلقى النهار فلا تراه بقلبها
والصبح يسفر لا يبين لتائه
ثم انتبهت لنور فجر قد بدا
ورأيت شمسا بالهداية تزدهي
والروح تفلت من براثن قيدها
والقلب ينبض بالحنين لربه
والنفس تشرق بالصفاء وبالهدى
فبكيت شوقا للإله وظله
وهتفت يا رحمن عبدك قد أتى
فارفق بقلب قد أقرّ بذنبه
ودعاك يا رحمن: جئتك تائبا
من لي سواك لكي ألوذ بعفوه
أنت الرحيم ومن لبابك قد سعى
يلقاه عفوك لا يضيق بسعيه
الآن جئتك ساعيا متبتلا
أرجو القبول فهل أفوز بنوْله
سبحان رب العالمين فما أرى
إلا رضاه وقد رضيت بقربه

شجرة الخير..

محمد السعيد
أديب مصري

بحديثها المتألق المتأنق، وسلوك ينبئ عن عميق الإيمان قبل أن يلوح في منطق اللسان.. أضحت حفيدته هناء هناءة خاطره وبهجة ناظره، فلديها ذائقة أدبية تجعل مسامرتهما زادا زاخرا بتحاور يثري الوجدان .. متنعما في جلستها الحنون بصوت ندي أغن، يقدمها كقدوة للجيل الجديد، وكنموذج للطموح وطيب العطاء.

لقد أبدعت في دراستها أسلوبا ذكيا، حيث تسجل ما يعن لها من كلمات ومعادلات وقوانين تحتاج إلى الحفظ، نسقتها في قصاصات.. ترددها مترنمة في غدوها ورواحها، وقد كانت المسافة طويلة بين مسكنها والمدرسة بما يوفر وقتا للمواد العملية، مما مكنها من حصولها على أعلى الدرجات في شهادة الثانوية العامة والتحاقها بكلية الصيدلة.

في زيارة جدها لتهنئتها أسعدته رؤيتها وهي تؤم زائرات لها في الصلاة، فقد عاين وضاءة روحها في وهج لا مثيل له بين قريناتها.

أقبل عليها مهنئا بالنجاح الباهر، مبشرا بمستقبل زاهر، يسائلها عن طموحها فتجيب إجابة من تبينت مسيرها ومصيرها: أن تحصل - بتوفيق الله - على أعلى شهادة بمجال الترقي في تصنيع الدواء.

ويعاود مداعبتها بسؤال عن طموحها الاجتماعي، فتناغيه برفيف حديث جد رهيف، ودلال فواح معطار: أرجو الله أن يرزقني قرينا يهب الوصال قداسته، وقافا عند حدود الله.

يرشف وجدان جدها من حديثها.. أن كل ذرة في كيانها تتوهج بأشواق الحياة، ولكنها الأشواق المحصنة بالطهر والنقاء. ويمتد التحاور بينهما: هل ستقومين بعمل قصاصات لما يستحق الحفظ من مواد الكلية، كما في مرحلة الثانوية؟

فتجيب إجابة لم تكن في الحسبان، بأمتع عبارة في أنصع بيان: بعد أن أصبحت في المرحلة الجامعية.. فثراء حياتي يا جدي أن ألج رياض القرآن.. بستان الروح، ضياء الوجدان، وسأعطر وقتي ذهابا وإيابا بذكر الله، معقبة بقول الرحيم الرحمن: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ﴾ (العنكبوت:٦٤).

يرهف السمع منبهرا، تصافح

جوانحه تلك الومضة الإيمانية في شوق عارم، ويعقب بقول المبدئ المعيد: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ (الحج:٢٤).

بارك الله فيك ولك وعليك، فقد أضحت تلك الإجابة الميمونة نقشا فوق ذاكرته.. تصافح جوانحه بما ينبئ عن ميلاد واعد بعنقود عبقرية وعطر ونبوغ ومنظومة إبداع.. حقا حقا يا هنائي.. فإنه إذا اطمأن القلب بذكر الله استنار العقل ذكاء وتوهجت الإرادة نماء وعطاء.. فكلما سنحت فرصة فراغ يشرق طيفك ملاكا بشدوك السماوي المعطر، منيرا بحديثك الأنور «ولذكر الله أكبر».. فيلهج قلبه بذكر الله. وحينما تنفلت منه قواعد الانضباط ويصير نهجا للهواجس، يقتحم عليها عزلتها لتهدي إليه من أمارات البشر والإيناس، بخواطر تمس لباب اليقين، عبر حديثها الرائع عذب المعين.

لقد اختطت مسيرها في طريق ذي ثلاث شعب: ذكر الله، وتقديس العلم، وعشق الأدب.. وكم لها من مواقف حياتية اجتماعية تمارس حيالها ثقافة سلوكية هي أهدى سبيلا وأقوم قيلا، بيقين راسخ.. أن حسن التودد إلى الناس نصف العقل.

في ليل شديد الحلكة انتفض جيرانها على دوي صراخ وقت السحر ينبعث من بيت قريب، حيث أحرق أخ شقي لأخيه - وهو أحد جيرانها - حظيرة مواشيه ومحاصيله الزراعية بالحقل.. هب الجيران، وبين صراخ النسوة والشهقات ونشيج الأنفاس، انتحت هناء بالأسرة المصابة في منأى عن الضوضاء والغوغائية الرعناء.. تذكرهم بقول الغفور الشكور: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ (الشورى:٤٣).

ولما أذن لصلاة الفجر، قامت تحث الجميع على الصلاة، مذكرة إياهم أن ركعتي سنة الفجر خير من الدنيا وما فيها، وتؤمهم للصلاة، تتلو آيات تحث على الصبر وكظم الغيظ، فالقرآن كصيدلية فيها دواء لكل داء. وعلى الرغم من فداحة الفجيعة فإنها استطاعت بالحكمة والموعظة الحسنة أن تغالب هدير التوتر، وتهدئ من نوازع الانتقام تجاه هذا الشرير الذي كان لنشأته الطفولية الكئيبة في بيته وبيئته بالغ الأثر في أن امتلأ قلبه حقدا على الحياة والأحياء، خصوصا على أخيه، الذي باركه الله، حيث تفوق أحد أبنائه (عصام) وحصل على الدكتوراه من أميركا، في حين فشل كل أبناء هذا الشقي، علميا وعمليا، وانحرفوا أخلاقيا. ويشاء الله أن ينتهي المطاف به بعد إحباطه ومعاناته من عقدة الشعور بالذنب، إلى نوع من المرض النفسي أصابه بالذهول لكل ما ومن حوله.. لم يسمع نفير عربة الشحن المتحشرج فتصدمه، وفي لحظة تخمد أنفاسه.

تصاب زوجة هذا الجار بجلطة قلبية جراء فجائية ومأساوية كارثة الحريق، كانت تلتمس وجود هناء، حيث أضحت ملاذ اطمئنان للجميع، لترطب لهيب الفاجعة في قلبها.. تهل عليها بابتسامتها الندية لتدفن أحزانها الخفية، ذاكرة لها «أن الصبر ضياء» كما يقول رسولنا ﷺ. وكيف يكون المرض حالة لا نستطيع إلا أن نتقبلها راضين بقضاء الله، الذي يختبر عباده تارة بالمسرات.. ليشكروا، وتارة بالمضرات.. ليصبروا، فصارت المنحة والمحنة كلتاهما ابتلاء، وتعقب بكلمات تسطع يقينا.. إننا أمة الحمادين، وإن عطاء الله بلا حدود، وكرمه فوق ما يجنح إليه أقصى خيال من فضل وجود.

تواصل هناء تفوقها، وتنهي أطروحة الماجستير بأعلى تقدير، وتتهيأ لدراسة الدكتوراه في تلك السن الباكرة.. كانت تقبض مكافآت التفوق المالية، وأول ما يخطر على بالها صلات الأرحام والتصدق على الفقراء والأيتام، تحدوها بصيرة تكلل طيب العطاء في الوقت المناسب، بالكم المناسب، وبالكيف المناسب.

علم الابن عصام، الطبيب في أميركا، بحادثة عمه الشرير، وما أصاب أمه من مرض خطير، فانتهزها فرصة بطلب اختيار عروس له لإدخال السرور على قلبها، وهي المترقبة لحظة فرح تنتزعها من قاع أحزانها.

يقع اختيار الأسرة على أعقل وأنبل وأجمل عروس.. إنها هناء، فتتماثل الأم للشفاء، وتغمر الأب أصداء فرحة وشته ثوب العافية. ويحضر الابن عصام من أميركا وتتم مراسم الخطوبة.

في أول زيارة لهناء.. يفاجأ بطلعتها كانبثاق الضياء، وقد تدرج وجهها بحمرة الحياء القانية، فتقبلها بجماع حنوه.

في الزيارة التالية يهديها - تعبيرا عن عميق افتتانه بها، قبيل عقد القران - عقدا نضيدا رائعا، طوق أحاسيسها كما طوق جيدها بحسن زاهر أروع. واتفق على اصطحابها معه إلى أميركا لتجد مجالا أرحب لتحقيق طموحاتها العلمية.. ثم يسرع بعقد القران، بعد أن استحوذت على قلبه بتقدير «انسجام» مع مرتبة «الشوق» المغرد بالحنايا!.

الذخيرة للقرافي

التحرير

كتاب «الذخيرة» للقرافي المالكي، كتاب مبتكر في الفقه المالكي، فروعه وأصوله، بدع من مؤلفات عصره، التي هي في الأعم اختصارات، أو شروح وتعليقات، وهو من أهم المصنفات في الفقه المالكي خلال القرن السابع الهجري، وآخر الأمهات في هذا المذهب، إذ لا نجد لكبار فقهاء المالكية المغاربة والمشارقة الذين عاصروا القرافي أو جاءوا بعده سوى مختصرات لم تهد أكثرها - على ما أدركت من شهرة وانتشار - أن كرست، عن غير قصد، تعقيد الفقه، وإفراغه من محتواه النظري الخصب، وأدلته الاجتهادية الحية، ليصبح في النهاية مجرد حك ألفاظ، ونقاش بارد يدور في حلقة مفرغة لا تنتج ولا تفيد.

وإذا كان المذهب المالكي تركز أكثر في الجناح الغربي من العالم الإسلامي، فإنه قطع أشواطا متميزة قبل أن يصل إلى تعقيدات عصر القرافي، فقد كانت القيروان بالنسبة لهذا الجناح الغربي منطلق إشراق الفقه المالكي وأفوله معا، ففيها نشر أسد ابن الفرات (ت/ ٢١٣هـ) المدونة الأولى التي حوت سماعاته من مالك وغيره، وهي المعروفة بالأسدية، فأخذها سحنون عبدالسلام بن سعيد (ت/ ٢٤٠هـ)، وصححها على ابن القاسم، ورجع إلى القيروان بالمدونة الكبرى التي نسخت الأسدية، وجمعت ستا وثلاثين ألف مسألة، فانتشرت في أقطار المغرب والأندلس، وظلت ركيزة المذهب المالكي، ومرجع فقهائه طوال القرون الأولى.

وفي القيروان لاحظ أبومحمد عبدالله ابن أبي زيد القيرواني (ت/ ٣٨٦هـ) كسل الهمم عن إدراك مدونة سحنون، فاختصرها في «اختصار المدونة»، فحلّ الاختصار محل الأصل وأخمد ذكره، ثم اختصر أبوالقاسم البراذعي مختصر شيخه القيرواني، وسماه «التهذيب»، ثم جاء أبوعمرو بن الحاجب (ت/ ٦٤٦هـ) واختصر التهذيب، فزاده تعقيدا، وطم السيل مع خليل بن إسحاق (ت/ ٧٤٩هـ) الذي اختصر كتاب ابن الحاجب، فأصبح مختصر خليل هو المختصر الرابع في مسلسل مختصرات المدونة، وهو عبارة عن رموز لا تفهم إلا بشق النفس، يحفظه الطلاب عن ظهر قلب، ويقرأ أحزابا في جامع القرويين وغيره، ولا تفك رموزه إلا بالرجوع إلى عدة شروح وحواش وتعليقات.

وقد اعتمد القرافي في «الذخيرة» على نحو أربعين من تصانيف المذهب المالكي، وخص خمسة منها كمصادر أساسية يرجع إليها دائما، ويقارن بينها ويناقش، وكلها كتب مستقلة مبتكرة أصيلة، وهي: مدونة سحنون، والتفريع لعبيدالله بن الجلاب البصري (ت/ ٣٦٨هـ)، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، والتلقين للقاضي عبدالوهاب البغدادي (ت/ ٤٢٢هـ)، والجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة لعبدالله بن شاس المصري (ت/ ٦١٠هـ).

وتميز «كتاب الذخيرة» بدقة التعبير، وسعة الأفق، وسلاسة الأسلوب، وجودة التقسيم والتبويب، الأمر الذي يضفي عليه من جهة أخرى طابع الجدة والحداثة، حتى لكأنه كتب في عصرنا الحاضر، بقلم أحد أعلام الفقه، وتظهر عبقرية مؤلف الذخيرة وموسوعيته في مزجه بين الفقه وأصوله، واللغة وقواعدها، والمنطق والفلسفة والحساب والجبر والمقابلة؛ في المواطن التي تقتضيها، وفي وضعه مصطلحات دقيقة ورموزا واضحة، تختصر أسماء الأشخاص والكتب التي يكثر تداولها في الذخيرة، تقليلا للحجم، فكلمة «الأئمة» تعني عنده الشافعي وأبا حنيفة وابن حنبل، و«ش» ترمز للشافعي، و«ح» لأبي حنيفة، و«الصحاح» تعني الموطأ وصحيحي البخاري ومسلم.

ونجد في «الذخيرة» داخل الأبواب والفصول والمباحث والفروع المعتادة عناوين فرعية، تضبط المعلومات الإضافية وتحددها وتبرزها، أمثال: تمهيد، تحقيق، تفريع، تنقيح، تحرير، تذييل، قاعدة، فائدة، نظائر...

ويمكن أن يعد من مميزات «الذخيرة» كذلك عناية المؤلف بإبراز أصول الفقه المالكي، فقد جعل القرافي من شرطه في كتابه تتبع الأصول في مختلف الأبواب، قائلا في المقدمة: «وبينت مذهب مالك رحمه الله في أصول الفقه، ليظهر علو شرفه في اختياره في الأصول، كما ظهر في الفروع، ويطلع الفقيه على موافقته لأصله أو مخالفته له».

أهمية مقدمة كتاب الذخيرة

يظهر شرف هذه المقدمة فيما تضمنته من المباحث التي لابد لطالب العلم أن يطلع عليها ويعيها قبل الولوج في علم

الفقه الذي هو سلعة الفقيه الأولى.

وأول ما أوضحه الإمام القرافي في مطلع كتابه أن الفقه عماد الحق ونظام الخلق ووسيلة السعادة الأبدية، وأن من اشتغل به ساد، وذكر أن من أجل من عرف به، وأقربه إلى الحق طريقا: مذهب إمام دار الهجرة، وبين أدلته على هذا الاختيار.

كما أوضح سبب اشتغاله بتصنيف كتاب الذخيرة، وذلك أن الله عز وجل لما وهبه فضيلة كونه ناشئا مالكيا، رأى أن الواجب تعين عليه للقيام بحق المذهب بحسب الإمكان، فوجد رحمه الله أخيار علماء المالكية قد أتوا في كتبهم بالحكم الفائقة والألفاظ الرائقة والمعاني الباهرة والحجج القاهرة، غير أنهم يتبعون الفتاوى في مواطنها حيث كانت، ويتكلمون عليها أين وجدت، مع قطع النظر عن معاقد الترتيب، ونظام التهذيب، كشراح المدونة وغيرها، ومنهم من سلك الترتيب البديع وأجاد كابن شاس صاحب الجواهر الثمينة، لكنه مختصر قد لا يقنع طالب العلم المستزيد.

ومما نبه عليه القرافي في مقدمته المهمة أن الفقه وإن جل، إذا كان مفترقا، تبددت حكمته، وقلت طلاوته، وبعدت عند النفوس طلبته، وإذا رتبت الأحكام مخرجة على قواعد الشرع مبنية على مآخذها، نهضت الهمم حينئذ لاقتباسها، وأعجبت غاية الإعجاب بتقمص لباسها.

وبين أنه رحمه الله قدم مشهور المذهب على غيره من الأقوال، ليستدل الفقيه بتقديمه على مشهوريته، كما نبه على أنه اهتم بذكر مذاهب الفقه الأخرى غير المالكية، وذكر مآخذهم في كثير من المسائل، تكميلا للفائدة ومزيدا في الاطلاع.

وبين أنه أودع كتابه ما تحتاجه الأبواب من اللغة في الاشتقاق وغيره، وما تحتاجه من النحو، وأنه تكلم على الأحاديث بما تحتاجه من عزو وتوضيح إشكال أو جوابه فيه، أو إشارة فائدة منه.

ومن المهمات البالغات المذكورة في هذه المقدمة النفيسة، ما أشار إليه بقوله: «أودعته من أصول الفقه وقواعد الشرع وأسرار الأحكام وضوابط الفروع ما فتح الله علي به من فضله، مضافا لما أجد في كتب الأصحاب، بحسب الإمكان والتيسير».

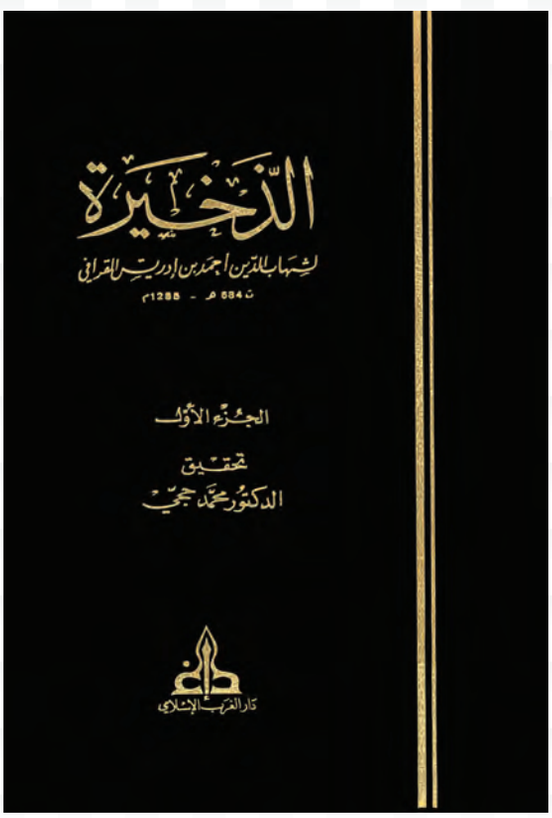

وقد انقسمت المقدمة إلى مقدمتين:

إحداهما: في بيان فضيلة العلم وآدابه، ليكون ذلك معدنا وتقوية لطلابه.

والمقدمة الأخرى: في قواعد الفقه وأصوله، وما يحتاج إليه من نفائس العلم، مما يكون حلية للفقيه، وجنة للمناظر، وعونا على التحصيل.

وإنما بين مذهب مالك رحمه الله في أصول الفقه، ليظهر علو شرفه في اختياره في الأصول، كما ظهر في الفروع، ويطلع الفقيه على موافقة لأصله، أو مخالفته له لمعارض أرجح منه، فيطلبه حتى يطلع على مدركه، ويطلع المخالفين في المناظرات على أصله.

المقدمة الأولى: في فضيلة العلم وآدابه، وفيها فصلان:

الفصل الأول في فضيلته من الكتاب والسنة والمعنى.

الفصل الثاني في آدابه.

المقدمة الثانية: وفيها ذكر ما يتعين أن يكون على خاطر الفقيه من أصول الفقه وقواعد الشرع واصطلاحات العلماء، حتى تخرج الفروع على القواعد والأصول، وذلك أن كل فقه لم يخرج على القواعد فليس بشيء.

واعتمد في هذه المقدمة على كتاب الإفادة للقاضي عبدالوهاب، وكتاب الإشارة للباجي، ومقدمة ابن القصار، وكتاب المحصول للفخر الرازي، ولخص جميع ذلك في مائة فصل وفصلين، في عشرين بابا، وسمى هذه المقدمة الأصولية النفيسة «تنقيح الفصول في علم الأصول»، وهي تحتوي على أبواب أصولية كثيرة

- هذا العرض مستفاد من مقدمة محقق الكتاب الدكتور محمد حجي.

مؤتمر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بالكويت ناقش مسودتها المبدئية:

التحرير

«وثيقة دولية» تيسر عمل المرأة الخيري

خرج المشاركون في مؤتمر «دور المرأة في العمل الخيري» الذي نظمته الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية في الفترة ١٥-١٧ ديسمبر الماضي في فندق ريجينسي - الكويت بوضع لبنات وثيقة عالمية تكون منهج عمل وأساسا مرجعيا للمرأة في مجال العمل الخيري والتطوعي، وقد انتهى المؤتمر الذي رعاه وحضر افتتاحه أمير دولة الكويت الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، وشارك فيه أكثر من ٣٠ عالما ومفكرا وناشطا وناشطة في العمل الإنساني، يمثلون العديد من المنظمات والهيئات الإسلامية المحلية والإقليمية والدولية، بمجموعة توصيات، تتلخص في ضرورة معالجة العوائق التي أظهرتها التجارب العملية والميدانية للأعمال الخيرية، والعمل على تذليل العقبات التي تعترض مسيرة عمل المرأة في العمل الخيري، والاتفاق على اعتماد مقررات المؤسسات الفقهية الإسلامية في تأطير الدراسات القانونية والفقهية والشرعية والإحصائية التي تم تلخيص مخرجاتها وعرضها على لجنة الصياغة؛ بإشراف اللجنة العلمية لإدراجها ضمن الوثيقة، إضافة إلى الإجماع على ضرورة صياغة الرؤية والإطار الشرعي للوثيقة صياغة قانونية وتحرير مصطلحاتها، فضلا عن تشكيل ملامح خطة العمل للمرحلة المقبلة، عبر قيام الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية بتشكيل لجنة صياغة مكونة من ذوي تخصصات شرعية وقانونية وخبراء في مجال الاتفاقيات الدولية، وإحالة الصياغة النهائية إلى اللجنة العلمية لاعتمادها، وتقديم الوثيقة إلى الجهات المعنية في الدولة لاعتمادها إقليميا ودوليا، وأخيرا الدعوة إلى إحالة الوثيقة إلى لجنة علمية موسعة تضم تخصصات مختلفة، وأن يعقد اجتماع بين المختصين للصياغة النهائية، مع العمل على ترجمة الوثيقة ومذكرتها التفسيرية باللغات الأجنبية، وعلى أن يتم ما سبق خلال سنة من تاريخه.

كانت جلسات وورش عمل وحلقات نقاش المؤتمر تعقد بالتوازي بواقع ست فعاليات في الفترة النهارية، ومثلها في الفترة المسائية، وكان ذلك يسبب إرباكا لمن يريد تحصيل كل ما يبث من علوم وخبرات، لكن منذ الجلسة الأولى التي رأسها الدكتور خالد المذكور رئيس اللجنة العليا للعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية من الكويت، وشهدتها «الوعي الإسلامي» ظهر حرص المشاركين، ومنهم الدكتورة مهجة غالب عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بجامعة الأزهر، والدكتور عصام البشير رئيس مجمع الفقه الإسلامي من السودان، وآخرون على ضرورة إصدار وثيقة حقوقية للمرأة تدعم مشاركتها في العمل الخيرى والتطوعي، وعرضها على المجامع الفقهية الشرعية لإجازتها والعمل بها؛ بدلا من بعض الاتفاقيات والمواثيق الدولية الخاصة بالمرأة، والتي قد تخالف بعض أحكام الشريعة الإسلامية.

الخلوة والاختلاط

وقد فرقت د. مهجة بين الخلوة والتي هي محرمة شرعا، وبين الاختلاط الذي لا يمانعه الشرع، إن كان بضوابط شرعية، وتناولت المجالات التي يمكن أن تعمل بها المرأة في العمل التطوعي، ومنها

الطبية والتعليمية، وتأهيل البنات قبل الزواج، وإصلاح ذات البين بين النساء، ومحو الأمية، ضاربة الأمثال بزوجات الرسول ﷺ وبالصحابيات الجليلات اللائي عملن في تلك المجالات وأثنى عليهن رسول الله ﷺ، ومنهن السيدة زينب بنت جحش، والتي عملت من قوت يدها وتبرعت للخير، مما يؤكد تشجيع السنة النبوية للعمل التطوعي، وفق ضوابط الشريعة.

توازن بين المسؤوليات

وقد أكدت مبادئ الوثيقة الدولية الشرعية لعمل المرأة الخيري التي ناقشها المؤتمر أن عمل المرأة الخيري مبني على الموازنة بين مسؤولياتها تجاه أسرتها وأبنائها وزوجها ومن يتعين عليها رعايتهم وبين عملها الخيري، وعند التعارض وتعذر الجمع أو التوفيق بينهما تقدم مسؤولياتها نحو أسرتها وأبنائها وزوجها.

الحقوق والواجبات

وفي تعقيبه قال الدكتور عبدالله معتوق المعتوق رئيس الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، إن محاور الوثيقة أكدت أن المرأة والرجل متساويان في الحقوق والواجبات، وفي أصل العمل والكسب، لا فرق بينهما إلا فيما تقتضيه طبيعتهما، وفيما خصت به الشريعة الإسلامية كلا منهما من حقوق وواجبات، وأن للمرأة العاملة في العمل الخيري ذمة مالية مستقلة وولاية تامة على أموالها الخاصة.

كما تحدد الوثيقة مقاصد عمل المرأة الخيري وهي الإسهام في تنمية الأسرة والمجتمع والإنسانية، ومكافحة الفقر وتقوية بنية الأمة وإغاثة الملهوف وبذل المعروف في السلم والحرب، وتعريف المجتمعات بقيمها الدينية والدعوية، وأكد المعتوق أن تلك الوثيقة تهدف إلى تقديم مرجع تشريعي لعمل المرأة في المجال الخيري.

رئيسة اللجنة التحضيرية العليا للمؤتمر شذى المشري أشارت في كلمتها الافتتاحية إلى مشاركة كوكبة من العلماء والفقهاء والمختصين، ونخبة من الوزراء والقياديين بمراكز اتخاذ القرار لتيسير انطلاق المرأة على الوجه الذي يمكنها ويكفل لها المشاركة الحقيقية والفاعلة في تنمية المجتمع.

وأضافت بوضوح: غايتنا إصدار وثيقة خاصة بدور المرأة في العمل الخيري؛ منطلقة من شريعتنا الإسلامية السمحة بكل ما فيها من عمق واتزان وحكمة وبصيرة ومرونة واستجابة لمتغيرات العصر، تكون بمثابة السند الشرعي والمنهج العلمي والمرجعية الداعمة لدور المرأة في العمل الخيري.. وثيقة تبرز المكانة الحقيقية الرفيعة للمرأة في الإسلام؛ حيث كانت المرأة منذ عصر الرسالة معلمة وملهمة ومستشارة وقائدة.

فيلم وثائقي يبهر الحضور

قدم السينمائي الفاروق عبدالعزيز في الجلسة الافتتاحية فيلما وثائقيا مدته ٥ دقائق عن دور المرأة المتميز في الإغاثة الإنسانية من خلال تصوير مشاهد حية التقطها في معسكري لاجئين سوريين بالأردن وبتركيا، هما الزعتري وقرية فان، على الترتيب، وقال الفاروق لـ«الوعي الإسلامي»: لمست مبادرة طيبة من وزارة الإعلام على لسان الوكيل النشط فيصل المتلقم بدعم إنتاج الأفلام والبرامج التي تعزز من دور المرأة، وأضم صوتي لهذه المبادرة الطيبة، فلو أن الوزارة تكفلت بهذا النوع من الإنتاج لوصل جهد السيدات الكويتيات الخيري للعالم كله، كما سمعنا عن الأم تيريزا.

الداعمون للمؤتمر

من الجهات التي دعمت المؤتمر ونوهت عنها رئيسة اللجنة التحضيرية شذى المشري:

١- منظمة التعاون الإسلامي
٢- هيئة كبار العلماء
٣- مشيخة الأزهر الشريف
٤- المجلس الإسلامي العالمي للدعوة والإغاثة
٥- هيئة الإغاثة الإسلامية
٦- الندوة العالمية للشباب الإسلامي
٧- المنتدى الإسلامي العالمي
٨- برنامج الأمم المتحدة الإنمائي
٩- مجموعة البنك الإسلامي للتنمية.

في مؤتمر التنمية الأسرية الرابع بالكويت

المرأة بين تجاذب الفكر واختيارات الذات

سلمى الميمني

أوصى المشاركون في مؤتمر التنمية الأسرية الرابع، الذي أقامته وزارة الأوقاف الكويتية مؤخرا تحت عنوان «المرأة بين تجاذب الفكر واختيارات الذات»، بتحرير المفاهيم الإسلامية والمصطلحات المتعلقة بالمرأة، وتصحيحها، وتأصيلها وفق الفهم الصحيح للإسلام، وتصحيح الصورة الذهنية المشوهة للمرأة الكويتية في وسائل الإعلام المختلفة، وتزويد المقررات الدراسية بمناهج تسهم في زيادة الوعي بدور المرأة في جميع المجالات.

وذكر المشاركون أن هنالك مشاريع علمية يجب الاهتمام بها والتركيز عليها خلال المرحلة المقبلة، كتأسيس وحدة إدارية تحت مسمى «قسم شؤون المرأة» بإدارة التنمية الأسرية، وإنشاء مركز أبحاث المرأة الخليجية يتبع الأمانة العامة لدول مجلس التعاون الخليجي، يعنى بالأبحاث المتعلقة بالمرأة في جميع المجالات الاجتماعية،الاقتصادية،التكنولوجية، النفسية، الثقافية وغيرها.

جاء ذلك بمشاركة نحو ٤٠ أكاديميا وباحثا ومفكرا وخبيرا من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وعدد من كبار الشخصيات العاملة في مجال المرأة في دول مجلس التعاون الخليجي.

وقد أكد وزير العدل وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يعقوب الصانع أهمية دور المرأة في التكوين الثقافي وبناء الأسرة منذ بزوغ فجر البشرية حتى يومنا الراهن، داعيا إلى الوصول إلى مقاربات فكرية تساعد في بناء شخصية المرأة المسلمة وفق أسس السماحة والاعتدال والوسطية، تيمنا بالخطابات السامية للقيادة السياسية ممثلة بأمير البلاد الشيخ صباح الأحمد الجابر الصباح، في دعم كل الجهود للنهوض بالمرأة.

وقدمت إدارة التنمية الأسرية عرضا

لنتائج بحث ميداني أجرته الإدارة تحت عنوان «وسائل الاتصال الحديثة ودورها في تمكين المرأة الكويتية اقتصاديا واجتماعيا».

وشهد المؤتمر عرض تجربتين اقتصاديتين، وعقد حوار فكري مع مجموعة من الناشطات في المجتمع الخليجي.

يذكر أن «الوعي الإسلامي» شاركت في البازار الثقافي الذي أقيم على هامش المؤتمر، والذي تضمن معرضا متنوعا بمشاركة العديد من الجهات النسائية البارزة من داخل دولة الكويت وخارجها، حيث عرضت المجلة المطبوعات المتنوعة التي تخدم المرأة والطفل وتناقش مختلف القضايا المهمة للمرأة والمجتمع، كذلك تم عرض وتوزيع مجلة، «براعم الإيمان»، وإصداراتها القصصية المختلفة وتوزيعها على الضيوف وزائري المؤتمر من دول الخليج العربي، والجمعيات النسائية المهتمة بمجالات الطفل والأم.

٦ نصائح لتقليل الغيرة بين الأبناء

د. آندي حجازي
أستاذة علم النفس التربوي-الأردن

هل مر بخلدك يوما لم ينزع بعض الأبناء نحو العنف تجاه إخوتهم؟ ولم يتعامل بعض الإخوة مع بعض بتنافر، وبغض أحيانا؟ أو لم يثور بعض الأبناء ضد الوالدين؟ ولم يعاني بعض الأبناء من التوتر والانفعالات الحادة في غالبية أوقاتهم؟ أو لم يلجأون إلى الصراخ ورفع الصوت؟ أو بالعكس ينزوون في جانب من البيت بلا تفاعل؟

كل تلك التساؤلات قد تكون إجاباتها ومحركها واحدا، وهو الغيرة بين الأبناء؛ فالغيرة شعور طبيعي فطري يولد بداخلنا، يؤجج فينا مشاعر معينة تجاه الآخرين، يبنى عليها الكثير من العلاقات الاجتماعية والسلوكيات والانفعالات.

وقد قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما غرت على امرأة قط؛ ما غرت على خديجة من كثرة ما كان رسول الله ﷺ يذكرها». فالغيرة أمر موجود في الطبيعة البشرية. وهي قد تكون إيجابية حميدة ومطلوبة، وقد تكون سلبية وضارة منبوذة! فتكون إيجابية مرغوبة حينما تولد تنافسا شريفا بين الأبناء أو بين الأشخاص الموجودين في المكان ذاته، كالذين يعملون في الشركة أو المؤسسة نفسها، فلولا الغيرة الحميدة بين أعضائها لما كان هناك إنتاج وتطور وتحسين وإبداع. ومن الغيرة الحميدة غيرة الرجل على زوجته وبناته لحمايتهن، وقد قال سعد بن عبادة رضي الله عنه: «لو رأيت رجلا مع امرأتي لضربته بالسيف، غير مصفح». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أتعجبون من غيرة سعد؟ والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» (صحيح البخاري، ج٦).

أما الغيرة السلبية البغيضة فهي المدمرة للنفس، القاضية على الكثير من الجهود والسعادة والعلاقات الاجتماعية، وهي تعرقل صفو الإخوة في أحايين كثيرة؛ لأنها تؤدي إلى الحسد والحقد والغيبة والعنف والحزن. والغريب أن كلا نوعي الغيرة، الإيجابية والسلبية، نحن البشر من ندرب عليه، ونؤجج مشاعره بدرجات مختلفة!

والغيرة قد تتطور لتصبح من الأمراض النفسية أو القلبية التي تصيب الشخص، كالكذب والغش والتحايل والحسد، وضعف تقدير الذات.. وقد تبدأ من المراحل الأولى من العمر، مما يتسبب في سلب طاقة الشخص وفاعليته وحيويته، كالمرض حينما يسري في الجسد. والأسوأ أن تستمر

مع الشخص سمة مميزة له، طوال حياته، فيصبح يعرف عنه أنه شخص كثير الغيرة من الآخرين، لا يحب الخير لهم، وأناني يحب الخير لذاته أو لأبنائه فقط، دون الآخرين، فيكرهه من حوله.

● الأسباب المؤججة لمشاعر الغيرة بين الأبناء

السبب الأول: عدم العدل والمساواة

إن عدم المساواة بين الأبناء في التعامل، من قبل الوالدين، وعدم العدل معهم في كل النواحي، كالمساواة في نوعية الملابس والأدوات والحاجيات، وفي تقديم مشاعر الحب والحنان والتعاطف، وفي التقبيل والاحتضان والابتسام والنظرات الحانية، وفي الرعاية الجيدة، والعطايا والهدايا والمصروف، هي السبب الرئيسي والمحرك الأكبر لمشاعر الغيرة بين الإخوة، فشعور الابن بعدم العدل والمساواة بينه وبين إخوته في البيت يؤدي إلى ثورة نفسية تنشأ داخله، لإحساسه بالظلم. وبالتالي، يقرر الابن أن يقوم ببعض التصرفات الغاضبة أو الإجراءات التي يراها مناسبة لمعاقبة والديه، أو لإشعارهما برفضه لتلك التفرقة؛ فنلحظ بعض الأبناء يعبر بشكل صريح عن امتعاضه من هذه التفرقة، وقد يبدأ بتهديد الوالدين (خصوصا إن كان في سن المراهقة) بأنه سيفعل كذا، وسيفعل كذا إن لم يعاملاه كما يعاملان بقية إخوته، وغالبا ما ينفذ تهديداته إن لم يعمل الوالدان على تغيير أسلوب تعاملهما معه.

فتزداد مشاعر الغيرة حدة بين الأبناء كلما عمل الآباء على التفرقة بين الأبناء، فيزداد الشعور بالظلم، وتأخذ مشاعر الغيرة في التطور والنماء، وتؤثر سلبا على سير العلاقات الودية بين الإخوة في البيت، بل قد تكون الغيرة سببا لخلافات أبدية مستمرة بين الإخوة، وسببا في العداء والكراهية الدائمة.. وهل قتل قابيل هابيل إلا نتيجة مشاعر الغيرة التي جعلته يشعر بأن الله تعالى تقبل من هابيل قربانه ولم يتقبل منه! فما كان من غيرته إلا أن أفرغها في أمر عنيف لا رجعة فيه، ولا ينفع معه الندم، ألا وهو التخلص من أخيه، ليحمل وزره ووزر كل من قتل بعده!

السبب الثاني: المقارنة بين الأبناء

والمقارنة من أسوأ ما يفعله الوالدان، وقد تكون بين الأبناء بعضهم ببعض، أو أمام الناس بمدح بعضهم من دون بعض، فقد يمدح الأب أحد أبنائه دوما، أمام الأقارب والأصدقاء لتفوقه أو مهاراته أو لموهبة لديه أو لقدراته القيادية أو لجمال في شكله.. وفي المقابل، لا يذكر أي شيء إيجابي عن طفله الآخر، ويتكرر ذلك الموقف مرات ومرات، مما يشكل عقدا نفسية لدى الطفل المهمَل، تتحول مع الوقت إلى مشاعر غيرة وكراهية وعدوان، أو انعزال وقنوط. وأحيانا قد لا تتم المقارنة أمام الناس والأقارب والأصدقاء، بل مُوجّهة للطفل نفسه، بتوجيه التقريع إليه، بمقارنته بأخيه، فيقال له: «انظر إلى أخيك، إنه أفضل منك في دراسته، ناجح في عمله.. أو أكثر ذكاء ومهارة وإبداعا منك، وأنت لا تفلح في شيء!..»، مما يحطم قدراته، ويضعف ثقته بذاته، ومع الوقت يؤمن بما يقوله عنه والداه؛ فتضعف ثقته بنفسه، وتضمحل قدراته، وتزداد غربته عن أسرته ومجتمعه.

السبب الثالث: التفوق والتميز

وهو شعور الأخ بتفوق أخيه عليه في جانب معين، كتفوقه عليه في دراسته أو شكله وجماله الخَلقي، أو تميزه في مهاراته، أو مواهبه، كالرسم والرياضة، أو في محبة الآخرين له، أو تفوقه في عمله ورزقه.. مما يثير لديه مشاعر الغيرة، التي لو عولجت، منذ الصغر، بشكل جيد، لكان تعود الابن حب الخير لغيره، وتقبل الفروقات بين البشر، ولتعلم أن الكمال لله وحده، وأن لا أحد لديه كل شيء، بل كل إنسان يتفوق في جانب، ولا يتفوق في كل شيء، وعليه أن يحمد الله على كل حال، لا أن يحسد غيره.

● مظاهر الغيرة بين الإخوة (وقد تظهر واحدة منها أو أكثر)

أولا- الشجار والعراك بينهم

وهو من أوضح مظاهر مرض الغيرة وأعنفها، فبعض الأبناء، خصوصا الكبار منهم، قد لا يعبرون صراحة عن رفضهم للتفرقة وشعورهم بالغيرة من بعض إخوتهم، بسبب أسلوب والديهم في التعامل معهم، ولكن هذا يصبح باديا للعيان من خلال تصرفاتهم التي قد تؤدي إلى صراعات وتوترات نفسية في البيت، وعنف مع الآخرين، واعتداء على إخوته بالضرب والصراخ والشتائم.

ثانيا- البكاء والعناد

وغالبا ما يظهر لدى الصغار، فبكاء الأخ الصغير لأتفه الأسباب، وعناده، وضرب رأسه في الأرض

أو بيديه، ورميه للحاجيات بعصبية.. كلها مظاهر تشير، في أحيان كثيرة، إلى مشاعر الغيرة لدى هذا الطفل، وأحيانا كثيرة تكون نتيجة ولادة طفل جديد في الأسرة، فيشعر كأنه أخذ مكانه.. فيبكي، ويعلو صراخه لأي سبب، مثل عدم تلبية طلباته بالسرعة اللازمة، أو لسقوطه على الأرض، أو لأخذ شيء من حاجياته. وكثيرا ما يحدث ألا تعرف الأم سبب هذا البكاء والعناد والنكد والفوضى التي يحدثها، ولكن لو راجعت سلوكياتها وطريقة تعاملها فستعرف.

ثالثا- الخجل والانطواء والعزلة عن أهل بيته

الانزواء وترك مخالطة الآخرين هما من أسوأ ما يصل إليه الابن، نتيجة الغيرة، ففي الوقت الذي يتصور فيه الوالدان أنه يلعب في غرفته وحده، ويمارس هواياته، فلا يقدمان له الاهتمام، وأنه هادئ ووديع... يكون هو يعاني من مشكلة نفسية بداخله، لا يعرف كيف يعبر عنها، وكيف يصارح والديه بما يجد، فتتفاقم وتتحول إلى عقد نفسية وحقد وكراهية للآخرين.. فإهمال الوالدين لطفلهما المنعزل خطير للغاية. ولا يعلم الوالدان أن الغيرة حين تصل إلى مستوى كبير تقضي على مرح الطفل ونشاطه وحيويته التي لا بد أن يتصف بها في مرحلة الطفولة، وأن لهذا الانطواء أثرا سلبيا على الطفل في المستقبل، حيث يصبح يخاف الاختلاط بالناس، مما يقلل ثقته بنفسه وبنجاحه في الحياة.

رابعا- مشاكل سلوكية ملحوظة

تظهر لدى الابن الذي تعتريه مشاعر الغيرة والغيظ سلوكيات ظاهرة للعيان، كقضم الأظافر، والتبول اللاإرادي، أو العبث في حاجيات البيت بفوضى، أو التظاهر بالمرض.. لمحاولة الحصول على الاهتمام والتقرب من الوالدين، وجذب انتباههما وعطفهما. ولكن للأسف كثيرا ما تبوء محاولاته بالفشل، نتيجة عدم إصغاء الوالدين لصوت طفلهما، ولعدم تحرك الجهاز العاطفي لديهما، والذي قد لا يتحرك بالدرجة نفسها لكل الأبناء! الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم مشكلة الغيرة بينهم، والتي تستمر حتى عندما يكبرون، فتكبر معهم مشاعر الغيرة والاستياء، وأحيانا الكراهية أو التباعد والجفوة بينهم، ويستمر الوضع حتى بعد أن يتزوجوا ويصبح لكل منهم بيت وأسرة! بل قد تزداد أكثر بعد ذلك.

● كيف أقلل مشاعر الغيرة بين الأبناء؟

أيها الآباء والأمهات، حاولوا قدر الإمكان ما يلي: لتقليل مشاعر الغيرة بين أبنائكم، ولتعزيز ثقتهم بنفسهم والمحبة فيما بينهم:

١- العدل والمساواة بين الأبناء، وهما السبب الأول والأخير والأهم لحل مشكلة الغيرة، فالعدل بين الأبناء في كل النواحي المادية والمعنوية هو المطلوب لوأد مشاعر الغيرة بين الإخوة، فلا تظهر الحب والحنان لطفل دون آخر، حتى وإن كان بحاجة، لمعاناته من مرض ما، أو إعاقة ما، أو مشكلة نفسية أو جسدية.. وكذلك لا تفرق في المعاملة أو العطايا.. إلا إذا أوضحت لهم سبب هذا الاهتمام وأقنعتهم به.

فلابد من إشعار كل ابن بالحب والحنان والتكريم والاحترام والمكانة، في الأسرة وفي قلب الوالدين، وذلك يكون قولا وعملا، خصوصا للابن الذي يعاني من اضطرابات سلوكية أو عصبية زائدة، أو من توتر وحالة نفسية.. وتذكر كيف توهّم إخوة يوسف عليه السلام أن أباهم قد أحب يوسف عليه السلام أكثر منهم، فآذوه، وحاولوا التخلص منه برميه في بئر عميقة مظلمة؛ ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ (يوسف:٨)، فاحذر من تصرفاتك ومشاعرك غير المتساوية.

٢- وزع المهام والمسؤوليات **بين أبنائك**

شارك أبناءك جميعهم بعض المهام والمسؤوليات التي تشعرهم بالحب والاهتمام والألفة، وتزيد من ثقتهم بأنفسهم، وتدعم مسيرتهم في الحياة، فلا تجعل تلك المسؤوليات ملقاة على عاتق بعض الأبناء، دون الآخرين، بحجة أن هذا قادر وهذا غير قادر، أو هذا الكبير وهذا الصغير، وإلا فستكون أنت من يسبب التفرقة والغيرة بين أبنائك.

٣- هيئ أبناءك لقدوم مولود جديد

لا تعط كل الحب للطفل الصغير، وتهمل الكبير، فهيئ الأخ الأكبر لتقبل قدوم المولود الجديد، وعلمه كيف يحبه، فمثلا عندما تشتري للمولود الجديد بعض الملابس، اشتر أيضا للإخوة الأكبر؛ لأنهم لابد أن يفسروا ما تفعله للصغير بأنك تحبه أكثر منهم، فيشعروا أن المولود الجديد قد أخذ مكانهم من حبكما واهتمامكما، فيحاول بعضهم إيذاءه أو إهماله وإنكار

وجوده، كما فعل إخوة يوسف به.

٤-استمع لأبنائك كلهم

استمع لجميع أبنائك ولآرائهم ومشاكلهم وأفكارهم، خصوصا المراهقين منهم، ولا تجعل استماعك مقتصرا على واحد منهم دون الآخرين، واحترم آراءهم، لأن الاستماع إليهم يزيد من ثقتهم بحبك لهم، ويقلل مشاعر الغيرة والحسد بين الإخوة، خصوصا إن كنت تفعل ذلك مع جميع أبنائك، وبجلسات تحاورية، أما إن كنت تستمع إلى بعضهم وتحترم مثلا آراء الكبير، دون الصغير، فإنك تؤجج مشاعر الغيرة والغيظ لديهم، فتكون أنت، أيها الوالد أو الوالدة، سببا للتفرقة بين أبنائك، وكراهية بعضهم لبعض!

٥- ازرع الثقة والمحبة فيما بين أبنائك

تقع على الوالدين مسؤولية زرع المحبة المتبادلة بين الإخوة في البيت، فذكر ابنك دوما أن هذا أخوك، وهو جزء منك، وأنه يحبك، وأنك تحبهم بالمقدار نفسه.. وعلمه أن لدى إخوته مواهب معينة، كما أن لديه مواهب مختلفة، وأن عليه تحسين نفسه وتطوير مواهبه ومظهره وإنتاجه... مع تركيز الوالدين على تنمية موهبة كل ابن على حدة؛ لزرع الثقة بنفسه وبقدراته، فتتطور بدلا من أن تضمحل وتتلاشى، بمرور الزمن.

٦- لا تقارن أبدا بين أبنائك

إن المقارنة بين الأبناء سبب رئيسي للغيرة، فلا تقارن أبدا بين ابنك وآخر أمام إخوته، ولا أمام الآخرين، ولا حتى في نفسك، لأن لكل ابن مواهبه وقدراته وطاقاته وميوله وأهدافه في الحياة، فالمقارنة بين الأبناء هي من أكثر الأسباب المحبطة التي تثير مشاعر الغيرة والحقد الدائم، فلا تقل: «ابني فلان أكثر ذكاء من الآخر، أو متى ستصبح مثل أخيك؟ أو أنت لا تتقن شيئا.. وانظر إلى أخيك وتعلم منه...» فهذه عبارات تقريع قاتلة للمواهب والقدرات ومشاعر الحب بين الإخوة، بل بالعكس ازرع الثقة النفسية في أبنائك بمدح كل واحد منهم على ميزاته وقدراته ومواهبه، واتق الله في رعاية أبنائك.

عبر سبع ومضات من مشكاة النبوة:

غرس الثقة في نفس الطفل

آمال حسناوي
باحثة دراسات تربوية - سوريا

تعالوا نرى كيف كان النبي ﷺ يتعامل مع الصغار والغلمان من الصحابة رضي الله عنهم حتى أنشا لنا ذلك الجيل الرباني الذهبي، الذي ملك من الثقة ما جعله يقود جيوشا فتحت العالم بأسره.

هلموا بنا ننهل من معين النبوة الصافي قطرات تربوية، نروي بها ظمأ قلوبنا لتنشئة جيل يقود الأمة إلى النصر والعزة، وذلك من خلال هذه الومضات السبع:

الومضة الأولى: إن أول خطوة يخطوها المربي العاقل لغرس الثقة في نفس طفله تعليمه مبادئ الإيمان بالله تعالى، والخوف منه دون سواه؛ ففي سنن ابن ماجه عن جندب بن عبدالله ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة (جمع الحزور، وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»، والشاهد هنا أهمية غرس قيم الإيمان بالله في سني الطفولة الأولى، وأن لها الأولوية على كل شيء، لأن لها ما بعدها من التربية والخلال الصالحة.

الومضة الثانية: المربي الناجح هو الذي يجعل الطفل يشعر بأهميته كإنسان مسلم؛ فعند مخاطبته يوجه إليه من الخطاب ما يشعر به الطفل أنه محترم مهم، قل له: من فضلك، لو سمحت، استأذنه فيما يخصه، وخذ برأيه وشاوره.

إن هذه الأساليب السهلة الميسورة تجعل الطفل يشعر بأهميته الاجتماعية، وقيمته الذاتية؛ فيدفعه ذلك إلى ارتقاء المعالي وركوب الغايات الجليلة؛ ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ أتي بشراب، وعن يمينه غلام، وعن يساره أشياخ، فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟»، فقال الغلام: لا والله لا أوثر بنصيبي منك أحدا، فتله في يده. الشاهد أنه ﷺ استأذن الغلام وأخذ برأيه وأعطاه حقه، وهذا من صميم غرس الثقة في نفسه.

الومضة الثالثة: مشاركة الطفل في أموره الخاصة، والاهتمام بأسئلته، حتى وإن كانت شؤون الطفل في نظرنا تافهة؛ فقائد هذه الأمة ﷺ وله ما له من القضايا المهمة للأمة، أوجد وقتا ليسأل أخا أنس ﷺ عن طائره؛ ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا، حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»؛ فيا ترى ما شعور ذلك الطفل والنبي الكريم ﷺ يهتم به ويسأله عن طائره؟ إنه غرس الثقة في نفس الطفل منذ الصغر.

الومضة الرابعة: مما يؤثر في نفس الطفل ويرفع من همته وذوقه، اصطحابه إلى مجالس الكبار النافعة، ففي تلك المجالس العامرة بالفائدة ما يغرس في نفس الطفل معاني جميلة، ويتعلم منها ما يجعله يحسن مواجهة صعوبات الحياة بثقة، ولنا في رسول الله ﷺ وصحابته الكرام القدوة الحسنة؛ ففي صحيح البخاري وغيره عن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي؛ قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هي النخلة»، فابن عمر كان أصغر الجالسين وهم كبار الصحابة، وفيهم رسول الله ﷺ؛ ومع ذلك أكبروه وجبروا خاطره، ولم يستهينوا بصغر سنه، بل سمحوا له بمجالسة الكبار ومخالطتهم والإفادة منهم.

الومضة الخامسة: الرفق بالطفل وعدم استعمال أسلوب التهديد الذي يخلق منه شخصية هشة، يسهل كسرها وتوهين عزيمتها، في مقابل أسلوب التجاهل والتغاضي عن بعض الأمور؛ فهو من أنجع وسائل التربية؛ وقد ثبت في صحيح البخاري عن أنس ﷺ قال: «خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف! ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت».

الومضة السادسة: إظهار محبة طفلك من أبرز ما يشيع الطمأنينة في نفسه، والثقة في عطائه، وإظهار الحب شعور جميل، ولكنه لا يكفي وحده؛ بل علينا أن نشعرهم بهذا الحب؛ ففي صحيح البخاري عن البراء ﷺ قال: رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، يقول: «اللهم إني أحبه فأحبه»؛ أخبر ابنك أنك تحبه، وضمه بعطف ولطف إلى صدرك؛ وسيعطيه ذلك مخزونا هائلا من الثقة لمواجهة عراك الحياة، ومن صميم الحب أن تمدح طفلك أمام الغير إذا قام بما يستحق عليه المدح.

الومضة السابعة: أوكل إلى طفلك مهمة يقوم بها، وحمله مسؤولية أمر ما، على حسب سنه وقدراته، وتجنب تحميله من العبء ما لا يطيق، واترك له فسحة في اتخاذ قرارات تخصه، وشاركه أمرا يكون بينكما، وعلمه كتمان السر، وبين له أنك ما خصصته بهذا الأمر إلا لأنه أهل لتحمل الأمانة.

جاء في مسند أحمد عن ثابت البناني عن أنس ﷺ قال: خدمت رسول الله ﷺ يوما، حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمته، قلت: يقيل رسول الله ﷺ؛ فخرجت إلى صبيان يلعبون؛ قال: فجئت أنظر إلى لعبهم، قال: «فجاء رسول الله ﷺ فسلم على الصبيان وهم يلعبون، فدعاني رسول الله ﷺ، فبعثني إلى حاجة له، فذهبت فيها، وجلس رسول الله ﷺ في فيء حتى أتيته»، واحتبست على أمي عن الإبان (الحين والوقت) الذي كنت آتيها فيه، فلما أتيتها، قالت: ما حبسك؟ قلت: بعثني رسول الله في حاجة له، قالت: وما هي؟ قلت: هو سر لرسول الله ﷺ، قالت: فاحفظ على رسول الله ﷺ سره.. قال ثابت: قال لي أنس: «لو حدثت به أحدا من الناس أو: كنت محدثا به، لحدثتك به يا ثابت».

الأسرة أهم المحاضن والمحبة أفضل تربية

الزبير مهداد
كاتب دراسات إسلامية

تتشكل الأسرة من الأم والأب والأبناء، وتعد أهم مجال اجتماعي مؤثر في حياة الأبناء، وحتى أثناء الغياب المؤقت لأحد الوالدين، فإن حضور تأثيره يظل قائما في حياة الأبناء، فغيابه المادي لا ينفي وجوده الرمزي المؤثر في حياة الآخرين الذين يراعونه في سلوكهم واستجاباتهم، وفيما يتوقعه منهم، وتعد الأم أهم مكونات الأسرة المؤثرة في حياة الأبناء.

وفي بعض الحضارات الإنسانية، كانت هناك ثمة عشائر ترتكز حول الأم بدلا من الأب، وتسمى العشائر الأمومية، فتسكن العائلة في موطن الأم، ويأتي الزوج ليعيش معها، وتكون سلطاته ومسؤولياته نحو الأولاد قليلة، إلا فيما يتعلق بأمر معاشهم. ويحمل الأولاد اسم الأم، ويتمتع الخال بسلطة كبيرة على أولاد أخته الذين يرثون كل ممتلكاته (١). وعبر عصور كثيرة، وفي حضارات شعوب شتى، كانت مهمة تربية الأبناء من مهام الأم كليا. ولكن بداية من القرن العشرين، أعطي الأب دورا أكبر في رعاية الأبناء في البلدان الغربية.

وقوة تأثير الأم يبدو من خلال الهالة التي تخلفها في ذهن الطفل، وتسمى في علم النفس: هالة الأم (صورة الأم) Mother imago وهي الصورة المثالية التي يكونها الطفل عن أمه، وتلازمه من سن الطفولة حتى الكبر، بحيث تغدو رمزا لتأثير الأم في نفس الشخص، هذا التأثير الذي يستغرق في الذات، ويمارس فعله بصورة لاشعورية في أحيان كثيرة (٢).

وبخلاف الأم، فإن الأب في العائلة العربية يمثل دورا أقل بروزا من دور الأم، في السنين الأولى من حياة الطفل، وخصوصا في العائلة الكبيرة الممتدة. فالأب يبقى في حياة الطفل الأولى صورة بعيدة، بعكس الأم. إلا أنه وعلى الرغم من أن الطفل لا يشعر بوجود أبيه شعورا مباشرا، فهو يعيشه كقوة كبيرة في حياته (٣).

ويساعد وجود الأب في الأسرة الأطفال الذكور على النجاح في عملية التنميط الجنسي؛ بإكسابهم السلوك الذكوري، وقد كشفت دراسة أثر غياب الأب على سلوك الأطفال عن ضعف السلوك الذكوري لدى الأطفال الذكور، في حين أن وجود الأب يؤدي إلى اكتساب الطفل السلوك الذكوري بدرجة واضحة، وتزداد معاناة الطفل إذا كان الغياب في مرحلة الطفولة المبكرة (٤).

ففي فترة الطفولة الأولى تتكون لدى الطفل نظرته إلى العالم، ويكتسب اتجاهه نحو محيطه ونحو نفسه، وذلك كله بفعل نوع علاقته بوالديه، ومدى رعايتهما له، وخصوصا أمه، فبقدر ما يحققه التفاعل من دفء وإشباع لحاجات الطفل، أو من إهمال وحرمان، ستكون استجابات الفرد للعالم والآخرين بنفس الصورة أيضا (٥).

التفاعل السيء يولد القلق

إن أشكال التفاعل القائمة في مجتمعاتنا بين الكبار والصغار هي عموما غير سوية، لا تأخذ بعين الاعتبار تكوين الطفل النفسي وخصائصه وأفكاره وحاجاته، لذلك فهو يؤدي إلى نتائج عكسية، أي بدل التفاعل والتعاطف المتبادل الذي من المفروض أن يحقق اندماج الفرد، ويساهم في خلق تكامل عناصر شخصيته، يؤدي هذا التفاعل القائم في مجتمعنا إلى خلق شخصيات متصلبة، أو انعزالية، أو قلقة مريضة، يكتنفها إحساس بالنقص والدونية والقصور، معوقة نفسيا، وبدل الاجتهاد في إثراء الحياة الاجتماعية بالعطاء والمبادرة والبذل، تقضي ناشئتنا حياتها يستغرقها بذل الجهد في خفض قلقها والتخلص من توتراتها، فيحرم المجتمع من طاقة شبابية مهمة، كان ممكنا أن تساهم في تنميته وتطويره.

والمؤكد في علم النفس أن سلوك الأفراد واستجاباتهم اللاحقة

واتجاهاتهم، تعتمد بصورة أساسية على البناء السيكولوجي الطفولي، لأن الخبرات التي يتعرض لها الفرد خلال طفولته يكون لها تأثير بارز في رسم معالم شخصيته، من حيث القوة والضعف، أو الوضوح والتكامل، أو الضياع والتشتت، رغم أن معظم الأفراد لا يدركون هذه الحقيقة حق الإدراك، لأنها تصبح في عداد التجارب المنسية بمرور الزمن (٦).

والخبرات المؤلمة التي يتعرض لها الأطفال تأتيهم من ظروف الحياة العائلية، وعلاقاتهم بوالديهم التي تعتبر مصدرا لأغلب الصراعات، فالطفل يعتمد دائما على والديه للعلاقات وللسند، وأيضا للحب. فإذا كان الوالدان مسرفين في البرود أو عدم الاستجابة، أو إذا كانا قاسيين يستعملان العقاب البدني وسيلة وحيدة في الضبط، ينشأ لدى الطفل شعور أساسي بعدم الطمأنينة والقلق الذي يؤدي إلى الصراع النفسي، فهو يحب والديه، ولا يستطيع الاستقلال عنهما، وفي الوقت نفسه يخشاهما لما يسببانه له من ألم نفسي وبدني لا يستطيع دفعه، فينفر منهما (٧).

الحرمان

وظاهرة فقدان الحب أو الحرمان العاطفي تمثل لدى الأطفال أكثر الخبرات المؤلمة المتعلقة بالوالدين، وبالأم بشكل خاص، إبان مرحلة الطفولة الأولى التي تمتد إلى العام السادس من عمر الطفل، وهذا الافتقار للحب وما يلقاه الطفل من إحباط في سبيل الحصول عليه، يترك في نفسيته ندوبا عميقة تلحق مشاعره نحو ذاته، ونحو الآخرين المحيطين به (٨)، فقد تبين دراسة أثر العلاقات بين الوالدين والصبيان على ظهور السلوك المنحرف، أن للحرمان أثرا قويا على الطفل، خاصة خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الصبي، والتي تكون حاسمة في تشكيل شخصية الطفل (٩).

فالطفل الذي يشعر – من خلال أساليب التربية وأشكال التفاعل التي يخضع لها – بأنه منبوذ محروم من العاطفة والحنان، أو أنه غير مرغوب فيه، أو أنه لا قيمة ولا اعتبار له، يحاول وبشتى الوسائل إثارة الانتباه إلى ذاته المنسية وتأكيدها، وقد لا يفلح دوما في ذلك، فتظهر عليه دلائل القلق والصراع النفسي واضطرابات السلوك المختلفة، وأخطرها العصاب (١٠).

القسوة

يميل بعض الوالدين في معاملتهم وتربيتهم لأطفالهم إلى التمسك بالوسائل القسرية الزاجرة الشديدة الإيلام، والتأثير على الطفل، فيلجأون إلى الضرب المبرح لأتفه الأسباب، وفي ظنهم أن هذه القسوة ستحقق لهم التربية السليمة لأطفالهم، فالعقاب البدني هو أكثر طرائق التأديب استعمالا في مجتمعنا، ويشكل اتجاها تنشيئيا سائدا في مجتمعنا، ويستخدم بدرجات متفاوتة، كالصفعة، وهي أكثر شيوعا وأشد إيلاما للنفس والبدن على السواء، إلى جانب الضرب على القفا، أو في أي مكان آخر من الجسم، باليد أو بآلة أخرى كالحزام أو العصا أو النعال أو غير ذلك، لهذا الاتجاه التربوي انعكاسات سيكولوجية ووجدانية على الطفل، ويتفق كل المربين وعلماء النفس على ضرره، وإن اختلفوا في تحديد آثاره ونتائجه على الطفل، صغيرا وكبيرا وتقدير خطورتها.

والملاحظ خلال حالات كثيرة للقسوة والعقاب أن زيادة استخدام العقاب مع الطفل تؤدي حتما إلى الجنوح (١١)، فقد تبين لأحد الباحثين أن نسبة كبيرة من الصبيان المنحرفين، عانوا آثار معاملة قاسية من طرف والديهم، وكانت حياتهم تتصف بعدم الاستقرار والتوتر والقلق (١٢).

وأسوأ ما ينطوي عليه الإفراط في العقاب البدني الموجه للطفل أنه يتضمن تبخيسا وحطا من قيمة الطفل، لأنه لابد لتبرير هذه العدوانية

من الحط من قيمة الطفل، ويترتب على ذلك تكوين الطفل لصورة سلبية عن نفسه، يظل يحملها طيلة حياته، حيث يؤثر تصوره لنفسه على علاقاته بأصدقائه وإخوته وغيرهم، فهو ضعيف عاجز منعدم الفعالية والكفاءة، وبدون طموحات تذكر، وكثيرا ما يكون عرضة لظهور أعراض عصابية من مختلف الأنواع، ومن جملتها عقدة النقص.

إننا في مجتمعاتنا نسيء لأطفالنا بدون كلل، وبطريقة تلقائية غير واعية، بل لا نمتلك أحيانا القدرة على تبرير ذلك، لأن استجاباتنا نحو أطفالنا وطرق تربيتنا وتعاملنا معهم تعتبر تقنيات تربوية متوارثة مقبولة، بل ونعتبرها ضرورية لأجل مصلحة الأبناء، دون وعي بآثارها الضارة وجوانبها المؤلمة السيئة.

التربية محبة

أي نوع من التربية يمكن أن يؤدي إليها الإهمال أو القسوة أو الحماية الزائدة؟! أي مصلحة للطفل في ذلك؟ أي إشباع نفسي وعاطفي يمكنه أن توفره هذه الأساليب التربوية الخاطئة؟ الطفل في حاجة ماسة لمعاملة أخرى غير تلك، في حاجة إلى العطف والمودة والحنان، لأجل نمو سليم بدني ونفسي وعقلي وعاطفي.

هناك أسس ثابتة لتربية الطفل، وشروط ومواصفات للعطف الذي يحتاجه الأطفال:

١- إن الأطفال يجب أن يحظوا بالأولوية في كل شيء، في تلبية حاجاتهم البدنية والعاطفية، وهذا أساس الارتباط الوالدي، ويوجب على الوالدين الحضور المادي والعاطفي الدائم بجوار الأطفال، وطيلة مرحلة الطفولة الأولى على وجه الخصوص، ويتعين بالضرورة على الوالدين تكييف أوقاتهم لتلائم حاجات الصبيان، وليس تكييف الطفولة لتلائم ظروف الوالدين.

٢- لا يمكن أن يقوم الحنان والمودة، إذا قامت العلاقة التربوية بين الوالدين والصبيان على القسوة، فلا ينبغي أن يكون الوالدان مهيمنين، ولا خاضعين لهيمنة، لأجل ذلك، فلا مجال لفرض احترام الوالدية على الصبيان، مهما كلف الثمن، فالعلاقات ينبغي أن تتأسس على الثقة، والاحترام على الجدارة، فالسلطة الحقيقية هي التي يعترف بها الأبناء طواعية، وليست تلك التي نفرضها، والتي قد يتولد عنها خوف أو خضوع وتمرد.

٣- محبة الأبناء تمنح دون قيد ولا شرط، وتقبل طفلك كما هو، على سجيته، وليس كما تحبه أن يكون، فالصورة التي نحب أن يكون عليها أبناؤنا الصغار قد تتعارض مع طبيعتهم الفضولية المشاغبة، الحركية، التلقائية، الفوضوية، المعاندة، الأنانية.. فالأمر يتعلق بنا نحن الكبار لنكون على الصورة التي يحبها الصغار، وليس العكس، فمحبة الصبي غير المشروطة، تعني أيضا ألا نزن على ضوء سلوكه مشروعنا الأبوي، فيجب أن نحبه ونعطف عليه ونشعره بمحبتنا ومودتنا، حتى لو انحرف عن السبيل الذي رسمناه له وحددناه لمساره، فمحبتنا لهم هي طوق النجاة الكفيل بإنقاذهم من كل خطر.

٤- الاستماع العاطفي للطفل لا يمكن أن يلتقي مع العلاقات العنيفة أو المهملة للطفل، والاستماع العاطفي شرط العطف، فيجب استدعاء كل انفعالات الصبي، حتى تلك التي نرفضها، كنوبات غضبه، أو مشاكسته، أو خوفه، أو حزنه، أو خلاف ذلك. فالصبي ليس أمامه خيار آخر غير قمع هذه الانفعالات،

على الرغم مما قد يصاحب هذا القمع من آثار مدمرة أحيانا على الصبي ومحيطه، فما يكبت من انفعالات، يتحول إلى ركام من مشاعر القلق والاكتئاب والحزن، يغلي في صدره، ويتحين الفرصة للظهور والانفجار.

٥- المصاحبة المرنة ضرورية للطفولة، فمن أصعب الأمور على الوالد الذي يعطف على الطفل، أن يجد مكانا قرب طفله، يتيح لإيقاعات الطفل أن تتطور بكل حرية، لأن الأمر يتطلب ثقة كاملة في قدراته، ومرافقته في طريقه دون دفع أو جر أو إمالة أو إعاقة. والتوجيه الحسن يتطلب من الوالدين أن يضعا تجربتهما وخبرتهما رهن إشارة الأطفال، واستحضار علامات، لكن بمرونة كبيرة، يمكن مناقشتها مع الطفل، مع الأخذ بعين الاعتبار خصوصيات وضع وطبيعة الطفل المتطورة.

٦- إن العطف لا يقتصر معناه على ما ذكر آنفا، إنه أكثر من ذلك، إنه كلمات ودودة، وحركات معبرة عنها، وإشارات، دون أن يصل الأمر إلى إحكام الخناق العاطفي حول الطفل، وإنما تمتيعه بالحضور الدافئ الدائم، والفرح الملهم والثقة والاحترام، فابتعاد الوالدين عن الطفل هو أحد أشكال العنف المدمر للطفل، فالطفل في حاجة إلى محبة تبرزها علامات واضحة، يعرفها الطفل ويميزها، ويستضيء بها في كل أزمة نفسية من أزمات النمو والتنشئة.

وحتى نتمكن من أن نسبغ العطف والمحبة على أبنائنا، يجب أن نحيط أنفسنا بالتقدير الجدير بذاتنا، فلا يمكن أن نتسامح مع الآخرين المذنبين إذا كنا لا نتحمل مسؤولية أخطائنا، ونرفض الاعتراف بها، ولا يمكن أن نحب الآخر إذا كانت معاشرته ليست موضع اعتبار وتقدير.

فيجب أن نلتفت إلى أنفسنا، ونتخلص من الآلام والندوب التي خلفتها فينا التربية القاسية التي عانيناها في صبانا، ونقتلعها من جذورها الكامنة في أعماقنا، حتى لا نعيد إنتاجها مع أبنائنا وبناتنا، ولا نرسخ القهر، ونديم الدمار النفسي المعيق للنمو السليم.

ومن نافلة القول أن جو المبادلات العميقة الدافئة التي تسود الأسرة ترسي دعائم الشخصية لدى أفرادها، وتطور لدى الأطفال القدرة على الاستقلال بالذات، وفرض الشخصية بإعمال الفكر الحر الناقد، مع مراعاة الغير، وذلك ليقين الطفل بأنه محبوب مقبول لذاته.

إلا أن أكبر عائق لذلك هو الوضع الدوني للأم في بعض الأسر، التي تفتقد الحوار الحر والصريح والصادق بين الزوجين، لغياب التفاهم والتقدير بينهما، والأخيران يعدان شرطين أساسيين للحوار الفعال، وغياب الحوار بين الوالدين ينعكس على علاقاتهما بالأطفال، فيقيمان معهم علاقات أحادية الجانب، تتسم في الغالب بالتسلط أو الإهمال.

إن الأم التي تفتقد السعادة في حياتها الزوجية، لا يمكن لها أبدا أن تتجه في تنشئتها لأبنائها اتجاها يسمح لهم بالنمو السليم، ويلبي حاجاتهم النفسية، ويوفر لهم الأمن النفسي والبدني. لأن قلقها ينعكس على حياتها وعلاقاتها بأبنائها، وانشغالها بمشاكلها يجعلها لا تولي أبناءها اهتماما، ويهدف سلوكها أساسا إلى تحقيق توازنها النفسي الداخلي (١٣).

إن الإسلام وسائر المواثيق القانونية الدولية والوطنية تعتبر الأسرة الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع، وتوجب لها من الحقوق والامتيازات الكثير الذي ماتزال مجتمعاتنا تتغاضى عنه، كما تنص تلك الشرائع والقوانين على أن للأمومة والطفولة، بشكل خاص، الحق في رعاية ومساعدة خاصتين لضمان أمنهما، وسلامتهما البدنية والنفسية.

هوامش

١- الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة، مؤسسة دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٥م، ص ٢٢٨.

٢- رزوق، أسعد (ترجمة): موسوعة علم النفس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م.

٣- شرابي، هشام: مقدمات لدراسة المجتمع العربي، ١٩٧٥م ص: ١٠٠-١٠١.

٤- زهران، حامد: علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ١٩٤.

٥- محمود السيد أبوالنيل، علم النفس الاجتماعي، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م، ج٢، ص٤٩.

٦- مسلم حسب حسين، الأسس التربوية والبيئية للانحراف العصبي، مجلة آفاق عربية، عدد ١١و١٢، (١٩٨٢م)، ص ١٣٨.

٧- ج. ب. جيلفورد، ميادين علم النفس (ترجمة بإشراف يوسف مراد)، دار المعارف، مصر، ١٩٦٦م، الجزء ٢، ص ٣٦٥.

٨- مسلم حسب حسين، المرجع السابق نفسه.

٩- محمود السيد أبوالنيل، مرجع سابق، ص ٥٢.

١٠- عبد عون عبد علي، الجريمة وجنوح الأحداث، مجلة الباحث، بيروت، عدد ٣٥و ٣٦، ص ٥٩.

١١- صباح حنا هرمز، التنشئة الاجتماعية وأثرها على سلوك الأطفال، مجلة الجامعة (بغداد)، عدد ٣، السنة ١٠، (١٩٧٩م)، ص ١٠٥.

١٢- محمود السيد أبوالنيل، مرجع سابق، ص ٥٢.

١٣- الصراف، قاسم علي، دراسة في أثر الجنسية والمستوى التعليمي للأم الخليجية، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، العدد رقم ٦٠، سنة ١٩٨٩م ص ١٤٧.

ضم عددا من مقتنيات جامعة ليدن الهولندية

معرض المخطوطات الإسلامية بالمسجد الكبير

تقرير وتصوير:
علاء عبدالفتاح

بمناسبة الاحتفال بمرور خمسين عاما من العلاقات الدبلوماسية بين دولة الكويت ومملكة هولندا، نظمت سفارة هولندا في الكويت، بالاشتراك مع مركز الكويت للفنون الإسلامية، معرض المخطوطات الإسلامية في الفترة من ٧ إلى ١١ ديسمبر الماضي أمام بهو القاعة الأميرية بالمسجد الكبير.

جاء المعرض تحت عنوان «صور عن الجمال الشرقي»، وضم لوحات من مقتنيات جامعة ليدن حازت إعجاب الزائرين لفرادتها، حيث فن الخط والمنمنمات والزخارف.

انقسمت لوحات المعرض إلى خمسة موضوعات: فن الخط، تصوير مكة والمدينة، منمنمات من الأعمال العلمية والشعرية، وتصميمات الزهور، والأشكال الهندسية. ومن المخطوطات النادرة التي توقف عندها الزائرون طويلا طَيّة من القرآن الكريم بالخط الكوفي، ترجع إلى القرن التاسع الميلادي، ومخطوطة قرآنية من سومطرة (١٨٧٣م)، ومنمنمتان ذاتا إطار ذهبي من كتاب «دلائل الخيرات» للجزولي من تركيا (١٨٣٧م - ١٢٥٣هـ)، فضلا عن أقدم نسخة عربية مصورة في العالم من النص المنقح لكتاب علم النباتات الشهير «كتاب الحشائش» لمؤلفه الحكيم الإغريقي ديسقوريدوس (سمرقند ٤٧٥هـ - أوائل ١٠٨٣م).

من اللوحات المعروضة

■ **لوحة كتاب «دلائل الخيرات» للجزولي (كشمير القرن الثامن عشر)**

ركز الرسام هنا على تصوير الحرمين، فالكعبة والحرم الشريف بمكة في الصفحة اليمنى، ومسجد الرسول ﷺ في اليسرى. ورسم كلا المكانين بإسقاط مسطح مثلما يظهر من اتجاه الكعبة في المركز والمنبر والمنارات في الأركان. وما يبدو في المنمنمة كحدود ذات كوات هو أروقة مقببة تتدلى منها المصابيح التي تحيط بصحن المبنيين.

■ **تاريخ مكة المشرفة والمدينة المنورة (تركيا العثمانية، ٢٢ شوال ١٠٠٥هـ - ٨ يونيو ١٥٩٧م)**

تظهر هذه المنمنمة المزدوجة على اليمين إسقاطا مسطحا للمسجد الحرام بمكة، حيث الكعبة في المنتصف، وعلى اليسار تظهر إحدى شعائر الحج في مكة، ويظهر موضع جبلي الصفا والمروة (في الصورة في الركن الأيسر وأسفل الصفحة على التوالي). وعلى الحجيج السعي سبع مرات بين الجبلين إحياء لذكرى سعي السيدة هاجر بحثا عن الماء لولدها إسماعيل، وبعون الله ومساعدته انشقت لها عين زمزم.

■ **كتاب «الحشائش» لديسقوريدوس (الترجمة العربية) (سمرقند، رمضان ٤٧٥هـ - أوائل ١٠٨٣م)**

تعد أقدم نسخة عربية مصورة في العالم من النص المنقح لكتاب علم النباتات الشهير «الحشائش» لمؤلفه الحكيم الإغريقي ديسقوريدوس، الذي عاش في القرن الأول. في الصفحة اليمنى تعرض صورة لقصب الذريرة القوي الرائحة، وعلى اليسرى، شجرة تستوطن جنوب شبه الجزيرة العربية يستخرج منها عصارة راتينجية عطرية، كما يعرض أيضا لطريقة استخراج هذه العصارة. وكانت كلتا النبتتين تستخدمان في صناعة الدواء والعطور.

■ **التصريف لمن عجز عن التأليف، أبو القاسم الزهراوي (القرنان ١٤ و١٥)**

يعرض هنا لسبع آلات طبية مع وصف محدد لاستخدامها في الجراحة، وهي جزء من دليل طبي كتبه أبوالقاسم الزهراوي (المتوفى حوالي ١٠٠٩م)، الطبيب الذي عاش في القرن العاشر في قرطبة المورسكية.

فقد راعه الإهمال الذي أصاب علم الجراحة في عصره، فنشر علمه بكتابة دليل للجراحة مصحوب برسومات شارحة. وعندما ترجم هذا العمل إلى اللاتينية أثر بدوره في الأطباء الأوروبيين.

■ **لوحة جغرافيا الإصطخري (٥٨٩هـ - ١١٩٣م)**

تعد خريطة العالم هنا أول الرسومات في النسخة المختصرة للكتاب الشهير لعالم الجغرافيا الإصطخري (القرن العاشر). وقد وضع الشمال في أسفل الخريطة بينما وضع الجنوب في أعلاها، وبها نسترجع النقوش الكوفية المطولة قرب حواف الصفحة المزدوجة. والبحر تمثله الدائرة المتحدة المركز مع دائرة الأرض التي تحيط بها، وقد بلي اللون الأزرق في معظم أجزائها. ونرى أعلى الجزء الأزرق ذي النقاط الحمراء الثلاث على اليمين والذي يمثل البحر المتوسط إشارة إلى المغرب ومصر وسوريا.

■ **الجزء الثامن من كتاب الفلاحة النبطية، ابن وحشية (مصر، بين ١٥٠١ و١٥١٦م)**

تشير هذه الصفحة الافتتاحية ذات اللون الذهبي والأزرق والأبيض والأخضر إلى انتماء راعي المخطوطة إلى الطبقة الملكية.

وبالفعل تخبرنا الحلية في المنتصف أن المخطوطة قد صنعت لمكتبة السلطان الغوري الذي حكم دولة المماليك بين ١٥٠١م و١٥١٦م. وقد ذكر عنوان الكتاب في الإطار العلوي، بينما كتب اسم المؤلف في الإطار السفلي. كما أضافت جامعة ليدن علامة ملكيتها (الاختصار اللاتيني ACAD.LUGD) مقلوبة في الجزء العلوي، في حين كتب نص هبة الدبلوماسي الهولندي ليفينوس وارنر في الأسفل، مقلوبا أيضا.

الهولنديون جمعوا اللوحات

في كلمته الافتتاحية لكتيب شارح للوحات المعرض قال السفير الهولندي في الكويت نيكولاس بيتس: «نأمل أن يزين هذا المعرض للفن الإسلامي بالمسجد الكبير احتفالاتنا بمرور ٥٠ عاما من العلاقات الهولندية الكويتية»، مضيفا: «يعشق الهولنديون الفن، ومنذ العصر الذهبي الهولندي بدأوا بجمع اللوحات والفخار من مختلف الأماكن. وجمعوا أيضا مجموعة رائعة من المخطوطات العربية التي لا تقدر بثمن، بعضها يعرض في المسجد الكبير».

■ **كتاب «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» (٦٤٦هـ - ١٢٤٩م)**

تقدم صفحة محددة بالذهب والأزرق كل جزء من الأجزاء الأربعة لهذه المخطوطة، ويحتوي الإطار الأفقي في المنطقة العليا على العنوان واسم المؤلف، بينما تحتوي المساحة الرئيسية على تصميم مكرر من تعريشة من شكل معينات ذات فصوص، وتضم بداخلها تصميما لنبات ذهبي على خلفية تتبدل بين اللونين الأزرق والأحمر. وكثيرا ما استخدم هذا التصميم الزخرفي الذي يعمد إلى إطارات لتقسيم السطح إلى وحدات صغيرة الحجم وملء كل وحدة بتصميم في أعمال الخشب والرخام.

السبق الإسلامي في حماية البيئة الطبيعية للمدن

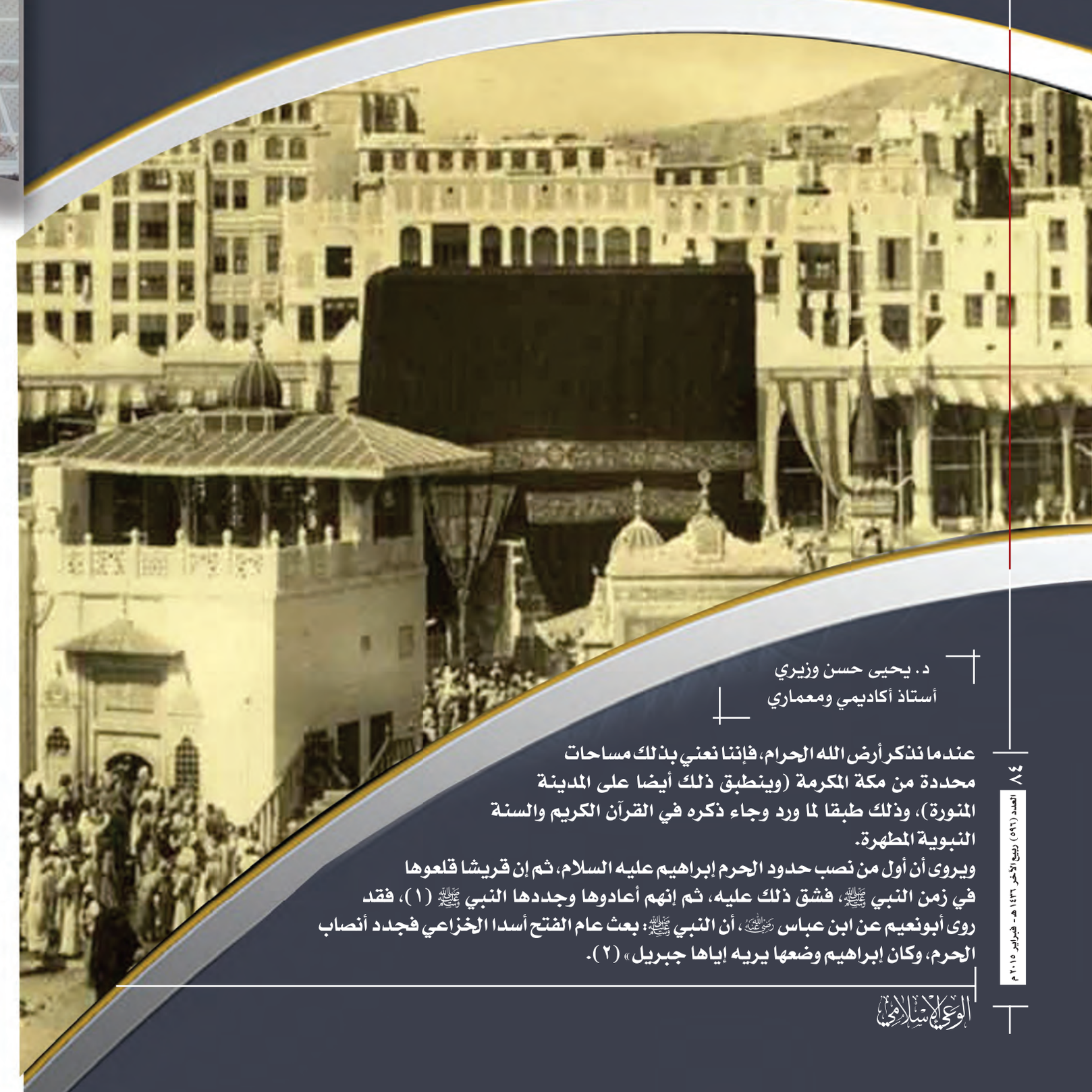

د. يحيى حسن وزيري
أستاذ أكاديمي ومعماري

عندما نذكر أرض الله الحرام، فإننا نعني بذلك مساحات محددة من مكة المكرمة (وينطبق ذلك أيضا على المدينة المنورة)، وذلك طبقا لما ورد وجاء ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ويروى أن أول من نصب حدود الحرم إبراهيم عليه السلام، ثم إن قريشا قلعوها في زمن النبي ﷺ، فشق ذلك عليه، ثم إنهم أعادوها وجددها النبي ﷺ (١)، فقد روى أبونعيم عن ابن عباس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: بعث عام الفتح أسدا الخزاعي فجدد أنصاب الحرم، وكان إبراهيم وضعها يريه إياها جبريل» (٢).

ويخبرنا القرآن الكريم عن حرمة مكة المكرمة في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (القصص:٥٧)، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٦٧)، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ (النمل:٩١)، كما يوضح القرآن الكريم في موضع آخر حرمة الصيد على المحرم في قول الله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (المائدة:٩٦).

ويوضح الرسول ﷺ المعاني الجليلة الواردة في الآيات القرآنية الكريمة السابقة، في الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الحج عن حرمة مكة (٣): عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «لا هجرة ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا» وقال يوم الفتح: «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها. فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: إلا الإذخر».

فالحديث الشريف ينهى بوضوح عن قطع أشجار الحرم ونباته، وإن كانت شوكا، كما ينهى عن تنفير صيد الحرم، فما بالنا بصيده، وهو ما يشير إلى أهمية المحافظة على البيئة الطبيعية لمكة المكرمة بكل عناصرها النباتية والحيوانية.

كما أنه يحرم القتال بمكة المكرمة، ففي الصحيحين: أن عمرو بن سعيد لما أراد بعث الناس إلى مكة لقتال ابن الزبير، قال له أبوشريح: «يا أيها الأمير أحدثك حديثا سمعته أذناي ووعاه قلبي، أنه ﷺ قال: إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فيها، فقولوا: إن الله عزوجل أذن لرسوله، ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وجدير بالذكر هنا أن نوضح أن الرسول ﷺ، قد حرّم المدينة المنورة وقرر حدود الأرض الحرام بها، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه (٤)، عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المدينة حرم من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدث، من أحدث حدثا، فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين»، والحدث: الأمر الحادث المنكر الذي ليس بمعتاد ولا معروف في السنة، وأما المحدِث فيروى بكسر الدال (وهو فاعل الحدث) لا بفتحها وهو الأمر المبتدع نفسه.

كما روى الإمام مسلم في صحيحه (٥)، عن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وأنا أحرم ما بين لابتيها». (يريد المدينة). و«اللابّة»: الحرة، وهي الأرض ذات الحجارة السود، والمدينة بين حرتين.

وبذلك يتضح لنا سبق المنهج الإسلامي من خلال القرآن والسنة الصحيحة في حماية البيئة الطبيعية للمدن، وهو بذلك قد سبق ما يعرف اليوم بنظام «المحميات الطبيعية» بتحريمه الصيد أو قطع الأشجار في مكة والمدينة، ولا يظن أحد أنني أذهب بالحديث بعيدا عن السبب الذي سيق من أجله

وهو تقديس هذه الأماكن، وأن تبقى بقعا آمنة يأمن كل مخلوق فيها على نفسه، غير أن هذا الأمر يجعل موضوع المحميات الطبيعية غير غريب أيضا عن الحس الإسلامي.

مما سبق يمكن أن نحدد الأحكام المتعلقة بالأرض الحرام والتي تتصل ببيئتها وحدودها، فيما يلي (٦):

١- تحريم تنفير الصيد بمكة وقتله، ويستثنى من ذلك الفواسق الخمس لحديث رسول الله ﷺ.

٢- تحريم قطع الشجر والشوك والخلى، ويستثنى من ذلك نبات الإذخر لحديث الرسول ﷺ.

٣- تحريم أخذ لقطة الحرم إلا للتعريف.

ومن الأشياء المهمة أيضا التي تتعلق بالحرم المكي هو تحريم القتال وسفك الدماء فيه، فقد روى الإمام البخاري عن أبي شريح رضي الله عنه، عن النبي ﷺ (٧): «فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بهَا دما ».

ولم يأذن الله لرسوله ﷺ وللمسلمين بقتال فيها، إلا إذا ابتدرهم الكافرون بالقتال، قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾ (البقرة:١٩١).

وبناء على ما سبق فإننا إذا ما عقدنا مقارنة مع القوانين الوضعية بشأن المحميات الطبيعية، وما ورد في القرآن والسنة بشأن أحكام الحرم المكي، يتضح لنا سبق وتميز المنهج الإسلامي في هذا الصدد.

فإذا أخذنا القانون المصري في هذا الشأن كنموذج، فقد صدر القانون رقم ١٠٢ لسنة ١٩٨٣م في شأن المحميات الطبيعية بمصر، لتوفير الحماية للموارد الطبيعية والتنوع البيولوجي، وللحفاظ على الاتزان البيئي (٨)، نجد أن المادة الأولى من هذا القانون تعرف المحمية الطبيعية على أنها: «مساحة من الأرض أو المياه الساحلية أو الداخلية تتميز بما تضمه من كائنات حية، أو نباتات، أو حيوانات، أو أسماك، أو ظواهر طبيعية ذات قيمة ثقافية، أو علمية، أو سياحية، أو جمالية». أما المادة الثانية من نفس القانون فتضع ضوابط التعامل مع تلك المحميات كما يلي: «يحظر القيام بأعمال، أو تصرفات، أو أنشطة، أو إجراءات من شأنها تدمير أو إتلاف أو تدهور البيئة الطبيعية، أو الإضرار بالحياة البرية أو البحرية أو النباتية أو المساس بمستواها الجمالي بمنطقة المحمية».

أي إن قانون المحميات الطبيعية في مصر يحظر تدمير أو إتلاف الحياة البرية (الحيوانات)، أو البحرية (الأسماك)، أو النباتية، وهو ما سبق إليه المنهج الإسلامي (القرآن والسنة) بحوالي أربعة عشر قرنا من الزمان، بل وتفوّق على القانون الوضعي ليس في قتل صيد البر فقط بل وتنفيره أيضا، ووصل نهيه بالنسبة للحياة النباتية بعدم قطع الشوك وليس فقط الأشجار الموجودة في أرض الله الحرام، بل وتحريم القتال وسفك الدماء.

وفي المادة السابعة من قانون المحميات الطبيعية بمصر عقوبات تتراوح ما بين الغرامة المالية والحبس، لمن لم يلتزم بما ورد في مواد القانون، وفي هذا الشأن أيضا نجد أن علماء المسلمين أوجبوا إيقاع عقوبة على من يقطع شجر الحرم.

فقد قال الواقدي (٩): «لما أرادت قريش البنيان قالوا لقصي: كيف نصنع بشجر الحرم؟ فنهاهم وحذرهم في قطعها وخوفهم من العقوبة في ذلك، فكان أحدهم يحوق بالبنيان حول الشجرة حتى تحصل في منزله، قال: وأول من رخص في قطع شجر الحرم في البنيان عبدالله بن الزبير، حين ابتنى دورا بقعيقعان (جبل بمكة)، لكنه جعل دية كل شجرة بقرة، وكان يروى عن عمر أنه قطع دوحة كانت في دار أسد بن عبدالعزى، وكانت تنال أطرافها ثياب الطائفين بالكعبة، وذلك قبل أن يوسع المسجد، فقطعها عمر رضي الله عنه، ووادها (دفع ديتها) ببقرة».

وقال النووي (١٠): «اتفق العلماء على تحريم قطع أشجار مكة التي لا يستنبتها الآدميون في العادة، وعلى تحريم قطع خلاها وهو الرطب من الكلأ، واختلفوا في ضمان الشجر إذا قطع، فقال مالك: يأثم ولا فدية، وقال الشافعي وأبوحنيفة: عليه الفدية، وأوجب أبوحنيفة القيمة، والشافعي في الكبيرة بقرة والصغيرة شاة، وكذا جاء عن ابن عباس».

الخلاصة:

سيظل المنهج الإسلامي سبّاقا ومهيمنا على القوانين التي يضعها البشر في كل زمان ومكان، وهو ما ظهر في دراستنا هذه التي تناولت سبق القرآن والسنة في حماية البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين، واستخدام مصطلح «الأرض الحرام»، وهو مصطلح شرعي تتعلق به أحكام وواجبات شرعية، ولكن في نفس الوقت يسهم بطريقة مباشرة في الحفاظ على البيئة الطبيعية للحرمين الشريفين، وكذلك الارتقاء بالتربية البيئية للمسلمين زوار الأماكن المقدسة في الحرمين الشريفين، وتهذيب سلوكهم في التعامل مع البيئة النباتية والحيوانية لأرض الله الحرام، مما ينعكس على سلوكهم بصفة عامة في بقاع الأرض المختلفة.

الهوامش

(١) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٦٣.

(٢) انظر كتاب: الإصابة في تمييز الصحابة ١/١٨٣.

(٣) انظر صحيح مسلم: (باب تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام).

(٤) انظر صحيح البخاري: (كتاب فضائل المدينة).

(٥) انظر صحيح مسلم: (كتاب الحج).

(٦) البلد الحرام فضائل وأحكام، إعداد كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى (١٤٢٣هـ)، ص٤٣ وما بعدها.

(٧) انظر صحيح البخاري: (باب لا يحل القتال بمكة).

(٨) يمكن الاطلاع على القانون المصري الخاص بالمحميات الطبيعية على شبكة الإنترنت.

(٩) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ١٥٥.

(١٠) بدر الدين الزركشي، إعلام الساجد بأحكام المساجد، ص ٢٢٦ ومابعدها.

تدبر في حالك

محمد فريد فرج
كاتب صحفي

يبصر أحدكم القذاة (القشة الرفيعة) في عين أخيه، وينسى الجذع (ساق النخل) في عينه (ابن حبان ٥٧٦١).. بهذه الكلمات الموجزة يشير من أوتي جوامع الكلم ﷺ إلى داء متأصل في كثير من النفوس المريضة؛ وهو الانشغال بذكر العيوب الصغيرة للآخرين عن رؤية العيوب الكبيرة للنفس. ويجر هذا الداء على أصحابه عقوبات، نذكر بعضها:

العقوبة الأولى: أنه يدفع صاحبه إلى كشف عيوب نفسه من حيث لا يدري. يحكى أن أعرابيا سمع رجلا يقع في الناس فقال: «قد استدللت على عيوبك بكثرة ذكرك لعيوب الناس، لأن الطالب لها يطلبها بقدر ما فيه منها».

قال الشاعر:

وأجرأ من رأيت بظهر غيب
على عيب الرجال أخو العيوب

(صيد الأفكار ٤٩٢/١).

العقوبة الثانية: أنه يبرز صاحبه في صورة هزلية مضحكة تستحق سخرية الناس؛ إذ يرونه منكرا عليهم الهفوات بينما هو متلطخ بالطامات، مما يفقد موعظته أي قيمة.

ولله در القائل:

يا أيها الرجل المقوم غيره
هلا لنفسك كان ذا التقويم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

(غذاء الألباب ٢١٨/١).

العقوبة الثالثة: أنه يدفع الناس للتفتيش عن معايب صاحبه، ولله در الشافعي إذا يقول:

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى
ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة
فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معايبا
فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى
ودافع ولكن بالتي هي أحسن

(غرر الخصائص ١٣٤/١).

وروى ابن مقلة في ذلك عن ثعلب:

إذا ما تعيب الناس عابوا فأكثروا
عليك وأبدوا منك ما كنت تستر
فلا تعبن خلقا بما فيك مثله
وكيف يعيب العور من هو أعور

(تاريخ الإسلام ٢٤١/٢٤).

العقوبة الرابعة: أنه يجلب على صاحبه فضيحة الله له، ولله در القائل:

لا تكشفن من مساوي الناس ما ستروا
فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا
ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

(غرر الخصائص ١٣٤/١).

ولذلك تنزه السلف عن هذا الداء العضال، وانشغلوا بإصلاح عيوبهم عن عيوب غيرهم.

يحكى أنهم قالوا للربيع بن خثيم: «ما نراك تعيب أحدا»!

قال: «لست عن نفسي راضيا، فأتفرغ لذم الناس»، وأنشد:

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها
لنفسي في نفسي عن الناس شاغل

(ربيع الأبرار ٣٢٢/٢).

وقال محمد بن سوقة: «ما أحسب رجلا يفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه» (ربيع الأبرار ٣٢٢/٢).

وأوصى جعفر الصادق ابنه موسى قائلا: «يا بني، من استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

يا بني، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته.

يا بني، إياك أن تزري بالرجال، فيزرى بك.

يا بني، وإياك والتعرض لعيوب الناس فمنزلة المتعرض لعيوب الناس كمنزلة الهدف».

(تهذيب الكمال ٨٩/٥: ٩٠).

ولكن حذار من القعود عن واجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تذرعا بعيوب النفس، فليس هذا المقصد، وإنما المقصد أن البصير كما يجتهد في تنقية عين أخيه من القشة الرفيعة، فمن باب أولى ألا ينشغل عن تنقية عينه من الخشبة الكبيرة.

ولله در القائل:

إذا لم يعظ في الناس من هو مذنب
فمن يعظ العاصين بعد محمد؟

(غذاء الألباب ٢١٩/١).

كنوز الذاكرة .. ركن نرجع فيه بالقارئ الكريم إلى بدايات القرن الماضي وما تلاه، نقرأ لعباقرة ذاك الزمان، بحروف وطباعة تلك الأيام، حتى نعيش معا الذكرى بشكلها ومضمونها.

الرحالون المسلمون

للأستاذ أحمد مظهر العظمة

مفتش الدولة ورئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي بدمشق

مما يفخر به المعجبون بالغرب الرحلات التاريخية والعلمية ، وإنها لفخرٌ حقاً ، ولكن المسلمين كانوا أسبق إليها أيام أن كانوا بأحكام دينهم عاملين .

وقد ساعد الإسلامَ على ذلك أن العرب بحكم بيئتهم ميالون إلى التنقل ، وقد كانت لقريش رحلة الشتاء والصيف طلباً للتجارة . وقد حث الإسلام المسلمين على الضرب في الأرض فاتحين ومعلمين هادين؛ فكثرت الرحلات العلمية وأثمرت الثمرات الطيبة اليانعة .

١ — فكان أهل (الحديث يرحلون في طلب الأثر ويقطعون ظهور الإبل إلى المرامي البعيدة ، وإلى كل شرق وصقع يعلمون أن فيه عن مصادر الحديث أحدا) (١).

روى أحمد أن جابر بن عبد الله الأنصاري بلغه عن عبد الله بن أنيس الجهني حديث سمعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاشترى بعيراً ثم شدّ رحله وسار إليه شهراً حتى قدم عليه الشام وسمعه منه .

وكان مسروق يرحل في حرف ، وأبو سعيد كذلك (٢) .

و (قام البخاري برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث ، فزار خراسان والعراق ومصر والشام ، وسمع من نحو ألف شيخ) (٣) .

٢ — ثم تبعهم أهل اللغة (يطلبون جفاة الأعراب . . . ويأخذون عن القبائل التي بعدت عن أطراف الجزيرة وبقيت في سرة البادية أو فاضت حولها (واستمروا يرحلون إلى أواخر القرن الرابع) (٤) .

٣ — وكانت الرحلات العلمية وغيرها من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق كرحلة ابن جبير الأندلسي (المتوفى ٦١٤) .

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٣٤٢ .
(٢) جامع بيان العلم للقرطبي ص ٩٤ .
(٣) الأعلام للزركلي ٣ ص ٨٦٤ عن تذكرة الحفاظ ٢ : ٣ .
(٤) تاريخ آداب العرب للرافعي ص ٣٤٣ و ٣٤٥ .

أحمد مظهر العظمة (١٩٠٩ - ١٩٨٢م)

داعية سوري، رئيس تحرير مجلة التمدن الإسلامي منذ تأسيسها عام ١٩٣٣م، هو أحد وجهاء عائلة العظمة الدمشقية. عمل مدرسا للغة العربية في بداية حياته الوظيفية، ثم استلم رئاسة مكتب تفتيش الدولة السورية واستمر في منصبه فيما بعد ولحين وفاته. له العديد من المؤلفات؛ منها «تفسير جزء عم» و«تفسير جزء تبارك» و«كلمات».

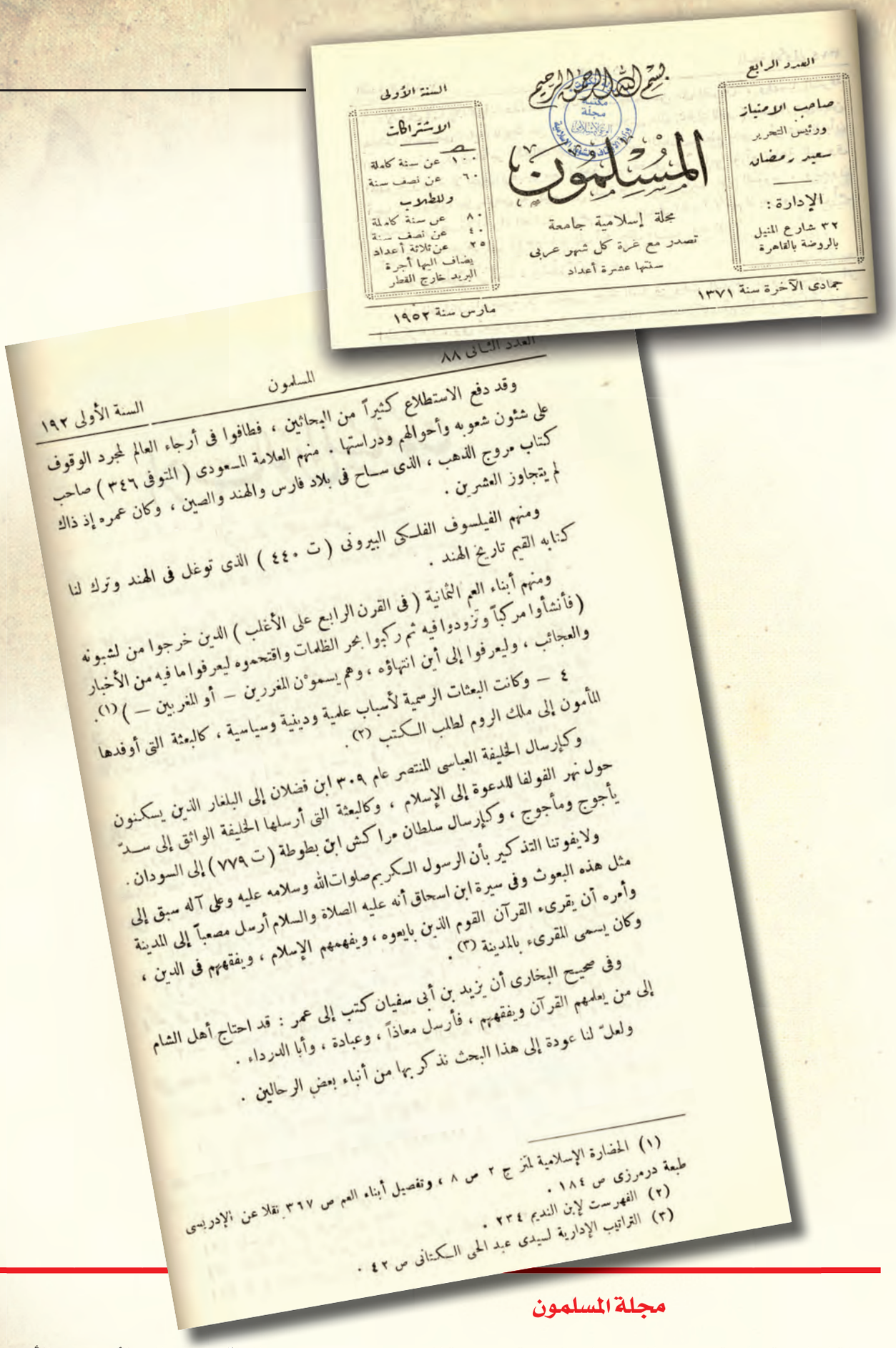

العدد الرابع

صاحب الامتياز
ورئيس التحرير
سعيد رمضان

الإدارة :
٣٢ شارع المنيل
بالروضة بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلمون

مجلة إسلامية جامعة
تصدر مع غرة كل شهر عربي
سنتها عشرة أعداد

السنة الأولى

الاشتراكات

١٠٠	عن سنة كاملة
٦٠	عن نصف سنة
	وللطلبة
٨٠	عن سنة كاملة
٤٠	عن نصف سنة
٢٥	عن ثلاثة أعداد

يضاف اليها أجرة البريد خارج القطر

جمادى الآخرة سنة ١٣٧١

مارس سنة ١٩٥٢

العدد الثانى ٨٨

المسلمون

السنة الأولى ١٩٢

وقد دفع الاستطلاع كثيراً من البحاثين ، فطافوا فى أرجاء العالم لمجرد الوقوف على شئون شعوبه وأحوالهم ودراستها . منهم العلامة المسعودى (المتوفى ٣٤٦) صاحب كتاب مروج الذهب ، الذى ساح فى بلاد فارس والهند والصين ، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين .

ومنهم الفيلسوف الفلكى البيرونى (ت ٤٤٠) الذى توغل فى الهند وترك لنا كتابه القيم تاريخ الهند .

ومنهم أبناء العم الثمانية (فى القرن الرابع على الأغلب) الذين خرجوا من لشبونه (فأنشأوا مركباً وتزودوا فيه ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه ، وهم يسمون الغررين — أو المغربين —)(١).

٤ — وكانت البعثات الرسمية لأسباب علمية ودينية وسياسية ، كالبعثة التى أوفدها المأمون إلى ملك الروم لطلب الكتب (٢).

وكإرسال الخليفة العباسى المنتصر عام ٣٠٩ ابن فضلان إلى البلغار الذين يسكنون حول نهر الفولغا للدعوة إلى الإسلام ، وكالبعثة التى أرسلها الخليفة الواثق إلى سدّ يأجوج ومأجوج ، وكإرسال سلطان مراكش ابن بطوطة (ت ٧٧٩) إلى السودان .

ولايفوتنا التذكير بأن الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله سبق إلى مثل هذه البعوث وفى سيرة ابن اسحاق أنه عليه الصلاة والسلام أرسل مصعباً إلى المدينة وأمره أن يقرىء القرآن القوم الذين بايعوه ، ويفهمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، وكان يسمى المقرىء بالمدينة (٣).

وفى صحيح البخارى أن يزيد بن أبى سفيان كتب إلى عمر : قد احتاج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم ، فأرسل معاذاً ، وعبادة ، وأبا الدرداء .

ولعلّ لنا عودة إلى هذا البحث نذكر بها من أنباء بعض الرحالين .

(١) الحضارة الإسلامية لمتز ج ٢ ص ٨ ، وتفصيل أبناء العم ص ٣٦٧ نقلا عن الإدريسى طبعة درمرزى ص ١٨٤ .
(٢) الفهرست لابن النديم ٢٣٤ .
(٣) التراتيب الإدارية لسيدى عبد الحى الكتانى ص ٤٢ .

مجلة المسلمون

مجلة إسلامية جامعة، تعتني بالموضوعات الهادفة في تربية المجتمع ودعوته، وتفسير القرآن، ونقد الخطأ وتهذيب الأخلاق، وغيرها، صاحِب امتياز المجلة ورئيس تحريرها هو الأستاذ سعيد رمضان، وقد صدر العدد الأول منها في غرة ربيع الأول سنة ١٣٧١هـ، الموافق ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٥١م. من أبرز كتابها: البهي الخولي، محمد أبو زهرة، سيد قطب، محمود شاكر، أبو الحسن الندوي، مصطفى الزرقا، مصطفى السباعي، محب الدين الخطيب، عمر التلمساني.

إعداد : د. محمود محمد الكبش
الباحث بوحدة البحث العلمي
(إدارة الإفتاء)

لعظيم شأن الفتوى في النوازل المعاصرة، وتقريبا للعلم والاستفادة منه؛ استحدثت هذه الصفحة المباركة - في كل عدد - من أجل عرض نازلة معينة، بالوقوف على مصادرها، ومظانها المختلفة، وتجلية صورها، وبيان أحكامها، وأدلتها.

نوازل الاعتقادات: ما يتعلق بأحكام القرآن الكريم

حكم تغيير رسم المصحف العثماني؛ ليوافق الرسم الإملائي، أو الرسم التعليمي

- الخلاصة الحكمية: يبقى رسم المصحف على الرسم العثماني، ولا ينبغي تغييره ليوافق قواعد الإملاء الحديثة؛ وذلك محافظة على كتاب الله من التحريف، واتباعا لما كان عليه أئمة السلف، إلا عند من يرى جواز ذلك في مجالات التعليم والتدريس؛ فلا بأس بمخالفة الرسم العثماني، والكتابة وفقا لقواعد الإملاء المتعارف عليها، وفق شروط محددة.

- القرارات والتوصيات الصادرة من المجامع الفقهية، والهيئات الشرعية **بخصوص هذا الموضوع:**

أولا: قرار «مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة»؛ شعبان (١٣٨٨هـ)؛ الفقرة الثانية؛ بعنوان: «حكم كتابة القرآن الكريم بالرسم التعليمي»، وجاء فيه:

١- يقرر المؤتمر تقريرا إجماعيا مؤكدا وموثقا بأن ترتيب السور والآيات في القرآن الكريم هو ترتيب توقيفي، تلقاه الرسول عليه الصلاة والسلام بوحي إلهي، وأن هذا الترتيب هو الذي جاء في المصحف الإمام عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ويعلن المؤتمر أنه لا يجوز لأحد أن ينحرف عنه أو يخالفه بأي وجه من الوجوه.

٢- يقرر المؤتمر وجوب المحافظة على رسم مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه في طبع القرآن الكريم في مصحف كامل، أو في طبع أجزاء منه، ولا يجوز استعمال الرسم التعليمي إلا إذا كان ذلك لبعض الآيات ضمن كتب تعليمية، أو لغرض اقتباس بعض الآيات أو الاستشهاد بها.

٣- يوصي المؤتمر بعدم الجمع بين قراءات القرآن الكريم عند تلاوته في المجلس الواحد، في المحافل أو الإذاعة، أو التلفزيون، أو في تسجيله على أي من وسائط التسجيل الصوتي.

انتهى القرار.

● **التعليق**

الذي يظهر من هذا القرار: وجوب المحافظة على رسم مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه في طبع القرآن الكريم في مصحف كامل، أو في طبع أجزاء منه، وأنه لا يجوز تغييره إلا لأغراض التعليم.

فالقرار - كما هو واضح - عام مخصوص.

ثم صدر في عام (١٣٩٩هـ) قرار من هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (٧١)؛ يحمل العنوان التالي: «حكم كتابة القرآن الكريم بطريقة الإملاء العادية»، وجاء فيه: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه وبعد: ففي الدورة الرابعة عشرة لمجلس هيئة كبار العلماء المنعقدة في الطائف في المدة من العاشر من شهر شوال إلى الحادي والعشرين فيه نظر المجلس فيما رفعه حسين حمزة صالح مدرس العلوم الدينية بمدرسة الإمام أبي حنيفة الابتدائية بمكة.. إلى جلالة الملك المعظم يطلب فيه المعونة في كتابة المصحف بطريقة الإملاء العادية، والمحال إلى سماحة الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد برقم ٣/ص/٢٢٠٣٥ في ١٣٩٨/٩/٢٢هـ. واطلع على البحث الذي أعدته اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في (حكم كتابة القرآن بطريقة الإملاء العادية وإن خالف ذلك الرسم العثماني).

وبعد دراسة الموضوع ومناقشته وتداول الرأي فيه.. تبين للمجلس أن هناك أسبابا تقتضي بقاء كتابة المصحف بالرسم العثماني وهي:

١- ثبت أن كتابة المصحف بالرسم العثماني كانت في عهد عثمان رضي الله عنه وأنه أمر كتبة المصحف أن يكتبوه على رسم معين، ووافقه الصحابة، وتابعهم التابعون ومن بعدهم إلى عصرنا هذا، وثبت أن النبي ﷺ قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» فالمحافظة على كتابة المصحف بهذا الرسم هو المتعين؛ اقتداء بعثمان وعلي وسائر الصحابة، وعملا بإجماعهم.

٢- إن العدول عن الرسم العثماني إلى الرسم الإملائي الموجود حاليا بقصد تسهيل القراءة يفضي إلى تغيير آخر إذا تغير الاصطلاح في الكتابة؛ لأن الرسم الإملائي نوع من الاصطلاح قابل للتغيير باصطلاح آخر.. وقد يؤدي ذلك إلى تحريف القرآن بتبديل بعض الحروف أو زيادتها أو نقصها، فيقع الاختلاف بين المصاحف على مر السنين، ويجد أعداء الإسلام مجالا للطعن في القرآن الكريم. وقد جاء الإسلام بسد ذرائع الشر، ومنع أسباب الفتن.

٣- ما يخشى من أنه إذا لم يلتزم الرسم العثماني في كتابة القرآن أن يصير كتاب الله ألعوبة بأيدي الناس، كلما عنت

لإنسان فكرة في كتابته اقترح تطبيقها، فيقترح بعضهم كتابته باللاتينية أو غيرها، وفي هذا ما فيه من الخطر، ودرء المفاسد أولى من جلب المصالح.

وبناء على هذه الأسباب اتخذ المجلس القرار التالي:

يرى مجلس هيئة كبار العلماء أن يبقى رسم المصحف على ما كان بالرسم العثماني، ولا ينبغي تغييره ليوافق قواعد الإملاء الحديثة؛ محافظة على كتاب الله من التحريف، واتباعا لما كان عليه الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين.

والله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

انتهى القرار.

● التعليق

العادة في مثل هذه الاجتماعات تدون أسماء الحاضرين، ويشار إلى الاسم الغائب منهم، أو من له وجهة نظر تتعلق بالموضوع تقييدا، أو تخصيصا أو ما شابه ذلك.

- ومن بين المجتمعين من هيئة كبار العلماء: فضيلة الشيخ: محمد بن إبراهيم ابن جبير، حيث ألقى وجهة نظره حول موضوع كتابة المصحف حسب قواعد الإملاء الحديثة- الذي بحثه مجلس الهيئة في دورته المشار إليها آنفا؛ فقال: «بعد اطلاعي على البحث القيم الذي استوفى جميع أطراف الموضوع، والمعد من قبل اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء أثابها الله وبارك في جهودها.

وبعد المناقشة التي تمت في مجلس الهيئة برئاسة سماحة الشيخ عبدالله ابن حميد حول موضوع: «كتابة المصحف بغير الرسم العثماني» وحيث إن الحديث عن هذا الموضوع قديم، بحثه الأئمة - رحمهم الله - قبل أكثر من ألف سنة، وحكموا بما ظهر لهم من التحريم أو الكراهة أو الجواز، وصنفوا في ذلك المصنفات العديدة، ولازال بحث هذا الموضوع يتكرر بين آونة وأخرى إلى يومنا هذا.

وحيث إن قراءة القرآن من المصحف المكتوب بالرسم العثماني على وجه الصواب ستكون خاصة بمن يتلقاه عن القراء، أما الصغار فسوف يكون تعليمهم من تلك المصاحف عسيرا.

لذلك فإنني أرى أن تطبع المصاحف بالرسم العثماني؛ حفظا لهذا الأثر العظيم الذي هو أصل ديننا، على أن يعاد طبع الكلمات بالرسم الإملائي المعتاد على الهامش في حيز خاص، وذلك تسهيلا لتعلم الصغار وقراءة الكبار الذين لم يتلقوا القرآن عن قارئ.

وبهذا نجمع بين حفظ أهم شيء في تاريخ ديننا، وبين تسهيل التعليم وعدم اشتباه القارئين.

والله الموفق، وصلى الله على محمد، وآله وصحبه وسلم».

انتهت وجهة نظره.

● التعليق

لأجل ما في القرار السابق من هيئة كبار العلماء من الإطلاق والتعميم؛ أراد فضيلة الشيخ الجبير أن يبين وجهة نظره في الموضوع، وأن ذلك ليس على إطلاقه؛ فيجوز عنده أن يعاد طبع الكلمات بالرسم الإملائي المعتاد على هامش المصحف؛ في حيز خاص؛ وذلك تسهيلا لتعلم الصغار، وقراءة الكبار الذين لم يتلقوا القرآن عن قارئ.

وفي عام (١٣٩٩هـ)، عرض على المجمع الفقهي الإسلامي بمكة الخطاب المقدم من الشيخ هاشم وهبة عبد العال من جدة الذي ذكر فيه موضوع «تغيير رسم المصحف العثماني إلى الرسم الإملائي»، وبعد مناقشة هذا الموضوع من قبل المجلس واستعراض قرار هيئة كبار العلماء بالرياض رقم (٧١) السابق، وما جاء فيه من ذكر الأسباب المقتضية بقاء كتابة المصحف بالرسم العثماني.

ثم ذكروا ما سبق من قرار؛ فأقروه كما هو، ثم قالوا:

«وبعد اطلاع مجلس المجمع الفقهي الإسلامي على ذلك كله قرر بالإجماع تأييد ما جاء في قرار مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عدم جواز تغيير رسم المصحف العثماني، ووجوب بقاء رسم المصحف العثماني على ما هو عليه ليكون حجة خالدة على عدم تسرب أي تغيير أو تحريف في النص القرآني، واتباعا لما كان عليه الصحابة وأئمة السلف رضوان الله عليهم أجمعين.

أما الحاجة إلى تعليم القرآن، وتسهيل قراءته على الناشئة التي اعتادت الرسم الإملائي الدارج، فإنها تتحقق عن طريق تلقين المعلمين، إذ لا يستغني تعليم القرآن في جميع الأحوال عن معلم، فهو يتولى تعليم الناشئين قراءة الكلمات التي يختلف رسمها في قواعد الإملاء الدارجة، ولاسيما إذا لوحظ أن تلك الكلمات عددها قليل، وتكرار ورودها في القرآن كثير، ككلمة «الصلوة»، و«السموات»، ونحوهما، فمتى تعلم الناشئ الكلمة بالرسم العثماني سهل عليه قراءتها كلما تكررت في المصحف، كما يجري مثل ذلك تماما في رسم كلمة «هذا»، و«ذلك» في قواعد الإملاء الدارجة أيضا.

والله ولي التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا».

انتهى القرار.

● التعليق

يظهر للقارئ في هذا القرار مخرج آخر للحيلولة دون اعتماد الرسم الإملائي الحديث، وهو التعليم بالتلقين، فهذا القرار وافق على ما جاء عن هيئة قرار العلماء، ورد قضية الحاجة إلى التعليم باندفاعها بالتلقين من المعلمين والدارسين، ويبقى الرسم العثماني كما هو؛ لا سيما مع التكرار.

عنوان العقل

قال ابن رشيق: قيل: لايزال المرء مستورا وفي مندوحة ما لم يصنع شعرا، أو يؤلف كتابا، لأن شعره ترجمان علمه، وتأليفه عنوان عقله، وقال الجاحظ: من صنع شعرا، أو وضع كتابا، فقد استهدف، فإن أحسن فقد استعطف، وإن أساء فقد استقذف.

(العمدة ٩٥/١)

نصيحة وتحذير

حذر بعض الحكماء صديقا له صحبة رجل، فقال: احذر فلانا فإنه كثير المسألة، حسن البحث، لطيف الاستدراج، يحفظ أول كلامك على آخره، ويعتبر ما أخرت بما قدمت، فلا تظهر له المخافة، فيرى أن قد تحرزت، واعلم أن من يقظة الفطنة إظهار الغفلة مع شدة الحذر، فباثثه مباثثة الآمن، وتحفّظ منه تحفظ الخائف، فإن البحث يظهر الخفي الباطن، ويبدي المستكن الكامن.

(زهرة الآداب ٨٧٠/٣)

المعري يمدح عبد الوهاب المالكي

قال أبوالعلاء المعري وهو يمدح القاضي عبدالوهاب المالكي المتوفى سنة (٤٢٢هـ):

والمالكي ابن نصر زار في سفر
بلادنا فحمدنا النأي والسفرا
إذا تفقه أحيا مالكا جدلا
وينشر الملك الضليل إن شعرا

(المقتطفات النافعة من ثمار المطالعة، ص٢٢٢)

الأفئدة مزارع الألسن

قال الإمام الشافعي رحمه الله: إن الأفئدة مزارع الألسن، فازرع الكلمة الكريمة فيها؛ فإنها إن لم تنبت كلها نبت بعضها.

(مناقب الشافعي، للبيهقي ٧٦/٢)

مكفرات الذنوب

ذكر ابن القيم رحمه الله مكفرات الذنوب فقال: «تكفر: بالتوبة النصوح، والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة، ودعاء المسلمين لهم في حياتهم وبعد موتهم، وبالامتحان في البرزخ، وفي موقف القيامة، وبشفاعة من يأذن الله له في الشفاعة، وبصدق التوحيد، وبرحمة أرحم الراحمين. فهذه عشرة أسباب».

(إعلام الموقعين ٢١٨/٢)

الصعافقة

قال الشعبي: ما جاءك من أصحاب النبي ﷺ فخذه ودع عنك ما يقول هؤلاء الصعافقة.

والصعافقة، هم: الذين يدخلون السوق بلا رأس مال. أراد الذين لا علم لهم.

(شرح السنة، للبغوي ٣١٨/١)

القفال

العلامة أبوبكر عبدالله بن أحمد بن عبدالله المروزي القفال الخراساني، حذق في صناعة الأقفال، عمل قفلا بآلاته ومفتاحه زنة أربع حبات، فلما صار ابن ثلاثين سنة، آنس من نفسه ذكاء مفرطا، وأحب الفقه فأقبل على قراءته، حتى برع فيه وصار يضرب به المثل، توفي سنة (٤١٧هـ).

(سير أعلام النبلاء ٢٦٠/٣)

تربية المعلم وتربية الأب

قال بعضهم: إن تربية المعلم أهم من تربية الأب؛ لأن تربية الأب سبب لوجوده في الحياة الفانية، والمعلم سبب في الحياة الباقية.

(الكشكول للعلامة ابن عقيل النجدي ص ٢٦٧)

فوائد التأليف

قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «إن التأليف يثبت الحفظ، ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكشف الملتبس، ويكسب جميل الذكر، ويخلده إلى آخر الدهر»

(التقييد والإيضاح، ص ٢٥٥)

أشد الناس حسرة يوم القيامة

«أشد الناس حسرة يوم القيامة ثلاثة:
١. مملوك صالح يدخل الجنة، ومولاه يدخل النار.
٢. ورجل جمع المال من حل وحرام، ومنع حقوق الله منه، فيموت فيدخل النار بسببه، فيأتي وارثه فيجده مجموعا، فيبذله في محالّه من أوجه الخير؛ فيدخل الجنة، فالأول جمعه ودخل به النار، والثاني أنفقه ودخل به دار القرار.
٣. وعالم سوء ينجي الناس بعلمه وهو يصير إلى النار».

(القول العلي للسفاريني)

من عجائب الدنيا

«من عجائب الدنيا: قوم غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا، ثم الهم والإثم آجلا، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها ضرر لغيره، وإن كانت له فيها منفعة، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى تكونه، فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فاعجبوا لفساد هذه الأخلاق بلا منفعة».

(مداواة النفوس لابن حزم)

نصيحة

قال العلامة علي الطنطاوي رحمه الله: خذوها مني نصيحة من مجرب: دونوا كل ما يمر على أذهانكم من أفكار، وما يعتلج في نفوسكم من مشاعر، واكتبوه في حينه؛ فإنكم إن أجلتموه فتشتم عنه فلم تجدوه.

(ذكريات الطنطاوي ٢٤٩/١)

من درر الشافعي رحمه الله

- خير الدنيا والآخرة في خمس خصال: غنى النفس، وكف الأذى، وكسب الحلال، ولباس التقوى، والثقة بالله تعالى على كل حال.
- للمروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك.
- من علامة الصديق: أن يكون لصديق صديقه صديقا.
- إذا كثرت الحوائج فابدأ بأهمها.
- لو اجتهدت كل الجهد على أن ترضي الناس كلهم فلا سبيل؛ فأخلص عملك ونيتك لله عزوجل.
- من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.
- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

(المجموع ١٣/١)

توجيهات الرشيد لمعلم ابنه

قال خلف الأحمر: بعث إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين فقال: «يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين. أقرئه القرآن، وعلمه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم، إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه. ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تحزنه، فتميت ذهنه. ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه. وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»

(مقدمة ابن خلدون ٣٤٨/١)

بين الخير والشر

قال العلامة ابن تيمية رحمه الله: ولا ريب أن في كثير من المسلمين من الظلم والجهل والبدع والفجور ما لا يعلمه إلا من أحاط بكل شيء علما، لكن كل شر يكون في بعض المسلمين فهو في غيرهم أكثر، وكل خير يكون في غيرهم فهو فيهم أعلى وأعظم.

(مجموع الفتاوى ٢٣/٤)

نقطة البداية

قال العلامة مالك بن نبي رحمه الله: إذا قررنا أن نصعد نحو القمر في هذه الدقيقة؛ فعلينا أن نضع سلما على هذا الحائط توا، ونبدأ الرقي.

(مذكرات مالك بن نبي ٢٣٧/١)

لطيفة لغوية

قال الإمام البغوي رحمه الله: حلم - بفتح اللام - يحلم (كنصر): إذا رأى في منامه شيئا.
وحلم - بضم اللام - يحلم حلما: توقر فلم يخف بسماع ما يكره.
وحلم الأديم - بكسر اللام - يحلم إذا فسد قبل الدباغ.

(شرح السنة ٢٩٥/٦)

العدل في الخلاف

قال العلامة ابن أبي العز رحمه الله: إذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف.

(شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٦٣)

القلب الصادق

ما أجمل وأروع ذلك القلب الصادق الذي أحبك في الله فبحث عنك، تشغله الدنيا فيتذكرك، فيدفعه ذلك إلى الشوق إليك، والدعاء لك بظهر الغيب؛ ولعمري إنه لأعذب نهر يجري ماؤه بين المتحابين.

وهذا الحب العظيم من غير اتباع دعوى فحسب، ومن غير إخلاص بلوى لا أكثر، ومن غير نجوى وقرب حسرة وندامة.

فإذا ما استقر حب الله ورسوله في القلب جاء الحب لما أحباه، ومن ذلك الصحابة الكرام، مشاعل الهداية، وخير الخليقة بعد الأنبياء، هم الراضون المرضيون، فتحوا الأمصار بسمو أخلاقهم، وعلو تربيتهم. ومما يؤلمني ويؤلم كل غيور على دينه ما نسمعه اليوم من بعض الخبثاء المارقين، الذين يشوهون صورة أولئك الأبرار، ويوغرون الصدور ببغضهم وكراهيتهم، وما مثل هؤلاء إلا كذبابة وقعت على نخلة شامخة، فلما أرادت أن ترحل عنها قالت: أيتها النخلة تماسكي فإني راحلة عنك. فأجابتها النخلة: وهل أحسست بك أصلا حين وقعت علي! فاللهم إنا نشهدك أننا نحب صحابة رسولك محمد ﷺ كما أحبهم، اللهم واجعلنا خير خلف لخير سلف.

أخي القارئ الكريم، ليس يغيب عنك اليوم أن العالم اكتظ بمشاعر الأسى والبؤس، وبأمواج عاتية من اليأس والقنوط والحرمان، جعلت الكثير من الناس لا يوجد في قلوبهم مجال للحب ولا مساحة له، فما أحوج هذه اللحظات إلى قلب يهتف بالحب والإخاء.

ولكي يسود الحب بين البشر لابد أن يكون منطلقه من داخل الإنسان نفسه، فإذا استقر به قلبه، رقت مشاعره، وسمت نفسه، وامتلأ قلب صاحبه رقة يعامل بها من حوله، فلا يصدر عنه إلا جميل الخصال، وحميد الخلال، ومحاسن الأفعال، من هنا تبدأ دائرة الحب بالتوسع فتشمل ألصق الناس بك، وأحوج الناس إلى لين جانبك وحسن تعاملك.. أهلك، وفي مقدمتهم أمك، كيف لا؟ وهي قسيمة الحياة، وموطن الشكوى، وعتاد البيت، ومدار الوجدان، ومشرق السعادة، ومنبع السخاء، ومحل الهنا.

• بلال المرسي

القراء الأعزاء : نستقبل اقتراحاتكم و مساهماتكم التي من شأنها إشاعة الخير بين ربوع الأمة على البريد الإلكتروني :

info@alwaei.com

الفكر المستنير

إن مجلة الكويت صرح ثقافي عتيد، تضم نخبة من الدكاترة الفضلاء، وثلة من الكتاب الأقحاح في اللغة العربية الأم، اللغة الإعجازية ذات الدلالات الواسعة، ولغة الاشتقاقات. وهم بهذه الجاهزية، يسطرون خلاصة ما لدى أفهامهم من خبرات، ومفاهيم، ومعارف، وأنسقة، وقوالب فكرية مشرقة بالمعاني الجذابة المتميزة.

ذلك غيض من فيض، لأن السادة الكرام ذوي الهامات العالية، التي تخولهم الغوص في أمهات الكتب المزدحمة بالمعارف والعلوم المتعددة المشارب والاتجاهات، ولأن لديهم رصيدا يدلف بهم إلى سؤدة الفكر الإنساني المتألق، لذا فمجلة الكويت الغراء تعد بمنزلة موسوعة معرفية بالغة الشأن، كونها تختزل جل مفاهيم ومعارف ورؤى هذه الشخصيات العريقة، التي لا تدخر جهدا في سبيل تقديم ذلك الحشد من المواضيع والتبويبات الثابتة والمتنوعة.

كما أنها تقدم بأساليب فيها حسن التسويق ونهم التشويق، وبديناميكية فائقة تتجلى فيها السلاسة والوضوح والإثارة والقبول، إنها ممتلئة بكل تلك المعاني المنسابة التي تقتبس وترتشف من هذه المجلدات الضاربة في جبين الدهر، والمتلألئة في ناصية الزمان، فهي تهتم بالأطر والمجالات والقضايا العلمية والاجتماعية والدينية واللغوية والنفسية والمتناثرة في سياق الفكر العقلاني المستنير.. ومما تسهم به هذه المجلة الموقرة عبر صفحاتها الخلابة والعطرة، ومن أجل ما يطرح من قضايا ونسائم ما يقدم.. ولذائذ ما يعرض:

- شذا ورحيق من تلك القرائح الأدبية الواسعة الأفق العميقة الأبعاد الراسخة القدم، أريجية فواحة، جزلية التراكيب.
- عبق نرجسي من رصيد ما تمتلكه تلك الهامات من متانة ثقافية وعلمية وفلسفية، وتأطير خلاق على كل الصعد.

مجلة الكويت ذخرا يا فتى
فاظفر بها فخرا وجدد العطاء

● **مهيوب إسماعيل علي**

قراءة في كتاب مترجم

العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية

في سلسلة عالم المعرفة الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت صدر كتاب "العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية" تأليف دونالد رهيل، وترجمة أحمد فؤاد باشا.. وقد انبثق هذا الكتاب من قلب الثقافة العربية ليقدم بحيدة وموضوعية؛ من واقع الوثائق التراثية المحققة شهادة إنصاف في حق الحضارة العربية الإسلامية ودورها الرائد في تأسيس كثير من العلوم والتقنيات التي تجني البشرية ثمارها اليوم. وقد حرص المؤلف على أن يعرض مادة الكتاب في السياق التاريخي الشامل بأسلوب علمي سليم، خال من الحشو أو التبسيط المخل، فهو يبرز أهم مآثر المسلمين في عدد من العلوم الإنسانية الكمية التي شملت الرياضيات والفلك والفزياء والكمياء. ثم ينتقل المؤلف إلى الجانب التقني من العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية، فيعرض نماذج منتقاة لأجهزة وآلات وتقنيات دقيقة، ذاتية الحركة.. وقدم شرحا وافيا لإنشاءات هندسية، شملت بناء الجسور والسدود والطواحين المائية والهوائية، وأنظمة الري وإمداد المياه، وتقنية المساحة الجيوديسية واستخراج المياه الجوفية، وخصص فصلا لتقنية التعدين واستخراج الثروات المعدنية من المناجم الكثيرة على امتداد الأراضي الإسلامية.

●**نورا ياسر سليمان**

نور الهدى

أتيت تجر الذنب أم جئت مغرما
أتحسب أن الدمع يكفيك مغرما
كأنك في الطوفان والموج هادر
فتسبح نحو الفلك ترجوه مرغما
أم انك قد أحياك نور محمد
فأدراك طعم الحب كم كنت مظلما
فلبيت أمر الله: صلوا وسلموا
على من عليه الله صلى وسلما
هو النجم يهدي بالسنا ينزع الدجى
فأبصره لما بدا من به عمى
وأسمع بالإيمان من صم فاهتدى
وأنطق بالتوحيد من كان أبكما
على ساق عرش الله مكتوب اسمه
فلم يذكر اسم الله إلا وأدغما

• أحمد عبدالوهاب

الصناعة في مصر الإسلامية

عكف المؤرخون المصريون على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والبحثية، منذ فتح مصر في العام ٢٠ هجرية على يد عمرو بن العاص ورفاقه، على دراسة الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وسير الملوك والأمراء والحكام والعامة. بيد أنهم لم يهتموا، إلا في النادر، بالتاريخ الحضاري للمدن التي قامت في مصر وبيان دورها في التنمية الشاملة. لذا اخترنا الحديث في هذا المقام عن المدن الصناعية التي عرفتها مصر منذ فتحها وحتى نهاية العصر الفاطمي، وأهم الصناعات التي اشتهرت بها. وترجع د. صفي علي محمد عبدالله في كتابها القيم الموسوم «مدن مصر الصناعية في العصر الإسلامي - سلسلة تاريخ المصريين - القاهرة ٢٠٠٠»، أسباب النهضة الصناعية في مصر الإسلامية إلى استيعاب السوق المحلي لجانب كبير من الإنتاج الصناعي للمدن، والحياة الاجتماعية التي قامت على الترف والبذخ في العصر الفاطمي، واستحداث عادات جديدة في المجتمع، إلى جانب ترف الخلفاء الذين ملأوا خزائنهم بمختلف أنواع السلع والمصنوعات. وفي ذلك تقول في كتابها القيم السابق ذكره ما نصه «هذه الحياة الاجتماعية المترفة دعت إلى التقدم الصناعي، حيث تستجاد الصنائع إذا كثر طالبوها». كما كان للمعاملة السمحة التي تمتع بها الأقباط والفنانون من كل جنس ودين، واستتباب الأمن في فترات كثيرة في العصر الفاطمي، وقوة الحكومة المركزية، أثرها الطيب في ازدهار الصناعة.

• محمد فؤاد علي

مشكلة تسويق النظرية العربية

شغلت الترجمة أذهان الكثيرين، ومن ثم اختلفوا في تحديد طبيعتها، فرأى بعضهم أنها فن، خصوصا الترجمة المتعلقة بالأعمال الأدبية، ومن هؤلاء صفاء خلوصي صاحب كتاب «فن الترجمة»، ومحمد عبدالغني حسن مؤلف كتاب «فن الترجمة في الأدب العربي»، وهناك من رأى أنها نظرية قائمة بذاتها، ومن هؤلاء كاتفورد، الذي قال إن نظرية الترجمة تهتم بنمط معين من العلاقة بين اللغات، ومن ثم فهي فرع من اللغويات المقارنة. ومن المتفق عليه أن نهضة الأمم نشأت في ظل حركات ترجمة واسعة، ومثلما أشار عبدالهادي الإدريسي في كتابه «المصطلح المعرب»: «تتساوى في ذلك الحضارات كلها، شرقية وغربية، قديمة وحديثة، ذات توجه ديني أو قومي أو اقتصادي، ذلك لأن الأمة الناهضة إنما بلغت ما بلغت لاستفادتها من تجارب السابقين ومساهمتهم في سجل الحضارة الطويل، كما أنها تمثلت في ما خلفته تلك الأمم من إرث علمي وفكري، ولا يتسنى ذلك التعلم والتعليم إلا بنقل ذلك الموروث إلى لغة الحضارة الوارثة». هذا الموروث ينحصر في ثلاثة أوجزها سليمان الأزرعي في كتابه «تحديات الفكر والثقافة العربية»، هي: التأثيرات القادمة من الخارج - الثقافات العالمية - بسبب الاتصال الثقافي بين الأمم في حالات الحرب والسلم والاجتياح، وتأثيرات البيئة الثقافية الناتجة عن الظاهرات الملحة التي تستمد وجودها وشرعيتها من وقائع مادية معيشة، ومعطيات تراثية تفرض نفسها على شكل ذاكرة مرجعية للأمة، بسبب المنطق الطبيعي لاستمرارية روح الأمة وتواصلها فيما يسمى بخصوصية الأمة.

● فوزي تاج الدين

الزاهد عبدالله بن عمر ابن الخطاب (٧٢هـ)

كثير من الناس لا يعرفون إلا القليل عن تاريخ هذا الصحابي الجليل، على أن في دراسة تاريخه وأمثاله وتتبع صفاته وأخلاقه، ما هو جدير بأن يقوم نفوسا متقحمة في الفتن والمفاسد، وما هو كفيل بأن يكف من غلواء المرتمين في أحضان هذه الدنيا الغادرة والمنصرفين عن الدار الآخرة ممن يقول الله سبحانه فيهم: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:١٤).

كان في عبدالله كثير من صفات أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن أبرزها الزهد في الدنيا وعدم المبالاة بها، والوقوف عند كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولكن عمر بن الخطاب كان أقل منه رواية للحديث النبوي وأكثر معرفة في الفقه، وقد ميزه الله سبحانه بنفوذ البصيرة والانتفاع بأصول الشريعة وتعرف اتجاهها، وذلك جدير به، وقد شهد له رسول الله ﷺ بأن الله جعل الحق على لسانه، وأنه من المحدثين في هذه الأمة، ولهذا كانت له موافقات نزل بها القرآن كما قال عمر. وكان عبدالله يتسم بما نسميه الجمود، فقد كان ملتزما دون تصرف. وعبدالله أخو أم المؤمنين حفصة زوجة النبي ﷺ، وقد أعانه ذلك على القرب من رسول الله ﷺ والأخذ عنه في البيت الطاهر النبوي وفي المسجد الكريم، وفي الأسفار والغزوات. ولد في السنة الثالثة من البعثة النبوية، وأسلم مع أبيه قبل الهجرة، فهو من السابقين إلى الإسلام، ثم صار مع أبيه من أكثر الناس إخلاصا للدعوة، وقد شهد مع النبي ﷺ الغزوات منذ غزوة الخندق في السنة الرابعة للهجرة، وكان قبلها صغيرا لا يصلح للقتال فرده النبي ﷺ. وقد كان عبدالله من عباد الصحابة ونساكهم، وكان أول أمره في النسك والعبادة أنه رأى في نومه كأن ملكين أتياه فذهبا به، فقص الرؤيا على حفصة أم المؤمنين، ثم قصتها حفصة على رسول الله ﷺ فما كان ينام الليل بعد ذلك إلا قليلا.

● د. محمود النوادي

المؤرخ والتعصب

القارئ لتاريخ العلم، الذي سطره – في البداية – المستشرقون، وتبعهم فيما ذهبوا إليه جمع كبير من مؤرخي العلم، رغم اختلاف مذاهبهم وعقائدهم وجنسياتهم، يجد أنهم قد أجمعوا – فيما عدا قلة معدودة – على الطعن في الإسلام كعقيدة، وفي العرب كأمة لها دورها التاريخي في الإنسانية، وأن العرب إذا كان لهم من دور في تاريخ الإنسانية، فإنه يحمد لهم الحفاظ على تراث اليونان عبر حركة الترجمة الواسعة النطاق التي حدثت في العصر العباسي، خصوصا في عصر الخليفة المأمون على نحو معروف ومشهور، أما غير هذا فلا فضل يذكر لهم. وفي هذا المجال يبرز لنا اسم إرنست رينان E. Renan (١٨٢٣-١٨٩٢م)، وهو واحد من الأسماء اللامعة في عالم الاستشراق، فضلا عن أنه من مشاهير المؤرخين الفرنسيين، ويعد من الثقات من علماء اللغات المقارنة، وكذلك في فلسفة ابن رشد، التي كانت موضوع رسالته للدكتوراه. ولعلنا لا يعنينا من رينان سوى أمر واحد، وهو رأيه في علاقة الإسلام بالعلم، فقد كرس حياته كلها لمبدأ واحد لا يتعداه، وهو: رأيه القائل بأن الإسلام دين يتناقض مع العلم، وأن الإسلام هو السبب في انحطاط المسلمين، الأمر الذي تصدى له في حينه الإمام محمد عبده، مبينا له السبب الرئيسي في هذا الانحطاط، وهو السياسة والجمود، وأن الإسلام بريء من هذا الانحطاط، حيث يقول: «كان الإسلام دينا عربيا، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا، ثم أخطأ خليفة في السياسة فأخذ من سعة الإسلام سبيلا إلى ما كان يظنه خيرا له».

ولقد حمل رينان لواء العداوة لكل ما هو إسلامي وعربي فقد أثر عنه قوله: «إن الذي يميز العالم الإسلامي إنما هو اعتقاد المسلمين أن البحث لا طائل تحته وأنه قد يؤدي إلى الكفر».

وعلى هذا النسق يبرز اسم رينان كواحد من أسماء غلاة المتعصبين ضد الإسلام والعرب معا، فقد كرس حياته للطعن في العرب كأمة، وفي الإسلام كعقيدة، باعتبارها – في زعمه – عقيدة منافية للعلم، وله محاضرة شهيرة ألقاها في أخريات حياته وتحديدا في ٢٩ مارس ١٨٨٢م في جامعة السوربون بعنوان «الإسلام والعلم» ضمنها كل آرائه في الطعن على العرب وعلى الإسلام.

وقد سيطر التعصب، الذي يصل إلى حد كراهية كل ما هو عربي وكل ما هو إسلامي، على فكر رينان، فكان قلمه الذي يكتب به ووحيه الذي يملي عليه، على الرغم من ادعائه غير ذلك.

إن آراء رينان عن الإسلام والعلم، التي هي أشبه بالأحكام القاطعة التي لا يليق بمؤرخ أن يقطع بها من دون سند من الحقيقة، مثل رأيه في أن الإسلام دين يناقض العلم، ويتعارض مع البحث الحر، وغيرها من الآراء، إنما هي آراء قد أملاها التعصب ضد كل ما هو عربي وإسلامي وعلاقة كل منهما بالعلم، بدليل أن العلم العربي قد نشأ وازدهر في ظل الإسلام. ولو كان رينان على قدر يسير من الوعي بحقائق الأمور لعلم أن القرآن الكريم كان له تأثير مباشر في ازدهار العلم العربي.

والتعصب يفقد المؤرخ أهم أدواته في التأريخ، وهي التجرد والموضوعية. لذا، فنحن أمام حالة من هذا النوع. وعلى الرغم من تهافت هذه الآراء عبر شهادات شتى، حتى من جمهرة كبيرة من المستشرقين والمؤرخين، غير أننا نسوق شاهدا ليس إلى رده من سبيل، حول ارتباط العلم بالإسلام كما لم يرتبط علم من العلوم بعقيدة من العقائد، وهو ما يتعلق بعلم الكيمياء، وهو علم ليس للعرب سابق علم به كالطب أو الفلك مثلا. غير أن حرية البحث العلمي التي أتاحها الإسلام للعلماء قد مكنت العلماء العرب من نقل الكيمياء من مجرد خرافات هنا أو هناك إلى علم. ولقد تحدث مؤرخو العلم – على اختلاف مذاهبهم – فيما يشبه الإجماع عن أن الكيمياء علم عربي أصيل. فالكيمياء؛ حقا هي علم عربي أصيل، لفظا ومعنى.

ومن هنا يجب على الباحثين المسلمين أن يتصدوا لمثل تلك المزاعم من خلال بيان الحقائق التاريخية المسجلة في التراث العلمي العربي، حتى لا يقع النشء المسلم فريسة لتلك المزاعم.

مصطفى يعقوب
باحث أكاديمي